أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية

تأليف
محمد مختار قنديل

أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية

تأليف
محمد مختار عيد قنديل

مقدمـــة

تشرفت بالاستجابة لنداء رابطة العالم الإسلامي بالاشتراك في المسابقة السنوية في السيرة النبوية لعام ١٤٢٨ هـ في موضوع "أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية" ووفقني الله سبحانه وتعالى لإعداد هذا البحث مستعيناً به سبحانه وتعالى وبالمراجع الحديثة الميسرة في هذا المجال وآرائي وتعليقاتي الخاصة معتمداً على خلفيتي العسكرية واهتمامي بهذا الموضوع منذ أمد بعيد.

وكتبت البحث في أربعة فصول يحتوي كل منها عدة موضوعات منسقة تنسيقاً جيداً ومرتبة منطقياً وتاريخياً وأرفقت بالبحث خرائط للمواقع المختلفة الرئيسية لغزوات وسرايا الرسول ﷺ.

وقد تبين لي أن هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من الإضافات التي تتضح يوماً بعد يوم من سيرة المصطفى ﷺ ذلك الكنز الذي لا تنتهي عجائبه ودروسه العظيمة.

إن المصطفى ﷺ في حروبه ومعاركه كان قدوة في إدارة الحروب يغلظ على الكفار عند اللزوم ويرحم عند اللزوم خاصة وهو منتصر ويحرض رجاله في المواطن التي تحتاج إلى تحريض ودعاء مثل بدر كما يكبح جماح حماسة رجاله في معظم المشاهد التي تحتاج إلى السلم والرحمة مثل الحديبية وفتح مكة.

لقد عامل المصطفى ﷺ خصوم الإسلام كما لم يعامل قائد منتصر خصومه من قبل الرسول أو من بعده وكان ومازال قدوة لكل قائد مسلم أو غير مسلم يضع الحرب في وضعها المشروع وهو الدفاع عن الحق فقط الذي جاءت به الرسالات السماوية وخاتمتها الإسلام والمثل العليا.

نسأل الله العظيم أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعلنا من جنود رسوله الرءوف الرحيم الذين يدافعون عنه وعن دينهم بالمال وبالنفس.

وانى وإن لم يكن لى نصيب باحدى الجوائز الثلاثة للبحث من عدد ٦٠٠ بحث قدمت فى هذا الموضوع فانى أطمع أن يوفقنى الله لطبعه ونشره فى مصر وفى غيرها حباً فى رسول الله ﷺ ونصراً لدينه .

الفصـــل الأول

الرسول القائد ﷺ ومسرح الحرب

تاريخ مولد الرسول القائد ﷺ

اتفق معظم المؤرخين للسيرة النبوية العطرة على أن مولد الرسول القائد ﷺ كان في أغسطس عام ٥٧٠ ميلادية عام الفيل.

ويمكن إثبات ذلك من التاريخ الهجري الحالي (القمري) ومن القرآن الكريم فإذا كنا في عام ١٤٢٨ هـ وهاجر الرسول ﷺ وعمره تقريباً حوالي ٥٣ عاماً قمرياً فإنه بذلك يكون مولده منذ ١٤٢٨ هـ + ٥٣ هـ = ١٤٨١ هجرية أو قمرية.

ولحساب تاريخ مولده ﷺ بالتقويم الشمسي الميلادي فإننا نحول ١٤٨١ هـ إلى سنوات ميلادية ثم نطرحها من عام ٢٠٠٧.

أي أنه ﷺ ولد منذ = ١٤٨١ هـ × ٣٠٠ / ٣٠٩ = ١٤٣٧,٨ سنة ميلادية

وذلك عملاً بالآية الكريمة (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)[1]

وهى النسبة الصحيحة بين السنة القمرية والشمسية كما أثبت ذلك علماء مسلمين وغير مسلمين.

وبذلك يكون تاريخ ميلاد المصطفى ﷺ هو

= ٢٠٠٧,٠٠ – ١٤٣٧,٨

= ٥٦٩,٢ ميلادية

ومع اختلاف شهور السنة وحساب عمره المبارك بالتقريب عند الهجرة فإنه مولده عام ٥٧٠ ميلادية هو أقرب الاحتمالات .

---

[1] سورة الكهف ـ آية ٢٥

مولد المصطفى ﷺ .. مولد لأعظم الحضارات

عندما قدم محمد ﷺ إلى الدنيا كان المسرحُ مهيئاً تماماً لقدومه .. مسرح الأرض في شبه الجزيرة العربية تتوزع عليها القبائل المختلفة وأصحاب الديانات السماوية السابقة وكذلك كان المسرح الإنساني مهيئاً لاستقباله للنهوض بالمهمة التي أرادها الله للبشرية باكتمال نضجها وبوصول خاتم الرسالات وتمامها.

كانت اللغة العربية أشرف لغات البشر حتى الآن قد بلغت مبلغاً عظيماً من القوة والفصاحة يتخاطب بها الناس في حياتهم المعيشية ليستطيعوا أن يستقبلوا كلام الله الذي نزل بها والذي يتحداهم الله أن يأتوا بمثله مع ما بلغوه من رقي اللغة والذي وعدنا بحفظ كتابه العزيز إلى يوم الدين وبالتالي حفظ اللغة العربية وعاء الحضارة الإسلامية.

كانت مضارب بني سعد التي ترعرع فيها الطفل محمد ﷺ تضاهى أعظم كلية للغة العربية في عصرنا الحاضر وكذلك مضارب البادية على اختلاف مواقعها في شبه الجزيرة العربية.

كان الشرك بالله والكفر قد بلغ أقصى ما يستطيعان من التطرف والغلو وحق لله أن يرسل رسولاً تظهر معجزته وهدايته لأهل هذه البلاد لينقذهم من الهوة السحيقة للضلال الذي بلغوه إلى النور الذي يراد بهم ولهم.

كان أهل الكتاب خاصة اليهود قد بلغوا أقصى ما عندهم من الإفساد في الأرض وتأليب القبائل العربية على بعضها مثل الأوس والخزرج بيثرب وبلغ من سفههم أنهم قالوا للرسول ﷺ أنك نبي ولكننا لن نؤمن بك وبالإسلام.

كان بيت الله الحرام بمكة والكعبة قد ضجتا من الأصنام والأوثان التي تفترش حرم الله وكعبته وطال افتراشها له وآن لهذا البيت ولهذه الكعبة أن تتطهرا من رجس الأوثان والأصنام إلى يوم الدين.

ومع مولد المصطفى ﷺ وقبله وبعده ولد كبار الصحابة وآل البيت وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ وخالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وسلمان الفارسي وبلال بن رباح .. وكلهم نجوم أحاطوا بالكوكب النبوي المنير وعاصروه وأخذوا منه ورووا عنه حتى نساء النبي ومواليه وكل من رآه صار أداة من أدوات الدعوة الإسلامية التي أريد بها أن تختتم الرسالات.

ومع مولد النبي العظيم ﷺ كان العرب أمة مقاتلة ليس فيهم رجل إلا ويحمل سيفه ودرعه وسهمه ويركب فرسه حيث سيصطدم الحق بالباطل وينتصر الحق ثم يخرج العرب جميعاً ليؤمنوا الدعوة إلى التوحيد في مشارق الأرض ومغاربها.
لقد رتّب الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ كل شيء الأب والأم واليتم والعمومة والجد وأهل بيته حتى أعداء النبي ﷺ من المجرمين أعدهم الله لإظهار إفلاسهم وفقرهم ثم دحرهم مثلما حدث لأبى جهل في غزوة بدر وأبى لهب وقادة الكفار.

بمولد المصطفى ﷺ وضعت قدوة للبشرية ليقتدي بها الناس كل الناس مسلمين وغير مسلمين وفى كل عصر من العصور.. الرسول الخاتم المتسامح الذي أحب من سبقوه من الرسل وأحترمهم وقال عنهم ما أنا إلا لبنة في بيت النبوة العظيم الذي بدأه آدم وختمه محمد ﷺ.

والآن وبعد ١٤٨١ عاماً هجرياً من مولده ما زال اسم محمد ﷺ يتردد على ألسنة المسلمين وغير المسلمين وسيظل إلى يوم الدين وكم أتى للحياة من رجال عظماء وغير عظماء ثم ذهبوا ومازال محمد ﷺ هو أعلى الرجال أسماً وشرفاً ونوراً لأنه أرتبط بدعوة الحق واختاره الله ليقيم الشريعة الغراء والحضارة الإسلامية الإنسانية التي ستبقى إلى ما شاء الله طالما بقى كتاب الله واللغة العربية والمسلمون المخلصون.

﴿ألم تَرَ كيف فعلَ ربُّكَ بِ
أَصحاب الفيل﴾
عام الفيل : ٢٠ نيسان ٥٧١م
القلزم
أيلة
سيناء
مدين
تبوك
ضبا
العلا
خيبر
نجد
يثرب
(المدينة المنورة)
ينبع
النيل
الحجاز
رابغ
صحراء النوبة
بحر القلزم (الأحمر)
جدة
مكة المكرمة
عسير
نجران
عطبرة
مصوع
صنعاء
أكسوم
اليمن
تعز
عصب
تانا
خليج عدن
زيلع
هضبة
الحبشة
النيل الأزرق
هرجيسة

محمد ﷺ الإنسان الكامل قبل البعثة وبعدها

عندما نقرأ سيرة سيد الخلق ﷺ منذ مولده الشريف حتى وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فإن كل مسلم يتخيل قدر استطاعته كيف كان زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنه وكم كان صداقها وماذا كان فراشهما الذي عاشا عليه حياة الزوجية شهوراً قليلة. لم يكن ذلك الفراش وثيراً كما هو الآن في بيوت الملوك والأمراء الذي ينجبون أطفالاً لا يساوون شيئاً بجانب الطفل محمد ﷺ ولكنه كان عريق الشرف ينتمي إلى إسماعيل عليه السلام.

ولنا أن نتخيل كذلك كيف كان محمد ﷺ عندما دفعته أمه إلى حليمة السعدية ، ما هو لباسه وهل كان معه حقيبة سفر صغيرة أو غيارات بالعشرات إذ ربما لم تدفع والدته لحليمة إلا غياراً واحد متواضعاً لذلك الوليد اليتيم.

إن أي يتيم الآن في مصر يلبس أفضل مما كان يلبس محمد كافل الأيتام ولكن محمداً تفوق بفضل الله على كل الأيتام وغير الأيتام.

أين كان يأوي الطفل محمد ﷺ ليلاً؟ هل في خيمة أمه أم مع إخوته من الرضاعة في خيمة أخرى من جلد الماعز أو أي جلد آخر وماذا كان يعمل في ظلام الليل الطويل في الشتاء إذ لم يكن هناك نور غير نور الله والشمس والقمر ومن كان يضفي عليه الحنان غير الله.

ماذا كان يأكل سوى لبن الأم المرضعة. هل كان هناك شيء سوى الخبز الجاف وبعض الفاكهة وأهمها التمر.

كان الطفل يجري ويلهو لهواً بريئاً بغير لعب الأطفال التي نراها اليوم من كل شكل ولون والتي يحصل الباحثون للحصول على الدكتوراه عن أنواعها ومناسبتها لكل سن ولكل جنس للأولاد لعب وللبنات لعب.

ذلك الطفل العظيم تكلم من أول ما تكلم العربية الفصحى ولم يذهب لمدرسة في مضارب بني سعد تعلم الفارسية أو الرومية أو الإنجليزية والفرنسية.

رغم الفقر في كل شيء والبساطة الشديدة إلا أنه ﷺ نشأ ورباه ربه على الخلق العظيم أساس بناء الإنسان وليس على الثراء والرفاهية.

وعندما شب وعانى وفاة الأم والجد وتربى في بيت عمه عمل بأصعب حرفة وأجهدها على أي إنسان وهى حرفة رعي الغنم ورعي الغنم فيه من الجهد النفسي للحفاظ على الأمانة (العهدة) أكثر ما فيه من الجهد البدني.

سافر الشاب إلى الشام مرتين مرة مع عمه ومرة مع تجارة السيدة خديجة بنت خويلد وتحمل المسئولية كما يجب أن تُحمل المسئولية وكما يجب أن تُؤدى الأمانة.

وتتعاقب حياته المباركة بكل ما فيها من مشقة ومتاعب نفسية وبدنية ولكنه تمسك بأداء الأمانة وتبليغ الرسالة ولم يفرط في أي شيء منها رغم معيشة الكفاف التي عاشها ورغم قلة وسائل الراحة للركوب والاتصال واللباس والمأكل والمشرب ورغم غلظة أخلاق الجاهلية التي نجح بفضل الله في تهذيبها وتغييرها إلى الأفضل.

هذا هو المصطفى ﷺ سيد الخلق الذي قضى الليالي والأيام الكثيرة خارج أحضان أسرته رائحاً غادياً من غزوة إلى غزوة ومن عمرةٍ إلى حج غير عابئ بالبرد والحر الشديد وغير عابئ بظلام الليل ووحشة الصحراء.

لقد حظيت ثلاثة وعشرون عاماً هي عمر بعثة المصطفى ﷺ بكل عناية ممكنة من الرواة والباحثين في الشرق والغرب مسلمين وغير مسلمين ولكن أربعين عاماً أخرى قبل البعثة لم تحظ بمثل ذلك وليتها تحظى بالبحث والتمحيص والتأريخ لأنها السنوات التي أهلته لتلقى الرسالة وأداء الأمانة وهى تقريباً ضعف مدة البعثة المباركة.

الرسول القائد ﷺ رجولة مبكرة وتحمل الأمانة

اختاره الله ليكون رسوله الخاتم وسيد المرسلين فجعل ميلاده بعد وفاة الأب ولم يكن هناك أخ أو أخت وفى اليوم الثامن ذهب مع حليمة السعدية ليعيش وسط أناس آخرين غير أهله ثم تموت أمه بين يديه وهو في السادسة من عمره ليتعلم قدرية وحتمية الموت وليعود مع جارية من المدينة لمكة وسط صحراء قاحلة مظلمة ليألف قلبه وعيناه هذه الصحراء التي سيقطعها مراراً بعد ذلك.

ثم يموت جده ويصحبه عمه وهو في الثانية عشرة إلى خارج البيئة العربية إلى الشام بتضاريسها وزراعاتها وديانات أهلها ليتفتح قلبه على عالم أوسع كثيراً من مكة وما حولها.

وفى الخامسة والعشرين يذهب للشام تاجراً للسيدة خديجة بنت خويلد ليتعامل مع الناس من مختلف الجنسيات واللهجات والأعمال ويظل هو هو الصادق الأمين في التجارة وفى غير التجارة.

وقبل التجارة يرعى الغنم لأهله ولغير أهله يتعلم من الرعي الصبر واليقظة والمحافظة على الأمانات ويمارس التأمل والتفكير في الحياة وغاياتها وبداياتها ونهايتها منتظراً جواباً عن الغاية من كل هذا.

تعلم في البادية الفصاحة والبلاغة وحضر حرب الفجار مع قريش وتدرج في التدريب على السلاح من جمع السهام وهو في الخامسة عشرة إلى الرمي بها بعد ذلك وعرف عادات العرب في الحرب والسلم وما هو الجائز وغير الجائز في هذه الحروب التي تدوم لأيام كل عام وتتجدد بوعد على لقاء المتقاتلين في العام القادم.

الرسول القائد ﷺ رب الأسرة

المصطفى ﷺ خاتم النبيين أول وأعظم قائد مسلم على مر التاريخ حتى تقوم الساعة ولد يتيم الأب ثم توفيت أمه في السادسة من عمره ثم جده ليعرف جيداً معنى أن يترك الأب أو الأم أبناءه ليتربوا في كنف غيره ورعايتهم وهو يعرف جيداً وبشر بذلك عن ثواب الشهيد الذي يقتل في سبيل الله وأجره عند الله وجزاؤه الجنة ويعرف كذلك ليتمه ماذا سيعانيه الأبناء بعد استشهاد أو وفاة أبيهم.

ثم تزوج ﷺ في الخامسة والعشرين ورزقه الله البنين والبنات وماتوا جميعاً في حياته عدا السيدة فاطمة التي ماتت بعده بشهور قليلة وماتت السيدة خديجة في حياته أيضاً وفى وقت ضيّق عليه المشركون الخناق.

الرسول ﷺ القائد المثالي والقدوة كانت حياته كلها تربية وتأديباً ليربى ويؤدب أصحابه وقادته على القيادة الإسلامية المثالية والذين سيفتحون العالم لنشر الإسلام بعد ذلك.

إنه يدرك جيداً مدى معاناة الأطفال الأيتام ومدى معاناة فقد الأبناء والبنات لقد كان الموت قريباً منه قبل البعثة وبعدها ليعرف أن الحياة قصيرة وللإنسان أن يعيشها لهدف سامي وليس هناك أسمى من توحيد الله والدعوة إليه.

كان رب الأسرة متزناً مفكراً متأملاً معطياً لعقله وفكره الوقت الكافي للتأمل وتدبر الحياة وكان مشاركاً في الحياة العامة محترماً مسموع الكلمة أميناً في كل أقواله وأفعاله وكانت لديه القدرة على حل المشاكل والنزاعات ببساطة كما فعل يوم وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة عند إعادة بنائها وأشترك معهم في البناء بنفسه وبيديه الشريفتين.
هداه الله إلى التفرغ للعبادة والتحنث في شهر رمضان من كل عام في غار حراء متحملاً مشاق صعود الجبل إلى الغار والنزول منه مهتدياً بالشمس والقمر والنجوم حافظاً لمعالم طرق الصحراء ودروب الجبال الموحشة الصعبة.

المسرح السياسي والديني أثناء البعثة المحمدية

يكاد يتفق المؤرخون على أن مهد الحضارة الأولى كان في المنطقة العربية الآن وما حول البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وقد بدأت فيها الحضارات المصرية القديمة والآشورية والفينيقية والإغريقية وحضارة اليمن كما ظهرت دول قديمة على شواطئ هذين البحرين والخليج العربي.

كانت حضارات هذه المنطقة التي يمكن أن نطلق عليها منطقة الشرق الأوسط والتي تضم بجانب الدول العربية الحالية دول الجوار العربي إيران وتركيا وأثيوبيا واليونان كانت تقوم على أسس دينية منذ عهد أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

نشأ موسى عليه السلام في مصر وفيها بعثه الله إلى فرعون ونشأ عيسى وبُعث في فلسطين وانتشرت المسيحية من بعده على يد الإمبراطورية الرومانية في مصر والشام واليونان والحبشة وبعض المناطق العربية.

انتصرت فارس المجوسية قبل البعثة المحمدية على الروم إلا أن الفرس لم يغيروا المسيحية وكل ما صنعوه أن أخذوا الصليب الأعظم حتى أسترده الروم منهم، كان تكافؤ القوتين المجوسية والمسيحية حائلاً دون تغلب إحداهما على الأخرى دينياً إلا أن انحلال فارس بدأ منذ تولى عرشها شيرويه الملك الشاب المسرف في متعه وملذاته.

وفى القرن السادس الميلادي قرن ميلاد الرسول الخاتم ورثت بزنطية الإمبراطورية الرومانية كلها وأصبحت بذلك القوة الغربية وامتدادها حتى الآن في مواجهة الشرق الفارسي ثم الإسلامي بعد ذلك.

كان للإمبراطورية المسيحية امتدادها المسيحي في الشام حيث دان بالمسيحية العرب الغساسنة وأهل الحيرة على شاطئ الفرات واللخميون والمناذرة كذلك.
ورغم مجاورة المجوسية والمسيحية لشبه الجزيرة العربية إلا أن هذه ظلت مستقلة إلا من بعض أطرافها التي وقعت تحت نفوذ الفرس أو الروم مثل اليمن ودائماً ما تكون الأطراف ضعيفة وعرضة للتأثر بالدول المحيطة.

اليمن والحبشة قبل البعثة المحمدية

اليمن بلاد الخصب والنماء على النقيض من باقيْ الجزيرة العربية كانت ميداناً للصراع بين اليهودية والمسيحية ثم بين المسيحية والمجوسية بعد ذلك.

دعا ذو نواس الحميري أهل نجران المسيحيين إلى اليهودية فرفضوا فشق لهم أخدوداً ملأه ناراً ثم ألقاهم فيه ومن لم يمت بالنار مات بالسيف وقد وصل عدد القتلى من المسيحيين في نجران حوالي ٢٠ ألف قتيلاً مسيحياً.

أستنصر أحد الفارين من الأخدود بقيصر الروم جوستنايان الذي طلب إلى النجاشي ملك الحبشة الثأر من ذي نواس الحميري الذي أرسل أرياط وأخضع اليمن ثم تولى أبرهة الحكم وهو صاحب قصة الفيل التي وردت في القرآن الكريم.

أستبد أبناء أبرهة باليمن وظلموا الناس فاستنجد سيف بن ذي يزن الحميري بالفرس فأعانوه وأجلوا الحبشة عن اليمن بعد احتلال دام حوالي ٧٢ سنة.

وهكذا تقلبت اليمن من حكم اليهودية إلى حكم الحبشة المسيحية إلى حكم الفرس المجوسية حتى ظهر الرسول القائد الذي عرف كل ذلك ووضعه في حسبانه عند الهجرة الأولى للحبشة ثم الثانية ولم تكن هجرات مسلمي مكة إلى اليمن لاضطراب الأحوال بها وعدم الاستقرار وعدم وجود حكم قوى مستقر بها.

أما الحبشة التي يحكمها النجاشي فكانت في قمة مجدها السياسي والاقتصادي ولها أسطول تجاري ضخم يجوب البحر الأحمر وكانت حامية حمى المسيحية على الشاطئ الغربي الجنوبي للبحر الأحمر.

ولذلك اختارها المصطفى ﷺ لتكون مقراً للهجرتين الأولى والثانية لمسلمي مكة لعدالة حاكمها وبعدها عن متناول أهل مكة من المشركين إذ كانوا لا يستطيعون إرسال أكثر من وفد برئاسة عمرو بن العاص داهية العرب قبل إسلامه ليؤلب النجاشي على المسلمين المهاجرين هناك حيث فشل عمرو بن العاص في مهمة إعادة المسلمين مطرودين من الحبشة بعد مناظرة شهيرة قام بها مع جعفر بن أبى طالب في حضور النجاشي ملك الحبشة.

رحلة الشتاء والصيف
صيفاً
شتاءً
البحر المتوسط
الشام
بصرى
القدس
غزة هاشم
البحر الميت
وادي السرحان
الحيرة
طيسفون
الفرات
دجلة
بابل
السواد
الأبلة
الخليج العربي
كاظمة
دومة الجندل
معان
أيلة
القلزم
سيناء
تبوك
الخريبة
مدين
تيماء
حائل
ضبا
العلا
الوجه
مصر
خيبر
نجد
يثرب
(المدينة المنورة)
البحر الأحمر
الحجاز
مكة المكرمة
الشعيبة
(جدة)
تربة
الطائف
النوبة
عسير
القنفذة
نجران
جيزان
صعدة
فرسان
مصوع
دهلك
مأرب
صنعاء
كمران
أكسوم
الحبشة
زبيد
اليمن
تعز
المخا
عصب
عدن
خليج عدن
عطبرة
النيل
النيل الأزرق

المسرح الجغرافي لغزوات وسرايا الرسول القائد ﷺ

شبه الجزيرة العربية الحالية هي نفسها التي بعث الرسول الخاتم ﷺ فيها عدا ما جدّ عليها من حضارة مادية تتمثل في الطرق والإنارة وشبكات الاتصال والبنايات العالية والموانئ والمطارات ومحطات تحلية مياه الشرب والزراعة وكل أشكال الحضارة الحديثة.

هي نفسها بأبعادها فهي شبه مستطيل عرضه حوالي ألف كم وطوله من الشمال للجنوب أكثر من ألف كم وتصل مساحتها وهى عبارة عن دول مجلس التعاون الخليجي واليمن إلى حوالي أكثر من ٣ مليون كم٢ تماثل تقريباً مساحة الهند التي تستوعب حالياً أكثر من مليار نسمة ومساحة الجزيرة العربية على عهد الرسول لم يكن بها إلا حوالي نصف إلى واحد مليون عربي على الأكثر.

هذه المساحة الشاسعة على عهد البعثة بغير مطر منتظم إلا في اليمن وبغير مصدر لمياه شرب الإنسان والحيوان إلا في الآبار المتناثرة في الصحراء والتي تقام حولها القرى والمدن الصغيرة مثل مكة ويثرب والطائف ، هذه المساحة الهائلة الفقيرة في كل الموارد الطبيعية عندئذ جعلتها غير مطمع لأحد للسيطرة عليها أو احتلالها أو العيش فيها ولم يرض بالعيش فيها إلا البدو الرحل الذين ولدوا فيها.

هذه المساحة الهائلة محاطة بالبحار من الغرب والشرق والجنوب وبعازل الصحراء في الشمال بينها وبين العراق والشام تمثل عبئاً ثقيلاً على أي قوة مقاتلة تتحرك إذ لابد من الإبل والدواب للنقل ولابد من أدلة للسير في هذه الصحراء الواسعة ولابد من أحمال من مياه الشرب للمقاتلين ودوابهم وطعام لهؤلاء وهؤلاء جميعاً.

هناك في الشمال الشام - سوريا ولبنان والأردن وفلسطين - بمساحة حوالي ٣٠٠ ألف كم٢ تمثل ثمن مساحة شبه جزيرة العرب ولكنها عامرة بالحياة بسبب الأنهار والأمطار وخصب التربة وهناك العراق بمساحة حوالي ٤٤٠ ألف كم٢ وهناك إيران - الفرس سابقا - بمساحة ١,٦ مليون كم٢ وبإمكانات بشرية ومادية هائلة بالنسبة لجزيرة العرب في صدر الإسلام كمسرح للقتال كان فقيراً شاقاً لا طرق ممهدة أو إنارة ليلية أو أدوات ملاحة غير النجوم حتى المدقات والدروب المتيسرة ملتوية صاعدة هابطة ذات حجارة مدببة تؤلم الأقدام والدواب إذا هبت عاصفة طمرت الناس والدواب ، يضل فيها الساري والسائر طريقه وقد يدركه الموت ولا يعرف أين هو إذا سار وحده.

كانت منة الله على هذه الأرض أن جعل مكة المكرمة عاصمتها بالقرب من البحر الأحمر والمدينة المنورة كذلك والمسافر بينهما ربما يهتدي بالبحر الأحمر في سفره في الذهاب والإياب.

لقد يسّر الله للمسلمين الصلاة إذ أن قبلة المسجد الأقصى للشمال قليلاً إلى الغرب ثم القبلة بعد ذلك للمسجد الحرام إلى الجنوب مباشرة من المدينة وهو ما يمكن الاهتداء إليه بالشمس نهاراً بالنجوم ليلاً.

وشبه الجزيرة العربية بها جبال وتلال يبلغ بعضها مئات الأمتار ارتفاعاً وتكثر الجبال على جانب شبه الجزيرة الغربي "تهامة" ثم تنخفض الأرض كلما اتجهنا شرقاً "نجد" حتى شاطئ الخليج العربي وهناك في الجنوب جبال اليمن والربع الخالي كله كثبان رملية "صحراء الأحقاف".

ودرجات الحرارة معروفة الآن ولا تختلف كثيراً عنها أيام البعثة المحمدية ومن فضل الله وكرمه أن تميزت مكة بالحر صيفاً والدفء شتاءاً ليتحمل الحجاج والمعتمرون لبس الإحرام أما المدينة فمعتدلة بما يناسب اللبس العادي للبشر.

وهناك طريقان للقوافل وهما طريق الشرق ويسير بحذاء الخليج العربي غرباً حتى الجانب الغربي من نهر الفرات ثم بادية الشام إلى لبنان وفلسطين وطريق الغرب يتاخم البحر الأحمر ممتداً من اليمن إلى الشام ماراً بمكة والمدينة ولهذين الطريقين طرق فرعية ودروب موازية تصل لآبار المياه على جوانب هذه الطرق ويمكن الخروج عن هذه الطرق للمسافر بين مكة والمدينة باستخدام الأدلة كما فعل المصطفى ﷺ في هجرته المباركة وسار في طرق ودروب غير مطروقة لتضليل مطارديه من مشركي قريش.

بعض التقاليد الاجتماعية والعسكرية قبل البعثة

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)[1]

بهذه الكلمات الخالدة والسنة الكونية الثابتة جعل الله كل شيء حي من الماء والشيء يشمل الناس والدواب والنبات والقرى والمدن والدول والحضارات وحيثما وجدت المياه - الأمطار والأنهار والآبار - وجد العمران ووجد الاستقرار وقل الاقتتال وانتظمت الناس حياة مستقرة لها قوانينها وقواعدها الأخلاقية وقد يكون من معنى هذه الآية أنه عند فصل الأرض عن السماوات وبداية خلق الأرض كان الماء هناك عنصر الحياة على الأرض.

ولقلة الأمطار وآبار المياه في الجزيرة في الجزيرة العربية وبالتالي قلة المرعى كان على القبائل التي تواجدت على هذه الأرض أن تناضل من أجل البقاء وأن تظل على ترحال دائم ولا ترتبط بمكان واحد إلا بمكان به مصدر مياه ثابت وأماكن عبادة وتجارة نشأت على مر العصور كما حدث في مكة والمدينة.

كانت القبائل تتقاتل من أجل البقاء ولا تتمسك بالأرض وإنما بالمرعى وقد تفنى قبيلة بكاملها في قتال مع قبيلة أخرى يُقتل رجالها ويُسبى نساؤها وأطفالها وتؤخذ ممتلكاتهم جميعاً غنيمة للمنتصر ويصدق القول الشهير ويلٌ للمهزوم.

كان الخصوم يتواعدون على اللقاء للقتال ويستمر القتال لنهار واحد إذ لم يعرف لدى العرب قتال ليلي قبل البعثة أو أثنائها وإنما قد يقع حصار ويستمر لفترة طويلة.

وقد يصطلح الخصوم على مقارنة القتلى ودفع دية فرق أعداد القتلى أما الجرحى فقد يعوضون أو يتركون لمصيرهم المحتوم إما الألم الدائم وإما الوفاة.

كان القتال يبدأ بالمبارزة ثم يلتحم الفريقان بين الكر والفر وكأنها معركة أو "خناقة" كبيرة كما يحدث بين بعض القرى أو الأسر العربية في عصرنا الحاضر بالعصي والأسلحة البيضاء.

---

[1] سورة الأنبياء ـ الآية ٣٠

كان للعرب ذاكرة قوية يعرفون بها من قتل من ومن دفع الدية ومع من تحالف خصم مع حليف ضد خصم آخر كان تاريخهم مدوناً في ذاكرتهم لذلك وصلتنا الكثير من أخبار غزوات الرسول ﷺ القائد وسراياه زيادة على ما ورد في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة من ذاكرة الأجيال تتوارثها الأجيال.

كان الرجل العربي مقاتلاً منذ نعومة أظفاره كل يحمل السلاح الذي يناسبه أو تدرب عليه وكان قائد المعركة لكل طرف يقاتل وسط أهله وهو أقواهم بدناً وأمهرهم لاستخدام السلاح أو ركوب الخيل أو القتال المترجل.

لم يكن للضعفاء ولا للمرضى ولا لكبار السن مكان في المعارك وكانت النساء تقاتل إذا اضطررن لذلك حماية لأنفسهن من ذل الرق والعبودية في الأسر إذا هزم رجالهن.

الرمي عند العرب

كان الرمي أو الرماية هو الرياضة الرئيسية أو الوحيدة التي يمارسها شباب ورجال العرب بجانب ركوب الخيل والتدريب على استخدام السلاح وهو السيف والرمح والسهم والنبال.

كان الرمي بالرماح والسهام والنبال وكانوا يتنافسون في تدقيق التنشين وإصابة الهدف لأن ذلك سيساعدهم عند القتال الذي لا يتوقف بين القبائل إلا ليبدأ من جديد وعلى موعد متفق عليه.

وأتسع مفهوم الرمي ليشمل الآن الرمي بالبندقية والرشاش والمدفع وكل أداة تحتاج للتدقيق في اختيار الهدف وإصابته وهو قوة لأفراد أي جيش من جيوش العالم.

وأتسع مفهوم الرمي كرياضة ليشمل كرة القدم والسلة والرمي بالرمح والجلة والجولف بل والبلياردو بل والوصول إلى أرقام جديدة في السباقات الدولية.

إن الرمي بناء للقوة البدنية والنفسية ورياضة مشروعة أمرنا المصطفى ﷺ بممارستها إذا كان الغرض هو قوة المسلمين فرادى ومجتمعين.

يقول عليه الصلاة والسلام في حديثه الصحيح عن عقبة بن عامر: "ألا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي".

صلى الله عليه وسلم الذي حرضنا على بناء القوة وألا نكون ضعفاء وأن نقلد سيدنا إسماعيل الذي كان رامياً وجداً للعرب حيث يقول عن ابن عباس: "رمياً بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً".

الخريطة الدينية قبل البعثة ومكة

رغم إحاطة الديانات السماوية السابقة على الإسلام وهى المسيحية واليهودية بالجزيرة العربية فلليهود تواجد باليمن وكان لهم تواجد بالمدينة المنورة كما كان النصارى شمال شرق الجزيرة العربية وشمال غربها وفى اليمن وفى الحبشة وفى مصر والشام وكان المجوس هناك في فارس .. وعلى الرغم من ذلك إلا أن العرب احتفظوا بوثنيتهم فهناك كان كبير آلهة هبل في قلب الكعبة بيت الله الواحد الأحد والتي طهرها الرسول ﷺ خلال العشر الأواخر من رمضان بعد الفتح الأعظم لمكة.

كانت الأصنام الخاصة كذلك في البيوت ومع القافلة لتحفظها أثناء سفرها الطويل.

كان العرب يعتبرون عبادة الأصنام زلفى تقربهم إلى الله ومع الزمن نسوا الخالق وعبدوا المخلوق حتى جاء خاتم المرسلين ﷺ فصحح مسار الإيمان والتوحيد.

كانت مكة عاصمة الجزيرة العربية بغير دستور مكتوب إلا ما توارثه الأجداد عن تقديس الكعبة بيت الله ووقوعها على طريق القوافل وإقامة قريش بتاريخها وأمجادها بها.

كانت مكة عاصمة ديانة التوحيد ملة إبراهيم عليه السلام ثم تحولت مع الزمن إلى عاصمة الوثنية في شبه الجزيرة العربية لا ينافسها في ذلك منافس من قرى شبه الجزيرة أو تجمعاتها القبلية.

كانت مكة ولا زالت حصينة بالجبال المحيطة بها حتى الآن والتي تخترقها طرق تربطها الآن بالمملكة عبر مضايق أو ممرات محددة.

لم تكن هزيمة أبرهة عام الفيل انتصاراً للأصنام بالبيت الحرام وإنما كانت انتصارا للتوحيد الذي سيأتي برسالته محمد ﷺ الذي ولد عام الفيل ثم طهر الكعبة بعد ٦١ عاماً من مولده المبارك.

أُمّ القُرى
مكّة . بكّة . البيت الحرام.
البيت العتيق . البلد الأمين.
صحراء النُّفوذ الكبرى
شبه جزيرة العرب
الأحساء
نجد
الحجاز
عسير
الربْع الخالي
اليمن
ظفار
عُمان
فارس
بحر العرب
بحر القلزم
(الأحمر)
مصر
الحبشة
البحر المتوسط
البحر الميت
الإسكندرية
القاهرة
الفيوم
سيناء
أيلة
مدين
كاظمة
الأهواز
بوشير
الخليج العربي
دارين
ديا
صحار
خليج عُمان
مسقط
مصيرة
المدينة المنورة
مكة المكرمة
جدة
مُصَوَّع
عصَب
المخا
عدن
خليج عدن
القرن الإفريقي
الحديدة
صنعاء
حضر موت
تريم
المكلا
كم
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠
١٠٠٠
مكة المكرمة
الحجون
قبر السيدة خديجة رضي الله عنها
إلى وادي فاطمة
مسجد النوق
إلى عرفات
العلا
مقبرة
المروة
المسجد الحرام
الكعبة
الصفا
مسجد بلال
بيت ولادة رسول الله ﷺ
أجياد

مَكَّةُ المُكَرَّمَة

﴿ إن أوَّل بيت وُضِعَ للنَّاسِ للَّذي بِبَكَّةَ مُبَاركاً وَهُدىً للعالَمين ﴾ ، (آل عمران ٣/٩٦) .

مكة ، بكة ، أم القرى ، البيت الحرام ، البيت العتيق ، البلد الأمين ، بيت الله الحرام .

وهي أيضاً : النَّساسة ، أم رُحم ، معاد ، الحاطمة ، الرأس ، صلاح ، العرش ، القادس ، المقدَّسة ، النَّاسة ، الباسَّة ، كوثى ، (معجم البلدان ٥/١٨١).

مَكَّةُ المُكَرَّمَة

أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم

(عن التكوين المعماري والحضري لمدن الحج للشيخ محمد سعيد فارس)

ثلاثة عشر عاماً بمكة من الحرب الباردة

قضى الرسول العظيم ﷺ حوالي ثلاثة عشر عاماً من بعثه لهجرته بمكة يجاهد بكل شيء عدا القتال الذي لم يُؤمر به من خالقه وباعثه. قضاها يجاهد بالكلمة الطيبة والقدوة الحسنة والجدال المنطقي ويتحمل الأذى والإساءات لشخصه وأسرته وأصحابه ويتحمل الحصار لحوالي ثلاث سنوات في شعب من شعاب مكة يعاني وأصحابه وأهله الجوع والعطش وثلاث سنوات أي حوالي ألف يوم ليست بالفترة الزمنية القليلة ورغم ذلك لم يتردد أو يضعف أو يتهاون في الهدف الأسمى الذي أرسل من أجله ، هذه الألف يوم الشاقة لم يقطعها إلا أيام الأشهر الحرم.

كان الرسول القائد ﷺ طوال ثلاثة عشر عاماً بمكة قائداً يدير الحرب النفسية ضد أعدائه من المشركين بمهارة فائقة حتى أنهم ضاقوا به في النهاية وقرروا قتله فهاجر فاراً بدينه بإذن ربه.

كانت أدوات الحرب النفسية الشعر والنثر والحوار ورد الأذى إن استطاع المسلمون ذلك ولم يستخدم عليه الصلاة والسلام أساليب الغدر والاغتيال والأذى بالمثل بل صبر واحتسب.

وجاء حادث الإسراء امتحاناً للمسلمين الأوائل فمنهم من نجح مثل الصديق وقِله ارتدت لضعف إيمانها فطهر الله المسلمين منهم وجاء موت أبو طالب والسيدة خديجة امتحاناً عسيراً نجح فيه المصطفى ﷺ وازداد قوة على قوته وخرج إلى الطائف يدعو وأوذي وصبر ورفض الانتقام من المشركين بإطباق الجبال عليهم كما أخبره ملك الجبال.

ووسط كل هذا يخطب القائد ﷺ ويتزوج ليعطي القدوة أن يكون القائد أو الزعيم مستقراً نفسياً يعيش وسط أسرته الصغيرة ووسط أسرته الكبيرة.

الفتح العظيم .. الفتح السلمي للمدينة

إذا كان فتح مكة في رمضان عام ٨ هـ هو الفتح الأعظم للإسلام بتحرير مكة والمسجد الحرام من الأصنام ودخول الناس في دين الله أفواجاً فإن فتح المدينة المنورة ببيعتي العقبة الأولى والثانية ثم الهجرة للمدينة بعد ذلك هو الفتح العظيم للإسلام ببناء دولته وعاصمتها المدينة والاستعداد للدفاع عن الإسلام بالقوة بعدما أذن الله لرسوله ﷺ بذلك.

وإذا كان الرسول القائد ﷺ قد توقع أن تصل الحرب الباردة أو الحرب النفسية بينه وبين مشركي مكة إلى طريق مسدود في نهايته محاولة قتله وقتل فكرة التوحيد من أساسها فإنه عليه الصلاة والسلام قد عمل حساباً لهذا اليوم ببيعتي العقبة الأولى والثانية واللتان تعهد فيها المدنيون بالدفاع عنه ونصرته.

إنه عليه الصلاة والسلام لا يرغب في إشعال حرب أهلية في مكة إذا قاوم المشركين بالقوة لأن ذلك قد يؤدى إلى تقطيع الأرحام وخلق المرارة والأحقاد في نفوس أبناء الأسرة الواحدة وهو ما لا يرضاه الإسلام كذلك الذي يوصى دائماً بصلة الأرحام بل والرفق بالوالدين ولو كانا مشركين.

وقد درس الرسول القائد ﷺ جيداً موقف المدينة وقبائلها وتاريخها وعلاقاتها باليهود المتوترة دائماً وللمدينة عند الرسول ﷺ موقع خاص فأخوال عبد المطلب فيها وفيها قبر والده وبالقرب منها قبر أمه أي أنها تكاد تكون توأم مكة لولا المسجد الحرام بيت الله.

والرسول ﷺ وهو أعظم القادة قد أمّن في كل مرة اجتماعه بوفدي بيعتي العقبة الأولى والثانية وكبح جماح حماس بعض الذين قالوا بقتال المكيين منوهاً أنه لم يؤمر بقتال حتى هذه اللحظة.

وبناء على بيعتي العقبة الأولى والثانية وإرسال مصعب بن عمير للمدينة لتعليم الناس الإسلام ودعوة المزيد للدخول في الإسلام فقد دفع الرسول القائد ﷺ بالكثير من المهاجرين سراً من مكة إلى المدينة ليسبقوه وليأمنوا على إسلامهم وأنفسهم حتى إذا هاجر ﷺ لم يترك صحابته فريسة لأذى المشركين ومساءاتهم.

الهجرة من مكة إلى المدينة
من القيود على العقيدة إلى حرية العقيدة والمواطنة

دفع الرسول القائد ﷺ بالمسلمين إلى الهجرة للمدينة المنورة قبله فأخذوا يتسللون فرادى ومجموعات صغيرة مرتبين أمورهم المادية مثل مؤونة الفرد الطعام والشراب والدواب ربما تحت حجة التجارة أو الزيارات المتبادلة بين المكيين وأقربائهم في المدينة وانتظر ﷺ الأمر بالهجرة من قائده الأعلى رب الكون وعندما أذن الله له هاجر وتحمل من مشاق السفر والخوف والقلق الكثير هو وصاحبه ووزيره أبو بكر وربما خطط مع أبي بكر لكيفية إدارة الأمور في المدينة وترتيب أسلوب الدعوة أو الدفاع عن المدينة والله أعلم بما كان يدور بينهما والله فقط ثالثهما.

هاجر من مكة بعد ثلاثة عشر عاماً من الصبر والصمود والدعوة إلى التوحيد في مجتمع مكة الذي لم يكن يعرف حرية العقيدة أو مبدأ المواطنة والتسامح إلا لمن هم على مثل شركهم.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [1]

ويذكر الله رسوله ﷺ قائد جنده المسلمين الغر الميامين بعد حوالي تسع سنوات من الهجرة بما كان عليه وهو فار بدينه من مكة إلى المدينة وهو قد أصبح قائداً منتصراً بفضل الله على الشرك في الكثير من الغزوات والسرايا وانتشر الإسلام بما لا يقارن بأيام الرسول ﷺ في مكة قائلاً:

(إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [2]

يقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه "حياة محمد" في الفصل الحادي عشر عن بداية بناء الدولة الإسلامية في المدينة والأسس التي بنيت عليها وهى دولة متعددة الأديان حرية الاعتقاد مكفولة لأهلها جميعاً وهى دولة بدأت وانتهت مع عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وليس لها وجود الآن :

---

[1] سورة الأنفال ـ الآية ٣٠

[2] سورة التوبة ـ الآية ٤٠

"هو لم يكن يفكر في ملك ولا في مال ولا تجارة ، بل كان كل همه توفير الطمأنينة لمن يتبعون رسالته ، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم ككفالتها لغيرهم في عقيدتهم ، يجب أن يكون المسلم واليهودي والنصراني سواء في حرية العقيدة ، وفى حرية الرأي وحرية الدعوة إليه . فالحرية وحدها هي الكفيلة بانتصار الحق وبتقدم العالم نحو الكمال في وحدته العليا ، وكل حرب على الحرية تمكين للباطل ونشر لجيوش الظلام لتقضي على جذوة النور المضيئة في النفس الإنسانية والتي تصل بينها وبين الكون كله ، من أزله إلى أبده ، صلة اتساق ومحبة ووحدة ، لا صلة نفور وحرب وفناء".

هذه الوجهة في التفكير هي التي نزل بها الوحي على محمد ﷺ منذ الهجرة . وهى التي جعلته جنوحاً للسلم ، راغباً عن القتال ، مقتصداً طول حياته أشد القصد فيه ، غير لاجئ إليه إلا لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية دفاعاً عن الدين وعن العقيدة . ألم يقل له أهل يثرب ممن بايعوه في العقبة الثانية حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش ينبهها لأمرهم : "والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منًى غداً بأسيافنا" ، فكان جوابه ﷺ : "لم نؤمر بذلك" ؟ ألم تكن أول آية نزلت في القتال

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)[1]

ألم تكن الآية التي تلت هذه في أمر القتال قوله تعالى

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ)[2]

فتفكير محمد ﷺ إذا إنما كان متجهاً إلى غاية واحدة عليا ، هي كفالة حرية العقيدة والرأي كفالة في سبيلها وحدها أحل القتال ، ودفاعاً عنها أبيح دفع المعتدي حتى لا يُفتن أحد عن دينه ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه.

هنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة محمد ﷺ لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل. هنا يبدأ طور السياسي الذي أبدى محمد ﷺ فيه من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشاً ثم يطأطئ الرأس إجلالاً وإكباراً.

كان أكبر همه ﷺ أن يصل بيثرب ـ موطنه الجديد ـ إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز.

---

[1] سورة الحج ـ آية ٣٩
[2] سورة البقرة ـ آية ١٩٣

آخى الرسول القائد ﷺ بين المهاجرين والأنصار وعاهد اليهود واقرهم على دينهم وأموالهم بشروط وافقوا عليها للدفاع معه عن المدينة وهو ما يمكن أن نسميه تحقيق الوحدة الوطنية والمواطنة في المدينة وتقوية الجبهة الداخلية حتى إذا حدث عدوان على المسلمين بالمدينة لم يطعنه طاعن في الظهر كما حدث فيما بعد أثناء غزوة الخندق ونقض اليهود لعهودهم مع الرسول ﷺ حاكم المدينة.

وفى المدينة المنورة كما يحدث الآن يحاول خصوم المسلمين إثارة الفتنة بينهم لدواعي مذهبية أو قومية ولكن المصطفى ﷺ يقضي على الفتنة دائماً في مهدها محافظاً على وحدة المسلمين بل ووحدة مواطني المدينة.

ومع المحافظة على الوحدة والمواطنة الكاملة في المدينة والمساواة في الحقوق والواجبات وتحقيق حرية العقيدة كان الحوار دائراً بين الأديان الكتابية الثلاثة برعاية خاتم النبيين ﷺ سامعاً لهم راداً عليهم بوحي الله واجتهاداً منه لتوحيد العبادة لله وحده.

الـهِـجْـرَةُ

﴿ وإِذْ يمكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُوا ليثبتوكَ أو يقتلوكَ أو يُخْرِجُوكَ ويمكرونَ ويمكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خيرُ الماكرينَ ﴾

(الأنفال ٨/٣٠)

﴿ إلاَّ تنصروهُ فقد نصرَهُ اللَّهُ إذ أخرجَهُ الَّذين كفروا ثانيَ اثنينِ إذ هما في الغار إذ يقول لصَاحبِهِ لا تحْزَنْ إنَّ اللَّهَ معنا فأنزل اللَّهُ سكينَتَهُ عليه وأيَّدَهُ بجنودٍ لم تروها ﴾

(التوبة ٩/٤٠)

طريق الهجرة ←

طريق القوافل المطروقة ←

* وصل صلى اللّه عليه وسلّم إلى قُبَاء يوم الإثنين ١٢ ربيع أول.
٢٤ أيلول ٦٢٢ م.
وأول المحرّم سنة ١ هـ يقابل ١٦ تموز ٦٢٢ م، وهو بداية التاريخ الهجري

بدء بناء القوة العسكرية في المدينة

على يد محمد بن عبد الله ﷺ الرسول الخاتم وبفكره أصبحت الحرب في حق شريعة للإسلام لأول مرة في التاريخ بعد أن كانت الحرب للغزو والاستعمار والاستيلاء على الغنائم والأسرى وبعد أن كانت الحرب بين القبائل العربية تجرى على شكل كرّ وفرّ وخطف ونهب.

نظم الرسول القائد ﷺ جيشه ربما قبل الإذن بالقتال لأنه كان يتوقع ذلك الإذن من الله عز وجل ووضع له هدفاً هو تأمين حرية اختيار العقيدة والدعوة إلى التوحيد وألا يقاتل في سبيل ذلك إلا المسلم المؤمن القوي الإيمان الذي يستشهد في سبيل الله.

ربما كان للرسول ﷺ أركان حربه مع وزيريه أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب سواء ذكرت ذلك كتب السيرة باختصار أم لم تذكر.

فمن المتصور أنه عليه الصلاة والسلام كان يخصص رجالاً بعينهم يثق في إيمانهم وقوتهم للمبارزة مثل علي بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب وكان يخصص رجالاً بعينهم ليكونوا قادة لسراياه التي يرسلها في كل اتجاه كما كان يخصص رجالاً للدعوة يصلحون لها ولهم من القدرة على الإقناع الكثير.

وكان له أصحاب لتدبير مواد الإعاشة مع تحديد مصادرها المشروعة ووسائل نقل وتداول مياه الشرب وأصحاب لترتيب نقل المقاتلين ومساعدين لجمع المعلومات وعرضها عليه ﷺ لاتخاذ القرار أو الإجراء المناسب.

كان يتلقى ﷺ التقارير من أصحابه أفضل بكثير مما يتلقاه القادة الآن من مرءوسيهم لأنه تدرب وقاتل بنفسه ولأنه منصور من الله موفق في مهمة الدفاع عن خاتمة الشرائع.
كما كانت تأتيه المعلومات من العليم القدير الذي ليس كمثله أو مثل علمه شيء .

أول ميثاق مواطنة ومعايشة وسلام

كتب محمد ﷺ بين المهاجرين والأنصار كتاباً واعد فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم وهذا الكتاب هو:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس . المهاجرون من قريش على ربعتهم (أي على استقامتهم ، يريد على أمرهم الذي كانوا عليه) يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين – ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار : بني الحارث ، وبني ساعدة ، وبني جُشم ، وبني النجار ، وبني عمرو بن عوف وبني النبيت، إلى أن قال : وأن المؤمنين لا يتركون مُفرحاً (المثقل بالدين والعيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (طبيعته) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا يُنصر كافراً على مؤمن. وأن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم. وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة (أي المساواة في المعاملة) غير مظلومين ولا مُتناصرٍ عليهم وأن سَلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً. وأن المؤمنين يُبيء (يقال : أبأت فلاناً بفلان إذا قتلته به ، يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم) بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله. وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن وأنه مَن اعتبط (اعتبطه أي قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قَوَد به إلا أن يرضى ولى المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً (جانياً) ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يُوتغ (يهلك ويفسد) إلا نفسه وأهل بيته. وأن ليهود بني النجار ويهود بني

الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة ولجفنة ولبنى الشطيبة (في البداية والنهاية لابن كثير :"ولبنى الشطنة") مثل ما ليهود بني عوف. وأن موالي ثعلبة كأنفسهم. وأن بطانة يهود كأنفسهم .وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وأنه لا يتحجر (يريد: لا يلتئم جرح على ثار) على ثار جرحٌ. وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم. وأن الله على أبر هذا. وأنه على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه. وأن النصر للمظلوم. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وأن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم. وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره. وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها. وأن بينهم النصر على من دَهمَ يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم. وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه. وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وأن من خرج آمنٌ ومن قعد آمنٌ بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جارٌ لمن بر واتقى.[1]

هذه هي الوثيقة السياسية التي وضعها محمد ﷺ منذ ألف وأربعمائة وثمانية وعشرين عاماً والتي تقرر حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة.

[1] محمد حسين هيكل - حياة محمد

متى عرف الرسول القائد ﷺ الحرب

إذا كان مولد المصطفى ﷺ على أرجح الأقوال في أغسطس عام ٥٧٠ م وهو أيضاً على أرجح الأقوال عام الفيل عندما وصل أبرهة الحبشي بجيش ضخم على أبواب مكة الجنوبية قادماً من اليمن التي كانت تحكمها الحبشة المسيحية.

عندما شب الطفل محمد ﷺ وأخذ يدرك الأمور من حوله ويسمع من أهله وأقرانه قصة أبرهة الحبشي مع جده عبد المطلب وكيف أن جده أسترد إبله ونصح أهل مكة أن يتركوا مكة قبل أن يهاجمها أبرهة ليهدم البيت العتيق.

ومن المحتمل كذلك أن يكون عبد المطلب ـ شيبة بن هاشم ـ قد حكى لجفيده العظيم القصة كاملة قبل وفاته ومحمد ﷺ في الثامنة من عمره يستطيع أن يدرك جيداً ما يحكيه جده.

ربما قال له جده أن أبرهة وضع فيلاً في المقدمة حيث رآه المكيون لأول مرة وليس لهم قبل به ورأوا جيشاً ضخماً مزوداً بالفرسان والدروع والسيوف ما لن يستطيعوا أن يحشدوا مثله.

ربما أدرك الغلام العظيم ﷺ أن قومه ضعفاء ليس لديهم ما يستطيعون به حماية بيت الله إلا الله صاحب البيت وأدرك أن القتال بين القبائل العربية ما هو إلا نوع من المشاجرات الكبيرة التي لا تستطيع أن تصمد للجيوش الكبيرة النظامية.

لم يفكر المكيون في حفر خندق في مدخل مكة اليمني لإيقاف جيش أبرهة لأنهم لم يكونوا يعرفون فكرة الخندق كمانع يوقف تقدم المهاجم.

ربما كان في ذهن المصطفى ﷺ وفكره عندما فتح مكة عام ٨ هـ أن يحاصر مكة من جميع الجهات ليمنع عنها المدد من القبائل المجاورة ويمنع هرب أهلها خوفاً من المسلمين كما كان في فكره ﷺ ألا يقتحم المدينة المقدسة التي يتوسطها البيت العتيق.

وعندما بركت ناقته القصواء عند مدخل مكة الشمالي قال ما معناه لقد حبسها حابس الفيل كما حكى له جده عبد المطلب ما حدث بالضبط.

وضع الرسول القائد ﷺ في ذهنه منذ أدرك أنه يتمنى لقومه ولأهل مكة من القوة ما يدفع عنها الأعداء خارج مكة خاصة من الأحباش والفرس والروم أما البيت العتيق فله ربّ يحميه.
تدرب الرسول القائد ﷺ على الحرب والقتال في حرب الفجار التي نشبت بين قريش وخصومها وكان عمره الشريف ﷺ حوالي ١٥ عاماً .. كان يجمع السهام التي تسقط ويعطيها للرماة وفى آخر عام من الأربعة أعوام للقتال في حرب الفجار كان يرمي بنفسه.

استغرقت حرب الفجار أربعة أيام يوم في كل عام .. كان القتال حينئذ مثل المبارزة ليوم واحد ينتهي بالتواعد للقاء في العام التالي وانتهت هذه الحرب بالصلح بدفع قريش دية القتلى الزيادة في جانب خصومها.

تدرب الرسول القائد ﷺ على القتال وشاهد وتأمل ولم يمارس القيادة في الحرب بعد ذلك إلا في غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وعندها كان ﷺ خبيراً وعالماً بكل فنون القتال التي كانت متاحة في الجزيرة العربية.

هجرة الرسول ﷺ .. تفجير الطاقات

عندما وصلت الأمور بين دعوة خاتم النبيين ﷺ للتوحيد وبين مشركي مكة إلى طريق مسدود هاجر المصطفى ﷺ للمدينة المنورة ليجد فيها مخرجاً مما كان فيه من الضيق والتضييق عليه وعلى مئات المسلمين الذين أتبعوه في مكة ولم يهاجر إلا بعد أن تأكد من تأييد الأوس والخزرج ونصرتهم له.

وحرصاً على المسلمين الأوائل فقد هاجروا فرادى وحدهم قبله وكان هو آخر المهاجرين إلى المدينة ليصحبه صديقه سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وبعده علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وقصة الهجرة معروفة جيداً لمعظم المسلمين ومسارها معروف حيث اتجه ﷺ جنوباً للتمويه على المشركين ثم اتجه شمالاً إلى المدينة في طريق غير معروف فراراً بالدعوة من جهل الكفار وعنادهم ومطاردتهم له.

بعد ثلاثة عشر عاماً قضاها الرسول الأمين ﷺ في مكة متحملاً الأذى هو وأصحابه وأهله: زوجته وبناته كان على الرسول ﷺ أن يهاجر من مكة إلى أي مكان يضمن فيه استمرار الدعوة وازدهارها بإذن الله.

كانت أمامه ﷺ الحبشة التي هاجر إليها أصحابه من قبل ووجدوا العدل والحماية في كنف النجاشي ملك الحبشة ولكن المصطفى ﷺ قد أرسل للعرب خاصة بالقرآن العربي وللناس كافة ولو قضى بقية حياته في الحبشة في قوم يختلفون عن بيئته لغة وعادات وتقاليد ومناخ وتضاريس لأختلف الأمر ولأخذت الدعوة منحنى آخر غير الذي خططت لأجله وغير الذي أراده الله وهذا لا يجوز ولطال السفر براً وبحراً بين الحبشة وقاعدة الإسلام في مكة مقر البيت العتيق.

كانت أمامه ﷺ اليمن العربية ولكن اليمن هناك في آخر الجزيرة العربية ليس بعدها جنوباً إلا البحر والمحيط الهندي واليمن كانت ومازالت إلى حد ما مسرحاً للصراع بين الحبشة والمسيحية من جهة والفرس من جهة أخرى في ذلك الوقت.

لم تكن أمامه ﷺ إلا المدينة المنورة شمال مكة أرادها الله له مستقراً أو مثوى لقبره الشريف بعد ذلك ومزاراً إلى يوم الدين والمدينة المنورة هي توأم مكة المكرمة أو هي بعد مكة مباشرة منزلة عند العرب بفضل الإسلام وعاصمة الدولة الإسلامية الأولى.

عندما انتقل المصطفى ﷺ وصحبه من المهاجرين للمدينة وليس معهم شيء من أموالهم ومتاعهم التي تركوها في مكة بدأوا جميعاً في البحث الحلال عن الرزق وكانت الزراعة والرعي هما عماد الرزق في المدينة بخلاف مكة التي كانت تعتمد على التجارة والرعي وعلى مواسم الحجيج والأسواق الشهيرة في الجزيرة العربية.

كلف المصطفى ﷺ أحد الصحابة وهو سيدنا طلحة بن عبيد بحفر عدد كبير من الآبار وتوصيلها بقنوات الري وأصبحت زراعات المدينة تروى سطحياً بالقنوات وليس بالجرادل كما كان من قبل واتسعت الزراعة شيئاً فشيئاً بالاستيلاء على أراضي وبيوت بني قريظة وبني النضير وخيبر وأصبحت المدينة بعد عشر سنوات قضاها فيها الرسول ﷺ حياً مدينة أخرى مزدهرة يملؤها الرزق الوفير.

كانت الهجرة انتصارا للعقيدة وكانت تعميراً للمدينة المنورة وتطويرها والنهوض بالاقتصاد بها قاعدة صلبة لدولة إسلامية فتية بدأ بناءها المصطفى ﷺ وأكمله خلفاؤه الراشدون من بعده.

ومن أول يوم تأكد المسلمون أن المصطفى ﷺ جاء ليبقى كما أمره الله فقاموا بالسعي على الرزق بزراعة الأرض وبناء البيوت والتجارة التي بدأت تزداد مع تزايد أعداد وفود المسلمين للمدينة المنورة ومع تزايد سكانها والمقيمين فيها.

كان اختيار الرسول ﷺ للمدينة مقصداً للهجرة ومقراً ومقاماً اختياراً موفقاً حيث كانت المدينة ولازالت في الركن الشمالي الغربي من الجزيرة العربية وأقرب المدن لكل الجزيرة وللفرس والعراق والشام ومصر ومنها إنطلقت الفتوحات براً إلى النصف الشمالي من الكرة الأرضية ثم توالت الفتوح بعد ذلك من دمشق وبغداد.

أخلاقيات الحرب في الهجرة النبوية

من أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية وفى سلوك المصطفى ﷺ أنه فتح يثرب بالحب والإعزاز والتقدير. لقد فتح ﷺ المدينة المنورة وجعلها مقراً للدعوة الإسلامية وعاصمة لهذه الأمة عندما عقد ﷺ مع أهل المدينة بيعة العقبة الأولى ثم بيعة العقبة الثانية.

وأستطاع الرسول القائد ﷺ بهاتين البيعتين فتح الطريق إلى الهجرة ثم الإقامة في المدينة وفى بيعة العقبة الكبرى تعاهدوا معه على حرب الأبيض والأسود وأن يكونوا يداً واحدة معه ﷺ دفاعاً عن حرية الدعوة للتوحيد.

لو لم تكن دعوة المصطفى ﷺ عزيزة ومطلوبة ومقنعة لما عاهدوه على الدفاع عنه وحمايته وحماية المسلمين ببيعة العقبة الكبرى الدفاعية.

إن المصطفى ﷺ الذي عاش ٤٠ عاماً قبل البعثة و١٣ عاماً في مكة يدعو إلى الإسلام والتوحيد خبر العرب وحفظ طباعهم وأخلاقهم وعرف حروبهم .. أسبابها ونتائجها بل وحضر حرب الفجار بين مكة وخصومها عندما كان شاباً.

كانت فكرة الحرب لدى المصطفى ﷺ فكرة حضارية تهدف إلى بناء دولة ولن تبن الدولة إلا على العدل ولن تحارب دولة الإسلام إلا دفاعاً عن عقيدتها وحرية الدعوة لها ولتكون الحرب في ظل قيم إنسانية سامية يدعو إليها الإسلام ويتبناها.

دخل المصطفى ﷺ فاتحاً للمدينة متواضعاً تاركاً الخطام لبغلته لتبرك حيث أراد لها الله وأستقبله المسلمون والمشركون واليهود جميعاً بالترحاب كل يتمنى أن ينال من المصطفى ﷺ ما يريد.

يمكننا القول أن المصطفى ﷺ فتح يثرب بقوة العقيدة والمودة والرحمة وليس بالسيف الذي لم يرفع عند دخولها ولم ترق نقطة دم واحدة ، وقد أرسى المصطفى مبدأ أخلاقياً في الفتوح والحروب .. أنه إذا استطعت أن تكسب الناس والمدن بالمودة والإقناع خير من أن تقنعهم بقوة السيف.

منابع العسكرية العربية الإسلامية

إذا أردنا أن نقيس كم المبادئ العسكرية الإسلامية في العسكرية العربية لوجدنا الكثير والكثير الذي يجلوه الزمن ويزيده تألقاً وازدهاراً.

إن الأسلحة الحديثة قد تغير التكتيك والاستخدام وخطط العمليات ولكن ملامح العسكرية تظل في مجموعها مرتبطة بتقاليد الشعب العربي الإسلامي وقيمه وعقيدته السمحة التي لا تطلب الحرب للحرب أو التوسع وإنما للدفاع عن النفس والوطن والحق وقد صدق شاعرنا العظيم شوقي عندما قال عن الرسول القائد ﷺ "والحرب في حق لديك شريعة"

إذا كانت الشريعة الإسلامية في الدستور هي المصدر الرئيسي للتشريع في مصر فهي كذلك المنبع الصافي والبارز لتشكيل ملامح العسكرية العربية الإسلامية تلك الملامح التي وإن لم تكن مسجلة بالكلمات فهي منقوشة في ضمير كل منا ووجدانه.

فالإسلام يقرر أن لا عدوان ولا قتل شيوخ أو نساء أو أطفال ولا تخريب ولا قطع أشجار والحرب لا تنشب إلا دفاعاً عن العقيدة وحريتها وكذلك تقرر العسكرية الإسلامية في صفحتها البيضاء الخالدة.

وإذا اقتربنا من الرسول الخاتم محمد ﷺ الذي أعده الله ليحمل الرسالة للعالم أجمعه أحمره وأسوده وأنسه وجنه وأعده لأن يحمل رسالة أكمل دين ولأن يختم به إخوته من الأنبياء والرسل وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماوات وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

وعصمة الأنبياء في التبليغ وأداء أمانة الوحي قضية فرغ علماء الدين منها.

فليس للأنبياء فضل الاختيار في التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوة واختيارهم لها. وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوة ولا مرد لها غير أن الوحي لا يلازم الأنبياء في كل عمل يصدر عنهم وفى كل قول يبدر منهم فهم عرضة للخطأ يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرهم على الخطأ بعد صدوره ويعاتبهم عليه أحياناً ويعصمهم كما عصم رسولنا العظيم ﷺ.

أمر الله محمداً ﷺ بأن يبلغ عنه ولم يبين له الطرق التي يتبعها في التبليغ وفى حماية الدعوة وترك له أن يتصرف بعقله وعلمه وفطنته كما يتصرف غيره من العلماء

والعقلاء. وجاء الوحي مفصلاً قاطعاً في كل ما يخص ذات الإله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ولم يكن الوحي كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والمجتمع والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول والمجال واسع للبحث عن عظمة الرسول ﷺ قبل الوحي وبعد الوحي حيث صار مبلغاً عن ربه داعياً إليه حامياً لتلك الدعوة ولحرية الداعين مدافعاً عنهم وأصبح حاكم الأمة الإسلامية الأول وقائدها الأعلى ومفتيها وقاضيها ومنظم كل شيء فيها.

والرسول القائد ﷺ حارب أعداء الإسلام دفاعاً عن الإسلام لا ليفرض عليهم الإسلام وانتصر في غزواته حينما أستجمع عوامل النصر وانهزمت قوات المسلمين أحياناً حينما ضيعت عوامل النصر.

وغزوات الرسول القائد ﷺ كلما أمعن فيها المفكرون العسكريون وجدوا فيها فيضاً من المبادئ والقيم والدروس المستفادة ليس للمسلمين فقط بل لكل دول العالم وشعوبه تريهم كيف تكون الحرب كالجراحة التي لابد منها لشفاء جسد الإنسانية وإحقاق الحق الذي يريده الله سبحانه وتعالى وليس للاستيلاء على الأرض ومصادر الثروة.

والرسول ﷺ لم يبدأ في قتال الكفار إلا بعد أن صدر له الأمر الإلهي (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [1] ولم يصدر له ﷺ الأمر بالقتال إلا بعد أن صبر على الأذى وصابر وهاجر من موطنه ثم هيأ الله له أسباب القوة التي تمكنه من الدفاع عن العقيدة ضد قوى البغي.

إذا تكلمنا عن بلاد العرب قبل الإسلام فإننا لن نحمل الأمور أكثر مما تحتمل. ولن نتحدث عن النظام العالمي أو الدولي في ذلك الوقت أو عن مسرح الحرب للجزيرة العربية أو اتجاهاتها الإستراتيجية.

وإنما الذي يعنينا أن نقوله أن الجزيرة العربية كانت بموقعها الجغرافي مركز العالم وملتقى طرقه وتجارته وان لم تكن مركز السيطرة فيه أو القيادة له فشرقها بلاد فارس بقوتها وديانتها المجوسية وغربها بحر الروم (البحر المتوسط) والقلزم (البحر الأحمر) والحضارات التي تطل عليه بديانتها المسيحية المنقسمة على نفسها.

---

[1] سورة الحج - الآية ٣٩

هاتان القوتان المتقابلتان : قوة المسيحية وقوة المجوسية قوة الغرب وقوة الشرق ومعهما الدويلات المتصلة بهما والخاضعة لنفوذهما كانتا في ذلك الوقت في أوائل القرن السادس الميلادي القرن الذي ولد فيه الرسول القائد ﷺ (عام ٥٧٠) تحيطان بشبه الجزيرة العربية معقل الوثنية في العالم المعروف حينئذ.

لقد كان لكل قوة منهما مطامع في التوسع وكان رجال الدين في كلتيهما يتحمسون لديانتهم ويبذلون الجهد لنشر العقيدة التي يؤمنون بها ومع ذلك ظلت شبه الجزيرة العربية وكأنها واحة حصينة آمنة من الغزو – ربما لقلة شأنها – إلا في بعض أطرافها التي كانت عرضة لعدوان القوى المجاورة ونفوذها.
وكانت الجزيرة العربية أيضاً آمنة من انتشار الدعوتين الدينيتين المسيحية والمجوسية إلا في قليل من قبائلها بسبب موقعها المتوسط والمعزول بالبحار والصحراء في آن واحد وما تركه ذلك الموقع من أثر في حياة أهلها وأخلاقهم وميولهم ونزعاتهم واعتزازهم باستقلالهم وحريتهم وتمسكهم بالبيت المقدس في مكة وما وضعوه فيه من أوثان وأصنام.

من هذه المقدمة للحديث عن مسرح أولى المعارك الإسلامية نجد أن القوى المحيطة بالجزيرة لم يكن يعنيها ما يدور في هذه الجزيرة إلا ما يشكل تهديداً مباشراً لهيبتها أو عدواناً على أرضها ولقد ساعد على اتخاذ هذا الموقف أن القبائل العربية كثيراً ما كانت تتقاتل فيما بينها ثم يتوقف القتال ثم يبدأ من جديد دون أن تبرز على السطح قيادة أو زعامة توحد هذه القبائل أو تقيم دولة أو مملكة يخشى خطرها والقوى المحيطة مطمئنة إلى استنزاف القبائل العربية لبعضها البعض كما يحدث الآن في العالمين العربي والإسلامي.

وشبه الجزيرة العربية كمسرح لمعارك صدر الإسلام مستطيل غير متوازي الأضلاع أو شبه منحرف شماله فلسطين والشام وشرقه الحيرة ودجلة والفرات والخليج العربي وجنوبه المحيط الهندي وخليج عدن وغربه البحر الأحمر . فهي إذن حصينة بالبحر من غربها وجنوبها وبالصحراء والخليج من شمالها وشرقها وهي حصينة بصحرائها الواسعة القاحلة التي يندر فيها الماء إلا في اليمن . وتتناثر الجبال والتلال في أرجائها وتخترقها طرق القوافل المعروفة وأهمها طريقا الشرق والغرب.

في هذا المسرح الفقير لكي نتصوره جيداً نقول أنه بلا أسفلت وبلا أعمدة تليفونات أو تليفونات وبلا كهرباء وبلا خطوط مياه وبلا سيارات أو معدات إنه مسرح تمر عليه مئات السنين ولا أثر لتطور أو تقدم فيه.

الجمل وسيلة النقل والانتقال فيه فهو القطار والسيارة والشاحنة وهو خزان المياه ـ كما فعل خالد بن الوليد عندما تحرك من العراق إلى الشام – وهو مخزن الطعام الأخير عندما تنفذ كل المخازن يقول الحق سبحانه وتعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۞ [١]

والحصان في هذا المسرح دبابة الحرب والاحتياطي خفيف الحركة ودليل الثروة والجاه والفروسية والزينة كما يقول الحق سبحانه وتعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) [٢]

والمعلومات تنتقل من فم إلى أذن أو آذان أو من فم آخر إلى آذان أخرى وتحفظ في الذاكرة وينفض عنها الغبار بإذاعتها من جديد وحفظها من جديد.

وملابس الرجال والنساء تكاد تكون متشابهة فلا فرق بين لباس رجال قبيلة في يثرب ورجال قبيلة في مكة إلا ما قد يضعه اليهود على رؤوسهم أو يتميزون به.

والسيوف والرماح والنبال والدروع هي أدوات الحرب لها صناعها المتخصصون، والجبال والوديان هي الهيئات الطبيعية المشهورة تقوم كعلامات لطرق القوافل، وآبار المياه المعدودة وما حولها محطات للراحة وهدف من أهداف الاقتتال.

وعن أساليب القتال وأدواته المستخدمة قبل الإسلام مباشرة في غزوات الرسول القائد ﷺ نقول : كان دخول الفيل إلى مكة على رأس جيش أبرهة مفاجأة "إستراتيجية" أذهلت أهل مكة حينئذ حتى أنهم تركوا مكة لأبرهة وجيشه وخرجوا إلى الجبال المحيطة ينظرون كيف سيحمي رب الكعبة بيته من القنبلة الذرية

---

[١] سورة يس ـ الآيات ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣
[٢] سورة النحل ـ الآية ٨

الوشيكة الانفجار والتي أفرغتها قنبلة بكتيرية من عند رب السماء ألقتها الطير الأبابيل بحجارة من سجيل أو أشياء لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

كان حفر الخندق حول المدينة فكراً جديداً أدخله سلمان الفارسي القادم من فارس حيث الأنهار والأمطار والسهول التي علمت أهلها كثيراً من فنون الحرب الأكثر تطوراً عما يجري في صحراء الجزيرة العربية كما علمت طبيعة مسرح وادي النيل استخدام ما لم يستخدمه عرب الجزيرة العربية مثل العجلات الحربية.

لم تكن المفاجأة مبدأ ثابتا من مبادئ الحرب عندئذ وإنما كانت نوعاً من العدوان والغدر الذي يأباه العربي لأنه لا يليق بقواعد الكرامة والمروؤة والشرف التي اتفق عليها أبناء البادية وصارت لهم دستوراً غير مكتوب.
لقد نشبت الحرب بين هوازن وقريش قبل الإسلام وتراجعت قريش حتى لاذت من المنتصرين بالحرم. فأنذرتهم هوازن الحرب بعكاظ العام التالي وقد ظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين أربع سنوات متتالية – كأنها دوري لكرة القدم أو مباراة رياضية تقام سنوياً بين فريقين - انتهت بعدها إلى صلح من نوع صلح البادية ذلك بأن يدفع من كانوا أقل قتلى دية العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر.

لم يكن القتال على مسرح الجزيرة العربية يدور من أجل الاستيلاء على أرض أو التمسك بالتراب الوطني للقبيلة فالأرض واسعة تسع الجميع وإنما كان القتال ينشب طلباً لشرف أهين أو كرامة أنتقصت أو كان القتال إضافة لسجل فخار القبيلة وتاريخها ولم يكن للقتال كذلك قواعد يلتزم بها المتقاتلون وإنما القتال ما يتعلمه الفرد بنفسه ولنفسه مادام قادراً على القتال.

الفصل الثاني

من السيرة النبوية

غزوات وسرايا الرسول القائد ﷺ

الأمر بالقتال .. لا يعنى الإجبار على اعتناق الدين

ترى بعض الجماعات الدينية المتطرفة وجوب قتال غير المسلمين حتى يؤمنوا ويعلنوا إسلامهم !! واستخدمت هذه الجماعات التفسير اللفظي الخاطئ لقول الرسول ﷺ : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحق الإسلام" .. وفى السطور القليلة المقبلة نفند هذه الشبهة ونوضح معنى الحديث الشريف ، وهل هو من الأحاديث الصحيحة أم لا.

وبسؤال الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس اللجنة الدينية بمجلس الشعب وأستاذ الحديث بكلية أصول الدين يقول: إن هذا الحديث صحيح ، رواه الإمامان البخاري ومسلم في الصحيحين ، كما رواه أصحاب السنن الأربعة والإمام أحمد وغيرهم ..

والمعنى ليس – كما يوحي ظاهر الحديث ويتخذه المتطرفون سنداً لقتل غير المسلمين – قتال الناس بشكل عام حتى يعتنقوا الإسلام ، بل إن له مناسبة ورود.

فقد ذكر العلماء أن فئة من الناس – ولم يحددوا من هم وإلى أي قبيلة ينتمون – تربصوا بالرسول ﷺ وبالمسلمين وحاربوهم وأشعلوا الفتن وعاثوا في الأرض فساداً فكان الوحي للرسول ﷺ بقتال هؤلاء الذين بغوا وأفسدوا فإن أعلنوا إيمانهم حُرمت دماؤهم وأموالهم ولا يجوز قتالهم.

ويشير إلى أن لفظ "الناس" في قوله ﷺ "أمرت أن أقاتل الناس ..." مقصود بها هذه الفئة الطاغية فقط لأن الألف واللام في هذه الكلمة يطلق عليها (ال) العهدية.. أي جماعة معينة مقصودة بالكلام والقاعدة تقول : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وإذا فسرنا هذا الحديث مع غيره من الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية نجدها تتسق مع مبدأ الإسلام في عدم الإكراه على الدين وبدء القتال بسببه.

وينبه الدكتور رضا عبد الواجد أمين مدرس الصحافة والإعلام بجامعة الأزهر إلى الفرق بين لفظ "أقاتل" و "أقتل" في الحديث الشريف فالأول الوارد بالحديث يدل علي "المفاعلة" التي تستلزم وقوع القتال بين الجانبين فأورد ابن حجر العسقلاني نقلاً عن ابن دقيق العيد في شرح العمدة قوله: لا يلزم من إباحة المقاتلة إباحة القتل لأن المقاتلة مفاعلة تستلزم وقوع القتال من الجانبين ولا كذلك القتل وقال الشافعي إنه قد يحل قتال الرجل ولا يحل قتله.

ويضيف إنه ليس في الحديث أية إشارة إلى إجبار غير المسلمين على اعتناق الإسلام بل فيه أنه لا يجوز مقاتلة من شهد بالله تعالى وآمن برسوله ﷺ وأدى شرائع الإسلام.

السرايا الأولية

كانت أول سرية بعثها الرسول القائد ﷺ بقيادة عمه حمزة بن عبد المطلب أقرب الناس إليه ونظيره في العمر بعثه في ثلاثين راكباً من المهاجرين إلى العيص قرب شاطئ البحر الأحمر.. ولم يضن الرسول القائد ﷺ بعمه ولا بالمهاجرين الذين تحملوا الكثير في مكة معه وتحملوا الكثير من شظف العيش بالمدينة المنورة.

كانت قافلة قريش بقيادة أبي جهل في ٣٠٠ راكب أي بنسبة ١ : ١٠ ولكن الرسول ﷺ أراد بهذه القوة الصغيرة إظهار قوة المسلمين بالمدينة لأهل مكة وليهود المدينة وإظهار أن المهاجرين لم ولن ينسوا ما تركوا في مكة من بيوت وأموال ودواب.

وتلت سرية حمزة سرية عبيدة بن الحارث في ٦٠ راكباً لقوا ٢٠٠ راكب من قريش ولم يحدث قتال بينهم.

كانت هذه السرايا كما نسميها الآن عناصر استطلاع بقوة تبحث عن المعلومات الإضافية زيادة على ما ورد للرسول القائد ﷺ من عيونه التي تأتيه بالأخبار من كل أنحاء الجزيرة ومن خارجها.

خرج المصطفى ﷺ بنفسه بعد عام كامل من هجرته للمدينة أي في بدايات الصيف واستغرق الصيف كله في تحركات إلى الأبواء وودان وبواط حتى وصل للعشيرة في أكتوبر ٦٢٣م نهاية صيف ذلك العام.

كان الهدف من السرايا ومن خروج الرسول القائد ﷺ بنفسه واضحاً وهو ردع قريش واليهود بالمدينة وإظهار قوة المسلمين ولم يكن الغرض الحصول على غنائم بأي ثمن وإلا لاستولى المسلمون على مغانم من القبائل التي حالفها الرسول ﷺ غرب المدينة مثل بني مدلج وحلفائهم من بني حمزة.

إن الرسول القائد ﷺ لم يستمر على عادات العرب في الخطف والنهب وإنما نظم السرايا والدوريات لتهديد قريش وردعها وليس لنهبها أو الخطف من القافلة .. أي أنه عليه السلام كان ينظم لحرب عادلة نظامية طويلة الأمد منتظراً الأمر من الله بالقتال.

لم يكن خروج الرسول ﷺ إلى الأبواء وبواط والعشيرة غزواً لأن الأنصار قد خرجوا معه وعهدهم معه عهد الدفاع عنه وحماية العقيدة لا تهديد القوافل ولم

يخرج الرسول القائد ﷺ لغزوة بدر الكبرى إلا بعد أن وافق الأنصار على الخروج معه واستعدادهم للقتال ولم يقاتل إلا بعد أن أمره الله بالقتال .

سرية عبد الله بن جحش ورفضه القتال في الأشهر الحرم

في تلك السرية تجلت الأخلاق العظيمة للرسول القائد ﷺ وأعطى فيها دروساً كثيرة للمسلمين ولغير المسلمين عن فكرة الحرب أي حرب والهدف منها.

فالمشركون من أهل مكة كما نعرف هم أولئك الذين اتبع أجدادهم ملة إبراهيم حنيفاً بتوحيد الله ولكن مع الزمن وتطور العقول وانحرافها اتخذ العرب في مكة وفى الجزيرة أصناماً كواسطة بينهم وبين الله الذين يعرفون جيداً ويعترفون بوجوده وبأنه خالق السموات والأرض.

ثم تطور وضع الأصنام في نظرهم من واسطة لله إلى شركاء لله سبحانه وتعالى وبقى في الجزيرة العربية من ملة إبراهيم الطواف حول الكعبة وتقديسها واحترام الأشهر الحرم رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم.

ألتزم الرسول العظيم ﷺ بتقاليد قومه الرفيعة مثل الطواف حول الكعبة إلا أنه لم يعترف بالأصنام ولم يسجد لها وبعد البعثة أقرهم على احترام الأشهر الحرم بل وأشاد بحلف الفضول الذي اتفقت فيه بعض القبائل على مبادئ إنسانية رفيعة.

وفى سرية عبد الله بن جحش بعثه الرسول القائد ﷺ في رجب سنة ٢ هـ وأعطاه كتاباً أمره ألا يفتحه إلا بعد يومين من مسيره وينفذ ما فيه دون أن يكره أحداً من أصحابه على شيء.

وفتح عبد الله بن جحش الكتاب كما أمره الرسول ﷺ فوجد فيه "إذا نظرت في كتابي هذا فأمض حتى تنزل نخلة (بين مكة والطائف) جنوب مكة فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم" أي أجمع ما يمكن جمعه من معلومات عن قريش أحوالهم ونواياهم ضد المسلمين فمضوا معه جميعاً إلا سعد بن أبى وقاص الزهري وعتبة بن غزوان اللذين ضلا الطريق فأسرتهما قريش.
ربما أثار أسر قريش للمسلمين ثائرة عبد الله بن جحش ومن معه فعقدوا العزم على قتل من صادفهم من قريش وأخذ ما معهم ثم كان أن قتل أحد المسلمين قائد قافلة قريش وهو عمرو بن الحضرمي وأخذوا أسيرين من المشركين.

علم الرسول ﷺ أن اصطدام سرية المسلمين بالمشركين ربما كان في المتمم لشهر رجب هو أحد الأشهر الحرم التي أقرها الحق سبحانه وتعالى والأشهر الحرم أيضاً من الأمور المتفق عليها والمتعارف بها في الجزيرة العربية.

احترم المصطفى ﷺ القواسم المشتركة بين المسلمين ومواطنيهم من المشركين كما ألتزم أوامر الله باحترام الأشهر الحرم.

وانتظر الرسول القائد ﷺ أمر ربه ونزل قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [1]

وفرح المسلمون جميعاً من المدينة ومن مكة والذين قاموا بالسرية بهذه الآية لأن الله قلل من أهمية نقض الشهر الحرام ما داموا يدافعون عن العقيدة التي اختارها الله لهم وأستلم النبي ﷺ نصيبه من الغنائم وبدل الأسيرين المشركين بأسيري المسلمين سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان.

وهكذا ما دامت الحرب في فطرة الناس والمسلمون مقبلون على حرب طويلة مع الشرك واليهود ستدفع فيها السرايا ويقود النبي ﷺ فيها الغزوات ويتحمل المصطفى ﷺ والمسلمون من المشقة الكثير جهاداً في سبيل الله فإن النبي ﷺ قد أحاط كل حروبه بسياج قوى من الأخلاق والالتزام بأوامر الله وما أتفق عليه العرب بما لا يخالف شرع الله.

الحرب إذن عند الرسول ﷺ للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأي حتى لو وقعت في الأشهر الحرم كما نبههم الحق لذلك لأن الصد عن عقيدة التوحيد أكبر وأقسى من خرق الأشهر الحرم.

لقد شعر الرسول القائد ﷺ بالحرج من احتمال خرق حرمة الأشهر الحرم ولكن الله رفع عنه الحرج بالآية الكريمة وأمره أن يستمر في الدعوة إلى التوحيد وهكذا فإن الرسول القائد ﷺ أطاع ويطيع أمر الله سبحانه وتعالى قائده الأعلى ولله المثل الأعلى.

---

[1] سورة البقرة - الآية ٢١٧

مقدمات غزوة بدر الكبرى

كانت غزوة بدر الكبرى أول معركة يخوضها المسلمون بقيادة الرسول القائد ﷺ ضد مشركي قريش الذي تجلت فيها عبقريته العسكرية والسياسية والأخلاقية كما تجلت من قبل في شخصه أعظم الصفات وأخلاق النبوة الخاتمة.

في هذه الغزوة حرص الرسول القائد ﷺ على استمرار جمع المعلومات عن خصومه فبعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الحوراء حيث كَمِنا وأقاما ما يمكن أن نسميه نقطة مراقبة مستترة أو صامتة وعندما مرت بهما قافلة أبى سفيان عائدة من الشام سارعا إلى المصطفى ﷺ لإخباره بما رأياه.

بدأ الرسول ﷺ في إرساء أعظم أخلاقيات الحرب في هذه الغزوة عندما رفض خروج غير المسلمين معه إلى هذه المعركة طمعاً في الغنيمة إذ لم يكن الغرض هو أعمال قطع طريق وإنما استرداد أموال المهاجرين من مكة وإظهار القوة لقريش لحماية مقر الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة وما حولها ولحماية المسلمين في كل مكان بالجزيرة العربية وإشعارهم أن للمسلمين قوة تتنامى بقيادة خاتم الأنبياء.

وعندما بدأ التحرك من المدينة بنهاية ٨ رمضان ٢هـ كانت الإبل لا تكفي وهى سبعون بعيراً والقوة ٣٠٥ من المسلمين أي بمعدل ٢ : ٥ من المسلمين يتبادلون ركوب البعير الواحد.

كان الرسول القائد ﷺ يتحمل من المشاق ما يتحمله كل واحد من المسلمين إذ كان نصيبه تبادل بعير مع علي بن أبى طالب ومرثد بن مرثد الغنوي ورفض الرسول ﷺ أن يستأثر وحده بالبعير قائلا ما معناه : لستما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما.

الرسول القائد ﷺ قدوة لرجاله حتى لا يمتاز مسلم على مسلم لأي سبب إلا بالتقوى والمثال الآخر الذي اقتدى بالرسول ﷺ هو تبادل أبى بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ركوب بعير واحد.

وعندما اقترب الرسول القائد ﷺ ورجاله من موقع الغزوة تردد المكيون في قتال المسلمين لأن القافلة قد مرّت وفكر الرسول ﷺ كثيراً إذا عاد دون قتال فلها تفسيرات كثيرة منها أنهم كانوا يبغون القافلة فقط وهو مخالف لحساباته ومنها أنهم

إن عادوا دون قتال فسّر اليهود ذلك بخوف المسلمين أو عدم جديتهم في الدفاع عن دينهم.
وتجلى موقف القائد العظيم في استشارة رجاله في استكمال المهمة وقتال قريش إن اضطروا لذلك فأيده أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو ومن الأنصار سعد بن معاذ صاحب راية الأنصار في هذه الغزوة وبعد أن أطمأن ﷺ إلى اقتناع المسلمين واستعدادهم أمرهم باستكمال السير وبشرهم بالنصر.

ومن أخلاق القيادة لدى الرسول القائد ﷺ أن القائد يجب أن يكون ملماً بكل ما يتصل بأمور المعركة سواء من قريب أو بعيد فهو عليه السلام قد عرف من غلامين أحضرتهم دورية استطلاع فيها علي بن أبى طالب أن المشركين يذبحون يومياً ما بين تسعة وعشرة من الإبل أي أن قوة المشركين ما بين التسعمائة والألف .. ولأن باب الرسول القائد ﷺ مفتوح دائماً لتلقى المعلومات فقد أتاه رجلان بما سمعاه من جاريتين عند بدر تتوقعان وصول المشركين غداً أو بعد غد ومن الدروس الطريفة في الاستطلاع في هذه الغزوة أن الرجلين الذين سمعا الجاريتين وعرفا منهما أن العير ستصل غداً أو بعد غد تركا روث بعيريهما ولو فطنا أو كانت لديهم خبرة سابقة لأخذا ذلك الروث أو أخفياه لأن أبو سفيان وصل لنفس المكان بعد أن غادرا وعرف من الروث أن فيه علف أو تمر المدينة فأسرع مبتعداً عن منطقة بدر مقترباً من ساحل البحر متجهاً جنوباً لمكة وفى كثير من الغزوات سنجد أن أبا سفيان دائماً ما يفحص روث إبل المسلمين ويعرف أخبارهم خاصة أن نوى تمر المدينة مختلف عن باقي المناطق في الجزيرة العربية.

إن هذه الطريفة لا تعني أن الرسول ﷺ يفوته ما لآثار الإبل من أهمية الروث والأثر في الأرض ولكن الرسول ﷺ يعرف أن الله يريد لهذه المعركة أن تتم وقد تكون الرسالة لأبى سفيان من المسلمين نحن هنا أو نحن وراءك.

تردد المسلمون في الدخول للمعركة لأن القافلة فاتتهم ولأن المشركين اعدوا قوة تمثل ثلاثة أضعاف المسلمين ولكنهم كرهوا أن يعودوا للمدينة دون قتال كأنهم انسحبوا لذلك قرروا بقيادة الرسول القائد ﷺ المضي في المعركة.

أما المشركون فرغم نجاة قافلتهم إلا أنهم رغبوا في إظهار الهيبة والقوة لتهابهم العرب وحتى لا يكرر المسلمون التجرؤ على الخروج لهم.

أيا كان فقد كان لابد للمعركة أن تقع لأن الله أرادها ورتب لها لينصر نبيه ﷺ وجنده ودينه.

بدر الكبرى

(١٧ رمضان ٢هـ)

(وغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلَّم)

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ .. ﴾

(آل عمران ١٢٣/٣)

اختيار أرض المعركة في بدر
وبناء مركز القيادة
والتسليم بالقيادة للرسول ﷺ

استشار النبي ﷺ أصحابه في اختيار أرض المعركة وأشار عليه الحباب بن المنذر بن الجموح بالسيطرة على المياه مصدر الحياة ببناء حوض يشرب منها المسلمون مع ردم باقي الآبار المحيطة وحرمان المشركين من مصدر المياه الوحيد في المنطقة والمياه هي روح الحياة والمقاتلين في حروب الصحراء.

إن النبي القائد ﷺ عندما يستشير أصحابه فإنما يستشير ما يمكن أن نسميه أركان حربه من ذوي الخبرة بالحرب ومن ذوي الإيمان الراسخ وهو درس لكل قائد ليحيط نفسه بصفوة أركانه ووزرائه وذوي الخبرة والرأي السديد.

كما أشار سعد بن معاذ على المصطفى ﷺ ببناء عريش أو مركز قيادة لا يكون على الخط الأمامي للقتال ولكن في عمق قوات المسلمين مع حراسة القائد احتياطاً لنتيجة المعركة فان كان النصر كان بها وإن كانت الأخرى لحق النبي بأتباعه في المدينة يعيد بهم بناء قوته أي أن القائد يجب أن يحتاط لكل الاحتمالات وهكذا نرى أن الرسول القائد ﷺ رغم أنه علم ويعلم تردد مشركي قريش للقتال إلا أنه استمر في بناء خطته وترتيب أوضاعه وأموره كلها على أرض المعركة.

إن سبق المشركين بالاستيلاء على ماء بدر قد قطع أكثر من نصف الطريق إلى النصر وأرغم المشركين على البدء بالقتال وإشعال نار المعركة بمحاولة الوصول للماء بالقوة.

وفى أول غزوة من غزوات الرسول ﷺ لم يخطر ببال أحد من المسلمين أن يسلم القيادة لأحد غير المصطفى ﷺ واستمر رسولاً وقائداً للمسلمين حتى وفاته وبعد مماته.

وفى غزوة بدر الكبرى صار الرسول الخاتم ﷺ إلى جانب رسالته الخاتمة رئيس دولة وليدة في المدينة وقائداً عاماً لجيوش المسلمين حتى وفاته.

المبارزة
آل الرسول القائد ﷺ رأس الحربة

لو لم يكن الرسول القائد ﷺ صادقاً كل الصدق في الدعوة للتوحيد لما دفع عمه حمزة بن عبد المطلب ليكون أول مسلم يقتل مشركاً على الحوض هو الأسود بن عبد الأسد المخزومي الذي حاول الوصول لحوض الماء الذي يسيطر عليه المسلمون.

ولو لم يكن الرسول صادقا ﷺ كل الصدق لما دفع علي بن عمه وعمه حمزة وابن عمه عبيدة بن الحارث ليبارزوا المشركين عندما طلبوا المبارزة وطلبوا أن يكون المبارزون من المسلمين من المهاجرين وهم أقارب المكيين وذويهم.

إن أي قائد في أي مكان وأي زمان يضن بأهله ويستبقيهم لآخر لحظات المعركة ربما ليحموه إذا وقعت به الهزيمة ولكن الرسول القائد ﷺ لا يضن بأهله وأهله إيماناً منهم بالله وبرسوله ﷺ كانوا دائماً في المقدمة في كل غزوات ومعارك الرسول مع الشرك والمشركين.

لقد قتل الثلاثة من المشركين عتبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة وشيبة بن ربيعة في افتتاح المعركة مما رفع معنويات المسلمين وحط من معنويات الشرك والمشركين.

وعندما قتل المسلمون الثلاثة المشركين الثلاثة إنما قتلوهم بالقوة المعنوية والتشوق إلى النصر قبل أن يقتلوهم بالقوة البدنية والخبرة القتالية.

ولنلاحظ في المعارك في صدر الإسلام أن لكل معركة أو غزوة هدف محدد واستعداد لها ولكن هناك لكل مقاتل من المشركين هدف خاص هو الانتقام من قاتلي أقاربه في المعارك السابقة كما حدث لحمزة بن عبد المطلب عندما قُتل في أُحد انتقاماً مما فعله في بدر.

الرسول القائد ﷺ يحرض جنوده على القتال ويقاتل معهم ..

كان العريش المقام للرسول القائد ﷺ أو مركز القيادة رمزاً لوجود القائد ووحدة القيادة لم يجلس فيه القائد كثيراً بل كان بين صفوف رجاله يسوي صفوفهم بيديه الكريمتين وربما كان يحرض المسلمين فرداً فرداً على القتال ويعدهم بنصر الله والجنة للشهداء.

رتب الرسول القائد ﷺ صفوف قواته للدفاع أولاً بالرماح والسهام ثم النبال في الخلف ومن خلفهم فرسان اثنان وضع كل فرد مسلم في الموضع الذي يناسب سلاحه ليشتبك المسلمون في وقت واحد وبطريقة منظمة.

أعطى الرسول القائد ﷺ من قوته الإيمانية لنفوس المسلمين حتى أنهم وهم المترجلون يصولون ويجولون ويقتلون المشركين بقوة إيمانهم.

حتى إذا حميت المعركة وبدأت بوادر هزيمة المشركين شد عليهم المسلمون بأوامر مباشرة من الرسول القائد ﷺ حتى انتصروا عليهم وطاردوهم وعاد بعدها إلى مركز قيادته يتابع الموقف بنفسه.

كانت قيادة الرسول ﷺ للمسلمين في هذه الغزوة من أهم أسباب النصر بعد تأييد الله سبحانه وتعالى له ودعم المسلمين بالملائكة وهناك على الجانب الآخر سرت روح الفرقة والانقسام والتفاخر مما أدى إلى قتل رؤوس الكفر جميعاً وهكذا كان المشركون تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.

يقول الحق سبحانه وتعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ۞ الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۞) [١]

---

[١] سورة الأنفال ـ الآيتين ٦٥ ـ ٦٦

وعدهم الله في هذه الآيات أن العشرين يغلبوا مائتين لولا أن في المسلمين ضعفاً مادياً إما لقلة السلاح أو الإمداد أو ظروف المعركة فخفف عنهم ووعدهم بأن مائة يغلبوا مائتين وألفاً يغلبوا ألفين.
خفف الله على المسلمين من نسبة ١ : ١٠ إلى ١ : ٢ فقط عندما أحدث المسلمون خسائر في المشركين قتلى وجرحى فوصلت نسبة المسلمين للمشركين إلى حوالي ١ : ٢ بعد أن كانت ١ : ٣ في بداية المعركة.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) [1]

كما يقول: (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [2]

ما قد يفهم منه أن المسلمين قد أخذوا بأسباب القوة فصنع الله لهم ما صنعوا من قتل الأعداء وتسديد الرمي وتوفيقهم إلى البلاء الحسن.

---

[1] سورة الأنفال ـ الآية ١٢
[2] سورة الأنفال ـ الآية ١٧

غزوة بدر الكبرى

(يوم الفرقان يوم التقى الجمعان)

١٧ رمضان ٢هـ

١٣ آذار ٦٢٤ م

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾

(الصَّف ٦١/٤).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(آل عمران ٣/١٢٣)

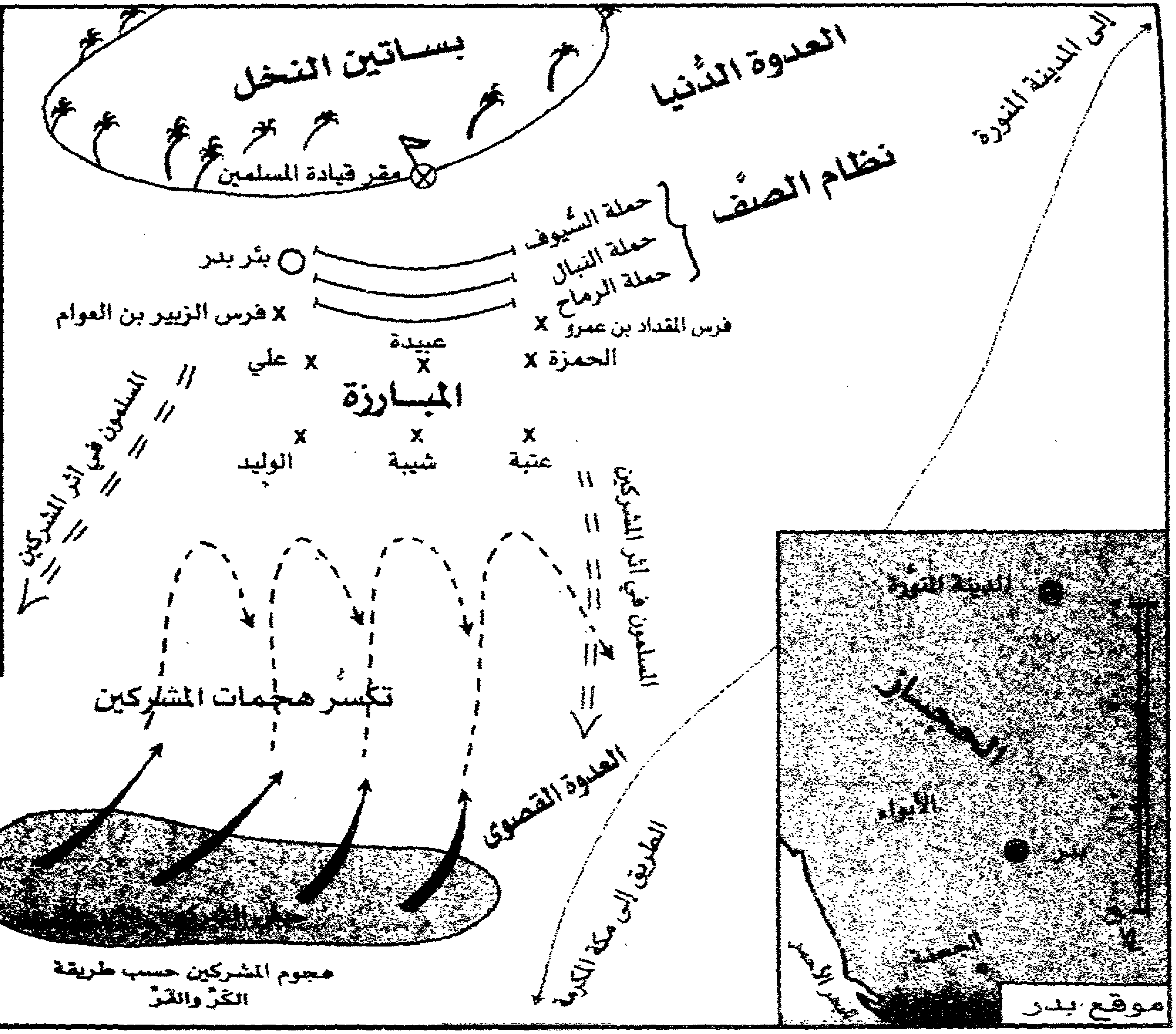

المسلمون لا يقتلون من ساعدهم على التمسك بالإسلام

في العصور الحديثة والقديمة لا تختلف مهمة أي قوات محاربة في النص على ضرورة هزيمة العدو وقتل أفراده وتدمير أسلحته ومعداته والاستيلاء على أرضه وإملاء شروط المنتصر بعد ذلك.

ولكن المسلمين بقيادة الرسول القائد ﷺ وهم يفتتحون عهداً طويلاً من القتال بين التوحيد والشرك سيمتد إلى يوم القيامة كان عليهم أن يضعوا أسس النظرية الإسلامية المحمدية في القتال وهي قتال المعتدين من المشركين وخصوم المسلمين إذا كان لابد من القتال لردع هؤلاء الأعداء أو الخصوم ومنعهم من فرض إرادتهم على المسلمين مع تأمين حرية المسلمين في الدعوة إلى عقيدة الإسلام.

كان الهدف من القتال في بدر هو تحرير المشركين من الشرك وتحرير المسلمين من الخوف مما عدا الله مع استرداد ما يمكن استرداده من أموالهم وممتلكاتهم التي تكاد تكون قد اغتصبت منهم وأخذت قسراً من المهاجرين للمدينة.

لم يكن الهدف من القتال في بدر هو إبادة المشركين أو الاستيلاء على أرضهم وأموالهم أو أسرهم بل إن المشركين هم الذين قطعوا المسافة الكبرى من مكة لبدر لإخافة وإرهاب المسلمين والحط من إمكانياتهم وقدراتهم ودينهم على مسمع ومرأى من كل عرب الجزيرة العربية.

أمر الرسول ﷺ جيش المسلمين قبل موقعة بدر بعدم قتل عمه العباس إذا وجدوه في المعركة وقال ﷺ: "من وجد العباس لا يقتله". فشهر سيدنا عمر بن الخطاب سيفه وقال: "والله إن وجدته مع جيش الكفار يحارب المسلمين لأقتلنه" فنظر له النبي ﷺ وقال: "ألو كان من عشيرتك لكنت قتلته؟" فبكى عمر وقال للنبي ﷺ: "والله لكنت قتلته لأنني على الحق" فابتسم النبي ﷺ لعمر وقال ﷺ لعمر: "هون عليك فالعباس عمي وما دخل الحرب إلا خجلاً من قومه فلا تقتله" فقال عمر: "وأنا أول من يطيع رسول الله". ويقول المؤرخون أن العباس كان عيناً للمسلمين داخل مكة ويمدهم بالأخبار ولهذا كان حرص الرسول ﷺ على عدم قتله تكريماً له.

وبأوامر من الرسول القائد ﷺ ومنذ اللحظة الأولى للمعركة امتنع المسلمون عن قتل رجال بني هاشم وبعض رجال من سادات قريش رغم أنهم اشتركوا في القتال ضد المسلمين ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله.

ولا نحسب أن الرسول ﷺ أراد أن يحابي أهله أو أقاربه فهو ليس كذلك وهو قد دفع عمه وابني عمه للمبارزة في بدء المعركة مع ما في المبارزة من مخاطر. وإنما ذكر ﷺ لبنى هاشم دفاعهم عنه على مدى ثلاثة عشر عاماً من يوم البعثة إلى الهجرة كما ذكر ﷺ لغير بني هاشم جميل من قاموا من قريش وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة التي اضطرته بها قريش أن يلزم هو والمسلمون معه الشعب حوالي ثلاث سنوات يعانون الجوع والعطش وأكل أوراق الشجر.

إن الرسول القائد ﷺ وجنوده لا يقاتلون رغبة في القتال أو القتل وإنما لتحرير العقول من الشرك وتأمين حرية الدعوة والسعي لاسترداد أموالهم وممتلكاتهم فقط التي تركوها في مكة. ولم يكن الرسول القائد ﷺ في حياته المباركة وفى تعاليمه ساعياً إلى قطع الطريق أو نهب القوافل ولم يفعل ﷺ ذلك أبداً.

يقول الحق سبحانه وتعالى

(عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ۞) [١]

ولنتذكر دائماً الشعار الذي رفعه المصطفى ﷺ والمسلمون في غزوة بدر وهو أحدٌ..

أحَد شعار التوحيد الذي نص عليه القرآن في سورة الإخلاص حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞) [٢]

ولنتذكر أن هذه الحرب العقائدية التي اندلعت كانت قتالاً على المبادئ قبل كل شيء آخر لدرجة أن الابن قاتل أباه والأب قاتل ابنه وجهاً لوجه وكان كل منهما حريصاً على قتل الآخر.

---

[١] سورة الممتحنة - الآيتين ٧ - ٨

[٢] سورة الاخلاص

وفى غزوة بدر وفى معظم معارك العرب بين المسلمين والمشركين واليهود وربما قبل الإسلام كانت المعركة تدور ليوم واحد فقط نهاراً ثم ينصرف الطرفان مع الوعيد بيوم قتال آخر في المستقبل يستعد له الطرفان بالرجال أو السلاح وكأن المعركة مبارزة كبرى فيها منتصر وفيها مهزوم يعترف بهزيمته.

وكان المقاتلون من الطرفين يسعون في كل معاركهم إلى الثأر ممن قتلوا أقرباءهم في المعارك السابقة إلا المسلمين فإنهم كانوا يقاتلون إعلاءً لكلمة الله وليس انتقاماً من أحد.

دفن أعداء المسلمين

هل يهتم المتقاتلون في العصر الحديث بدفن قتلى خصومهم ؟ لا نظن ذلك وأمامنا نشرات الأخبار تنقل لنا قيام كل طرف بجمع جثث قتلاه وتعرف الأهل عليها ثم يقوم بدفنها ولا يهتم في كثير أو قليل بجثث خصومه بل قد يمثل بها أو يجهز على الجرحى.

قام الرسول ﷺ بذلك في بدر عندما جمع المسلمون قتلى قريش وحفروا لهم قليباً ودفنوهم فيه .. وكان الرسول ﷺ يدفنهم فرداً فرداً ويخاطبهم وهم مدفونين مؤكداً لهم صدق دعوته التي عارضوها في الحياة وصدق عليهم وعده ووعيده وهم في القبور.

ومن خطابه ﷺ لهم والذي سمعه بعض المسلمين ما معناه لقد قاتلتمونا رياء وبطراً ولم تقاتلونا دفاعاً عن عقيدة كما فعل المسلمون.. لقد خاب سعي المشركين في الدنيا وفي الآخرة.

قسمة الفيء

كان الرسول القائد ﷺ يعرف أن معركة بدر لها ما بعدها وستتلوها معارك أخرى بين المسلمين والمشركين حتى ينتصر دين الله على كل ما عداه.

لذلك وضع ﷺ في غزوة بدر ما يعتبر قواعد عامة لتقسيم الفيء بعد ذلك وأرضى كل المسلمين الذين قاتلوا وورثة الشهداء والذين تخلفوا لعذر والذين ساندوا الأعمال القتالية للمسلمين. إنه عليه الصلاة والسلام يضع الحوافز والضمانات التي تؤمن الحشد اللازم من المسلمين أو النفير لكل معركة قادمة.

لقد وضع الرسول القائد ﷺ نظاماً لتوزيع الفيء لا يعطى الفرصة لأحد من المسلمين أن يمتاز عن غيره أو يأخذ لنفسه ما ليس من حقه وليعرفوا جميعاً أن الهدف من القتال لم يكن أبداً الفيء وإنما حماية العقيدة.

يقول الحق سبحانه وتعالى

(وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [1]

---

[1] سورة الأنفال ـ الآية ٤١

أسرى بدر

أسر المسلمون في بدر حوالي خمسين أسيراً وهم من أشراف مكة وسادتها معروفون بالاسم ولهم تاريخ مرير مع الدعوة وصاحبها ﷺ على مدى ثلاثة عشر عاماً هي عمر البعثة قبل الهجرة.

سمع النبي ﷺ كعادته إلى رأي أصحابه عملاً بمبدأ الشورى الذي أرساه مع المسلمين فقال له أبو بكر: فأمنن عليهم منّ الله عليك أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين فلعل الله أن يقبل بقلوبهم.

وقال عمر بن الخطاب: هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك وأخرجوك. أضرب رقابهم هم رؤوس الكفر دائمة الضلالة. يوطئ الله بهم الإسلام ويذل بهم أهل الشرك.

فرق الرسول القائد ﷺ الأسرى بين أصحابه لحراستهم وقال ما لم يقله القادة في عصرنا الحديث "استوصوا بهم خيرا" كما رفض النبي ﷺ أن يمثل بأسير هو سهيل بن عمرو بناء على طلب من عمر قائلاً "لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً"

كما أطلق الرسول الرحيم ﷺ سراح أبى العاص بن الربيع زوج ابنته زينب وفرق بينه وبين زوجته زينب وعاد لمكة.

كما أطلق ﷺ سراح أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحى على وعد من هذا الأسير ألا يقاتل الرسول ﷺ والمسلمين أبداً ولكنه عاد وقاتل المسلمين في أحد حتى أسر وقتل وهو مبدأ معمول به الآن وهو قتل الأسير إذا حارب مرة أخرى.

وبعد ١٤٢٦ عام هجري يتباكى بعض الفريقين لمقتل اثنين من الأسرى هما النضر بن الحارث والآخر هو عقبة بن معيط والذين أمر النبي ﷺ بقتلهما وهم في طريق العودة للمدينة وربما قتل الاثنين علي بن أبى طالب الذي قتل من المشركين في المبارزة وفى المعركة وهذين الأسيرين وهو ابن عم الرسول القائد ﷺ وزوج ابنته.

هذان الأسيران الذين قتلا يعتبران مجرمي حرب أو مجرمين في حق الإنسانية وحق الحرية لما مارساه من تعذيب المسلمين على مدى ثلاثة عشر عاما في مكة قبل الهجرة ولما قالاه طعناً في كتاب الله وفى رسوله الكريم ﷺ.

وخصوم المسلمين اليوم يقتلون من المسلمين مدنيين ومسلحين ومقاومين ما لا يعد ولا يحصى وترتكب المجازر يومياً في فلسطين والعراق بقتل العشرات ولا تهتز شعرة في بدن الكثيرين ممن يعطفون على الأسيرين الذين قتلا بأمر الرسول ﷺ.

وهناك دليل هام آخر على أن المسلمين لم يفكروا كثيراً في نهب تجارة قريش التي تعبر من مكة للشام بالقرب من المدينة ما أمر به الرسول القائد ﷺ بإعادة ما أصابوا من تجارة قريش عند عودتها من الشام وعليها أبو العاص بن الربيع وعاد بها الرجل لمكة وردها لأصحابها ولكن أهل قريش كانوا يبيتون للثأر من المسلمين بل وللتمثيل بهم.

آثار بدر في المدينة

عاد المسلمون منتصرين إلى المدينة ولم يرض ذلك المشركين واليهود وزاد الاحتقان بين المسلمين وخصومهم وزاد هجاء اليهود للرسول ﷺ والمسلمين بل وائتمروا به وفكروا في اغتياله ﷺ وهو كعهده يعرف أولاً بأول ما يدور في الخفاء وفى العلن.

كان المسلمون يخافون من رد العدوان على المسلمين فرادى قبل بدر ولكن بعد بدر تجرأوا وبدأ بعض المسلمين بمبادأة من أنفسهم ودون أوامر الرسول القائد ﷺ بقتل بعض المشركين الذين يغيظون للمسلمين فقتل سالم بن عمير أبا عفك ـ أحد بني عمرو بن عوف ـ وقتل عمير بن عوف عصماء بنت مروان وكانت تعيب على الإسلام وتؤذى الرسول ﷺ وتحرض المشركين عليه.

واستدرج ثلاثة من المسلمين كعب بن الأشرف وقتلوه وكان قد ذهب إلى مكة بعد نصر المسلمين ببدر يحرض على الرسول ﷺ وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب قتلى قريش في بدر وجعل كذلك بعد عودته للمدينة يتغزل في نساء المسلمين بالمدينة.

كل هذه الأعمال جاءت بمبادرة من المسلمين دون أوامر من الرسول ﷺ وعلم بها ولم يعترض عليها لأن المسلمين في هذه المواقف وأمثالها كانوا في حالة دفاع مشروعة عن النفس وعن هيبتهم في المدينة كما قتل مسلم يهودياً صائغاً في المدينة كشف عورة امرأة مسلمة واستهزأ بها ثم قتله اليهود بعد ذلك.

طلب الرسول القائد ﷺ بعد هذه الواقعة من اليهود أن يكفوا عن أذى المسلمين دون مبرر لذلك وأن يحفظوا عهد الموادعة والتهدئة أو الهدنة والتعايش في سلام في مدينة واحدة لكنهم استخفوا بكلام الرسول القائد ﷺ بل وهددوه وتوعدوا المسلمين إن هم حاربوهم.

غزوة بدر.. قيادة وأخلاق رفيعة

من المعروف في تاريخ صدر الإسلام أن الغزوات هي المعارك التي دارت بين المسلمين وغيرهم من الكفار واليهود وقاد النبي صلى الله عليه وسلم فيها قوات المسلمين وقد تطلق كلمة يوم على الغزوة مثلما ذكر في القرآن الكريم عن غزوة حنين حيث قال سبحانه
(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) [1]

ومن المعروف كذلك أن الرسول الخاتم ﷺ لم يقاتل خصوم الدعوة إلا بعد أذن الله له بالقتال كما جاء في سورة الحج (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [2]

وفي غزوة بدر الكبرى في ١٧ رمضان سنة ٢هـ بعد حوالي ١٥ عاماً من البعثة تحرك المسلمون من المدينة إلى بدر على بعد حوالي ١٣٠ كم مثل المسافة من القاهرة للسويس وكان عددهم حوالي ٣٠٠ رجلاً بقيادة أعظم القادة وخاتم النبيين ﷺ وكان معهم ١٠٠ بعير وفارسان اثنان فقط.

استلزم تحرك هذه القوة أن يشترك كل ثلاثة في الركوب على بعير ووضع النبي ﷺ - وعمره المبارك ٥٥ سنة - نفسه كأي واحد من المسلمين وشارك أثنين آخرين تبادل الركوب على البعير هما علي بن أبي طالب - ٢٥ سنة - ومرثد بن أبي مرثد الغنوي أي أن النبي ﷺ سار على قدميه الشريفتين من المدينة إلى بدر حوالي ٨٥ كم في مدق صحراوي كله رمال وحجارة وغير واضح المعالم.

من عظمة المصطفى ﷺ في هذا المسير أن علياً ومرثد عرضا عليه الركوب طوال الرحلة على أن يسيرا هما بدلاً منه على أقدامهما ولكنه ﷺ رفض قائلاً: "ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما" ضارباً المثل في كل زمان ومكان لكل قائد مسلم على مشاركة رجاله مشاق الحرب.

ورغم مشقة سير النبي ﷺ على قدميه على كل من نفس علي ونفس مرثد إلا أنهما أطاعاه ولم يجبراه مثلاً على الركوب على البعير.

---

[1] سورة التوبة - الآية ٢٥
[2] سورة الحج - الآية ٣٩

في هذا الصدام غير المتوقع بين ٣٠٠ مسلم بقيادة النبي ﷺ وحوالي ١٠٠٠ قرشي بقيادة متعددة الرؤوس لأبي سفيان وأبي جهل وغيرهما.. ابتكر الرسول القائد ﷺ أفكاراً كثيرة ومبادئ للحرب منها أنهم أقاموا له ﷺ عريشاً أي مركز قيادة وأنه ﷺ أعد المسلمين للقتال على هيئة صفوف وأنساق وحدد لكل من المشاة والنبالة مكانهما في أرض المعركة.

وليقابل ﷺ تفوق الكفار أمر بترك المشركين ليبدأو القتال والهجوم. وعلى المسلمين من مكانهم قتل أكبر عدد من المشركين حتى ينقص عدد المشركين ثم يهجم المسلمون بعد ذلك بعد إرهاق المشركين ليستكملوا هزيمتهم.

كانت غزوة بدر معركة دفاعية في بدايتها هجومية في نهايتها وبصفة عامة كان البادئ بالحرب هم المشركين الذين تحركوا من مكة لمسافة حوالي ٤٥٠ كم أما المسلمون فقد تحركوا لبدر القريبة من المدينة المنورة على بعد ١٣٠ كم.

ستظل غزوة بدر مثالاً يحتذى لمعارك الدفاع من أجل العقيدة صاغ الرسول القائد ﷺ فيها الكثير من المبادئ والقيم التي تعتبر مثالاً لأخلاقيات الحروب.

وإذا كان في الفكر الحديث أن هدف الحرب هو هزيمة وتدمير العدو والاستيلاء على أرضه فإن هدف الحرب في غزوة بدر هو هزيمة الكفار لتأمين حرية انتشار الدعوة الإسلامية دون إجبار أحد على اعتناق الإسلام.

حصار يهود بني قينقاع

تمكن الرسول القائد ﷺ من يهود بني قينقاع وحاصرهم ١٥ يوماً مانعاً عنهم الطعام والإمداد بعد أن كشفوا عورة امرأة مسلمة وقتلوا المسلم الذي قتل اليهودي الذي أساء للمسلمة وبعد أن أنذرهم ﷺ وذكرهم بما بينهم وبين المسلمين من معايشة سلمية في المدينة وكثيراً ما أنذر الرسول القائد ﷺ خصومه بالقتال قبل الاشتباك الفعلي.

كان رجال بني قينقاع ٤٠٠ رجل حاسر أي دون درع و٣٠٠ رجل يلبسون الدروع وهى قوة لا يستهان بها إزاء قوة المسلمين يومئذ بالمدينة.

ورغم ذلك قرر الرسول القائد ﷺ قتلهم جميعاً لما نقضوا من العهود ولما أبدوا من تهديد لقوة المسلمين المدنية.

ولكن الرسول الرحيم ﷺ قبل شفاعة عبد الله بن أُبي بن سلول من المشركين وعبادة بن الصامت فيهم وسمح لهم بالجلاء عن المدينة على أن يغادروها ويتركوا سلاحهم وذهبهم غنيمة للمسلمين.

إن ترك بني قينقاع يرحلون رغم قدرة الرسول ﷺ على قتالهم وهزيمتهم درس بليغ في العفو عند المقدرة ودرس في إظهار القوة لخصوم المسلمين وردعهم عن فعل ما فعل يهود بني قينقاع ودرس للمسلمين ليتعلموا أن كرامة كل امرأة أو رجل من المسلمين هي كرامة لهم جميعاً تستحق الدفاع عنها بالقتال والحرب.

ومن الدروس أيضاً أن الرسول القائد ﷺ إنما حاصر بني قينقاع وأجلاهم ليخفف من الاحتقان بين الطوائف المختلفة في المدينة ويحقق حرية العبادة لكل الناس فيمن بقى في المدينة من مختلف العقائد والطوائف.

الرسول القائد ﷺ وأركان حربه

لكل قائد في كل زمان ومكان أركان حرب أو معاونون والرسول القائد خاتم النبيين ﷺ قدوة الأنام جميعاً كان كذلك له وزيران هما وزيره الأول أبو بكر الصديق ووزيره الثاني عمر بن الخطاب وكان له أركان حرب يقومون بإعداد الجند وتجهيزهم بالسلاح والدواب والطعام والمياه ويقومون كذلك بجمع المعلومات وإبلاغها للرسول ﷺ ليحللها بنفسه ويستشيرهم كذلك في تحليلها واتخاذ القرارات بشأنها.

وكما كان للرسول ﷺ مساعدون وأركان حرب في قيادته كان له قادة لكل كتائبه من المهاجرين والأنصار الذين دفع بهم في كل غزواته من بدر حتى تبوك وحتى جيش أسامة بن زيد.

ومنهم كذلك رجال للمهام الخاصة مثل المبارزة ومثل فتح الحصون الحصينة ومنهم علي بن أبي طالب وعمه حمزة وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام وأسامة بن زيد وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وغيرهم من كبار الصحابة والقادة الذين تتلمذوا على يديه ﷺ وتعلموا منه مبادئ الحرب الإسلامية وأخلاقياتها ومارسوها بعد وفاته ﷺ وفتحوا بها العالم شرقاً وغرباً.

كان ولاء قادة النبي ﷺ له ولاء للعقيدة أولاً وقبل كل شيء وولاء وارتباط بالمصاهرة إذ تزوج الرسول القائد ﷺ من بنت أبي بكر وبنت عمر وزوج ابنتيه لعثمان بن عفان واحدة بعد الأخرى وزوج فاطمة لعلي بن أبي طالب ولنلاحظ كذلك أن النبي ﷺ قد تزوج من بنت أبي سفيان زعيم مكة وزعيم خصومه بعد بدر وهى أخت معاوية بن أبي سفيان خامس الحكام المسلمين بعد الرسول ﷺ.

وإذا أردنا أن نقرب المفهوم فنقول : ولله المثل الأعلى وهو ملك هذا الكون وقائده الأعلى ومحمد ﷺ هو قائده العام الذي جاء بخاتم الرسالات هذا الرسول القائد الذي لم يخالف أمراً من أوامر الله العظيم ولم يخالفه أحد من قادته أو أركان حربه في أمر صغير أو كبير وإن خالفه أحد باء بالهزيمة كما حدث في غزوة أحد رغم أن مخالفتهم لأوامر الرسول ﷺ كان اجتهاداً أصابه الخطأ.

والقرآن الكريم وهو كلام الله يحفل بالعديد من الآيات الكريمة التي تتضمن أوامر الله ونواهيه لرسوله ﷺ فيما يخص القتال وأسبابه والتحريض عليه والمكافأة على القتال والجهاد في سبيل الله.

كان الرسول القائد ﷺ يلجأ للقتال إذا لم تنجح الوسائل الأخرى في تحقيق ما يريده للدعوة للتوحيد من حرية وعدم إكراه وكان من الوسائل الأخرى الدعوة بالحسنى والجدال بالتي هي أحسن.

ما قبل أحد

كانت غزوة السويق رداً على إغارة أبي سفيان وعشرات من رجال قريش على منطقة العريض بالمدينة حيث قتلوا رجلين من الأنصار وحرقوا بيتين وجاء رد الرسول القائد ﷺ المستعد دائماً للذود عن وطنه وأهله وعقيدته سريعاً إذ خرج يطارد أبا سفيان بنفسه ثم لحقه المسلمون بعد ذلك.

كان النبي ﷺ يستطيع أن يلحق بأبي سفيان ومن معه ويقتل منهم أو يأسر ولكنه اكتفى بفرار أبي سفيان وأعطاه درساً كي لا يعود مرة أخرى وعندما يعود أبو سفيان يفشل في كل مرة حتى كان فتح مكة.

بعد بدر وبعد الدوريات التي أرسلها الرسول القائد ﷺ أصبح ما حول المدينة حتى ساحل البحر الأحمر تحت سيطرة المسلمين إما بإخافة هذه القبائل المحيطة أو التعاهد معها أو دخولها الإسلام أو إحباط نية هجوم هذه القبائل كما فعل مع غطفان في قرقرة الكدر وكما فعل مع بني ثعلبة ومحارب في ذي أمر وكما فعل مع بني سليم ببحران وفى هذه الأعمال كلها غنم المسلمون الكثير.

وإذا كان الرسول القائد ﷺ قد استطاع مع نهاية العام الثاني من الهجرة أن يسيطر على طريق القوافل على الساحل للشام ويضطرهم إلى سلوك طريق وعر آخر هو طريق العراق للشام حيث ذهب زيد بن حارثة واعترض أول قافلة تسلك هذا الطريق وأخذوا العير غنيمة كما استطاع المسلمون نصب كمين لقريش على الطريق البديل وحرموهم بذلك من الطريقين طريق الساحل وطريق العراق لتصبح قريش تحت ضغط المسلمين وتهديدهم لها في رزقها.

الرسول القائد ﷺ
يقاتل للدفاع والرد والردع فقط

إذا تأملنا المعارك التي كانت تدور قبل الإسلام وفى صدر الإسلام لوجدناها مبارزة كبرى أو هي مباراة حربية عملية بين قوتين تبدأ بالمبارزة بين المقاتلين المتميزين من الطرفين وتنتهي بهزيمة واستسلام طرف من الأطراف وتستغرق المعركة نهاراً كاملاً تظهر نتيجتها في آخر اليوم.

وعادة ما يعترف المهزوم بهزيمته ويتوعد المنتصر بلقاء قريب أو جولة جديدة من القتال بعد عام أو أكثر أو أقل يكون الطرفان قد استعادا كفاءتهما القتالية من رجال وعتاد ومؤونة وإمداد.

مثلما حدث في الجولات العربية الإسرائيلية التي توالت من حرب ١٩٤٨ – ١٩٥٦ – ١٩٦٧ – ١٩٧٣ – ١٩٨٢ - ٢٠٠٦ وهى الجولات التي ربما تتوقف أولا تتوقف أبداً حتى يتوقف العدوان والاغتصاب ويحل السلام العادل الذي يحفظ للمسلمين حقوقهم.

ولو تأملنا في الغزوات أو المعارك التي قادها الرسول القائد ﷺ بنفسه وعددها ٢٨ غزوة لوجدنا الآتي :

- غزوات أو معارك دفاعية وهى التي وقعت مع قريش إلا فتح مكة فهي غزوة لم يحدث فيها قتال يذكر وهى الوحيدة التي تحرك فيها المسلمون لمكة لهزيمة المشركين في عقر دارهم بالسلم.
- غزوات الرسول ﷺ مع اليهود وهى كلها رد فعل لأقوال وأفعال اليهود نتيجة للإيذاء المستمر للمسلمين أو نقض العهود معهم .
- غزوات للردع وهى كانت موجهة أساساً للروم لردعهم عن العدوان على المسلمين في جزيرة العرب وإظهار قوة الإسلام الناشئة في الجزيرة.
- غزوات لردع القبائل المحيطة بالمدينة وتأمين ما حول المدينة من أي هجوم مفاجئ على المدينة وتهديدها وهى قاعدة الإسلام وعاصمته الوليدة.

لم يقاتل الرسول القائد ﷺ والمسلمون للهجوم أو احتلال أرض أو الاستيلاء عليها وإنما قاتلوا لإعطاء الناس حرية الاختيار بين الشرك وبين التوحيد ، كانت الحروب بين المسلمين وخصومهم في الجزيرة العربية حرباً أهلية بين طوائف ثلاثة المسلمين والمشركين واليهود وانتهت بسيادة عقيدة التوحيد على ما سواها من عقائد.

طبيعة القتال في الغزوات والسرايا

في الحروب الحديثة عادة ما يختلف المتقاتلون شكلاً ولباساً ولغة وسلاحاً مما يسهل عملية التميز بين المتقاتلين أما في الجزيرة العربية فالزى واحد والسلاح واحد والمتقاتلون يعرفون بعضهم البعض وقد يقتل البعض لثارات قديمة بين المتقاتلين لا علاقة لها بموضوع المعركة كما قتل حمزة بن عبد المطلب في غزوة أُحد انتقاماً لما فعله بالمشركين في بدر وربما يكون علي بن أبي طالب قد قتل انتقاماً لما فعله بالمشركين في كل الغزوات والسرايا التي خاضها في عهد الرسول ﷺ وغالباً ما يعرف أهل القتيل قاتله في المعركة ويتربصون به.

لم يأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالانتقام من أشخاص معينة في الغزوات وإنما أمر في بدر بتجنب قتل أي واحد من بني هاشم أو عمه العباس لأسباب يعرفها شخصياً أكثر من أي فرد آخر في جيش المسلمين وليس بسبب القرابة.

كان هناك مبدأ ثابت للرسول القائد ﷺ وهو تحقيق الظروف والحرية المناسبة لمن يريد أن يعتنق الإسلام إما بالسلم أو بالحسنى أو بالردع وإخافة الخصوم أو بالقتال المباشر في نهاية الأمر وعادة ما كان الرسول القائد ﷺ يتركهم يبدأون بالعدوان ثم يرد عليهم كما حدث في بدر وأحد والخندق وكما حدث من عدوان اليهود على جيرانهم من مسلمي المدينة ونقضهم العهود مع الرسول ﷺ.

غزوة أحد

كانت معركة بدر معركة دفاعية لدليلين الدليل الأول هو نية العدوان التي كانت لدى قريش إذ قطعت من مكة لبدر مسافة هي ثلاثة أمثال المسافة بين المدينة وبدر.

ولم تقطع قريش هذه المَسافة وبهذه القوة المتفوقة عدداً وعدةً للدفاع عن مكة وإنما لتأديب المسلمين وردعهم.

والدليل الثاني أن قريش هي التي بدأت القتال الفعلي بمحاولتها الحصول على ماء من بدر بالقوة وطلب المبارزة مع المسلمين وكان يمكن لقريش أن ترحل عندما نفد الماء منها.

وفى غزوة أُحد وبعد حوالي عام قطعت قريش حوالي ٥٠٠ كم في صحراء صعبة كلها جبال وتلال لتهاجم المدينة وتنتقم لهزيمتها في بدر.

خرجت قريش سادتها ومواليها وأحابيشها ومعها رجال من ثقيف ونساء يحرضن على القتال والانتقام من المسلمين ولكنَ على الجانب الآخر كان النبي ﷺ وكبار الصحابة يحرضون المسلمين على قتال المشركين ليس رغبة في الانتقام أو الإذلال وإنما لتحقيق إحدى الحسنيين النصر على الشرك أو الشهادة في سبيل الله ودخول الجنة وكذلك للدفاع عن وطنهم المدينة المنورة.

كان مقاتلو قريش ٣٠٠٠ مقاتل لكل منهم بعير منهم ٧٠٠ دارع و٢٠٠ فارس ومعهم الإمداد والمياه الكافية.

أرسل العباس عم الرسول ﷺ إليه بتقرير شامل لما تعده قريش للهجوم على المدينة وحمل الرسول التقرير وذهب به للمدينة في ٣ أيام فقط من مكة للمدينة مما يوضح حرص الرسول ﷺ على الحصول على المعلومات عن أعدائه في الوقت المناسب ويوضح بعد نظره في إبقاء الباب مفتوحاً للتعاون مع عمه رغم انه لم يكن قد أسلم بعد وربما قد أسلم وأخفى إسلامه عن مشركي قريش الذين يعيش بينهم.

بوصول جيش قريش لأُحد باتت المدينة مهددة وبات المسلمون يحرسونها ليلاً ونهاراً وخصصت حراسة بالمسجد للرسول القائد ﷺ آخذاً عليه السلام بالأسباب وحسن الاستعداد لكل طارئ.

تشاور الرسول القائد ﷺ كعادته مع كبار الصحابة الأنصار والمهاجرين فأشار عليه بعضهم بالتحصن بالمدينة وهم يعرفون جيداً كيف يدافعون عنها فالأطفال والنساء لرمي الحجارة والرجال بالقتال بالسيوف في الشوارع وقالوا له إن المدينة لم يقتحمها عدو من قبل وأشار البعض الآخر بضرورة الخروج لملاقاة المشركين خاصة وأنهم اعتدوا فعلاً على أرض المدينة وزروعها وإنهم يؤمنون تماماً بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة واللحاق بشهداء بدر والدفاع عن وطنهم.

ومع أن الرسول القائد ﷺ كان يرى التحصن بالمدينة في مواجهة قوة قريش المتفوقة وأحقادهم المتأججة إلا أنه وافق على رأي الأغلبية المتحمسة ولم يرد أن يحبط هذا الحماس وإنما قرر ﷺ أن يستفيد بهذه الحمية والحماس لردع قريش ومحاربتها والانتصار على أحقادها ورد عدوانها على المسلمين ومدينتهم.

غزوة أُحُد
(١٥ شوال ٣ هـ)
﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾
(آل عمران ٣/١٥٢)
جبل أُحد
جبل عينين
(جبل الرماة)
مقر القيادة
علي
الميمنة
الحمزة
القلب
المقداد
الميسرة
المسلمون ٧٠٠ مجاهد
المشاة
بقيادة صفوان بن أمية
أو عمرو بن العاص
عكرمة بن أبي جهل
ومعه مئة من
الفرسان
خالد بن الوليد
مع مئة من
الفرسان
جيش
المشركين ٣٠٠٠ مقاتل
مخيم النساء
الغابة
مجمع الأسيال
العقيق
بئر رُومَة
وادي العقيق
الجُرُف
بنو حارثة
المزاد
النُّبيت
بنو عبد الأشهل
وزعوراء
وادي قناة
راتج
بنو ظفر
ثنيّة الوداع
بنو سَلَمة
بنو الحارث بن الخزرج
السُّنح
المدينة المنوّرة
(يثرب)
البدائع
مسجد رسول الله ﷺ
بنو النجار
حرّة واقم
البقيع

النبي الخاتم ﷺ
يتشاور ولا يفرط ولا يتراجع

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [1]

عندما فوجئ المسلمون بقريش عند أطراف المدينة تشاور النبي ﷺ مع صحابته وأركان حربه فمنهم من أشار عليه بالبقاء في المدينة وتحصينها والدفاع عنها وربما كان هؤلاء معظمهم من الأنصار ومن كبار السن مثل أسيد بن حضير وسعد بن معاذ الذين يعرفون تاريخ المدينة.

ومال الرسول ﷺ لهذا الرأي لما رأى من تفوق المشركين ولإبعاد احتمال الهزيمة عن المسلمين وحرصاً عليهم حتى لا يحدث فيهم قتلى كثيرون فهو عليه السلام يدخرهم وينمي قوتهم لمعارك طويلة قادمة وجولات أخرى داخل الجزيرة العربية وخارجها مع أعداء الإسلام وخصومه.

ولكن الرسول القائد ﷺ وافق في النهاية على الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة لما أطمأن إلى حماسة المسلمين وقوة إيمانهم ورغبتهم في منازلة قريش حتى لا يقال إن المسلمين جبنوا عن ذلك.

في بداية غزوة أُحد أكد الرسول الخاتم ﷺ مبدأ الشورى بين القائد ورجاله واستماعه لمختلف الآراء للأخذ بأفضلها ما لم يكن هناك أمر من الله بشيء معين.

كما أرسى ﷺ مبدأ المحافظة على قوة المسلمين والاقتصاد في قوتهم إذ يجب ألا تصل بهم الحماسة إلى حد التهور الذي لا تحمد عقباه وراجع الذين يريدون الخروج أنفسهم وقالوا للرسول ﷺ لما رأوه لابساً درعه حاملاً سيفه : ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك. فأصنع ما بدا لك. وما كان لنا أن نستكرهك. والأمر إلى الله ثم إليك.

---

[1] سورة التوبة - الآية ١٢٨

قال لهم الرسول القائد ﷺ : لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم . وما ينبغي لنبي إذا لبس لامته (لبس الحرب) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.

وهكذا أرسى الرسول القائد ﷺ مبدأ من المبادئ العظيمة التي أرساها وهو أن القائد المسلم إذا اتخذ قراراً عليه ألا يرجع فيه ويجب عليه ألا تتقاذفه الأهواء والتردد واختلاف الآراء.
كما أرسى ﷺ مبدأ عدم استعانة القائد المسلم بغير المسلمين عند مقاتلة أعداء المسلمين لأنه قتال من أجل التوحيد وليس لمغانم دنيوية أو للتفاخر وحتى لا يظل مديناً لابن أبّي الذي جمع كتيبة من حلفائه للقتال مع الرسول ﷺ والمسلمين ضد قريش وفى العصر الحديث للقائد المسلم أن يدافع عن وطنه بمواطنيه مسلمين وغير مسلمين.

إن رفض الرسول القائد ﷺ اشتراك حلفاء اليهود في القتال معه له ما يبرره ولكننا في العصر الحديث يجب علينا أن نستعين بالخبرة والسلاح من أي مكان للدفاع عن الإسلام وديار الإسلام. واليهود فرضوا علينا الحرب ضدهم ولم نبدأها نحن ولنا أن نستعين بمن يريد مساعدتنا بعد الله.

ربما سعد الرسول القائد ﷺ بإنسحاب ثلث القوة التي تحركت لملاقاة قريش عند أُحد بقيادة عبد الله بن أبي (حوالي ٣٠٠ مقاتل من ألف مقاتل) لأن الغدر والنفاق لا يليق بمن يقاتلون في سبيل الله كما ثبت الله الطائفتين اللتين كادتا أن تفشلا واستمرتا في دعم قوة المسلمين.

ولنلاحظ في كل معارك الرسول ﷺ أنه لم تحدث حرب أهلية أو داخلية بين المسلمين لخلاف على الراي وذلك لأن الله حرم قتل المسلم عمداً كما أن الرسول العظيم ﷺ لم يسمح أن يقع قتال بين المسلمين وهو حي بينهم ولأنهم يبنون قوة الدولة الإسلامية الوليدة.

إن الرسول العظيم لم يفت في عضده انسحاب ثلث القوة بقيادة عبد الله بن أُبي ولا تردد الطائفتين في الاستمرار في الاعداد للقتال ولا الهزيمة التي سببتها مخالفة الرماة لأوامره واستمر صامداً صموداً لا يهتز ولا يلين حتى حقق الله له النصر.

المعنويات
في غزوة أحد وعدم قتل النساء

في معركة أُحد التقى ثلاثة آلاف من قريش من أهل مكة كلهم موتور من يوم بدر وكلهم على ثأره حريص خاصة النساء وعلى رأسهم هند بنت عتبه زوج أبي سفيان قائد المشركين والتي كانت تحرض رجالها على القتال والثأر وكانت تقاتل كذلك قدر استطاعتها بين صفوف الموتورين.

كان هدف قريش الأول هو الانتقام لقتلى بدر وهزيمة المسلمين إن استطاعوا وكسر شوكتهم وكان هدف المسلمين على الجانب الآخر وهم ٧٠٠ مقاتل أي حوالي ربع عدد المشركين ولنلاحظ هنا أن النسبة أقل منها في بدر حيث كان المسلمون حوالي ثلث المشركين ولكن الدفاع عن المدينة الوطن وعن العقيدة يزيد المسلمين قوة إلى قوتهم.

كان الرسول ﷺ يُحرض رجاله رغم حماسهم وإيمانهم العميق بالله وبرسوله وكان من التحريض أن أعطى سيفه لأبي دجانة بحقه وهو أن يضرب به العدو حتى ينحني وكم يؤجج إعطاء القائد لسيفه لأحد جنوده من حماس هذا الجندي ورفاقه.

كان الرسول القائد ﷺ يربي الصحابة على القتال دفاعاً عن العقيدة عقيدة التوحيد ويعلمهم مبادئ الأخلاق الإسلامية الرفيعة فها هو أبو دجانة وقد وقعت هند بنت عتبه تحت قبضته ولكنه رفض أن يقتلها بسيف خاتم الأنبياء ﷺ ونزه السيف الشريف عن قتل امرأة من غلاة المشركين والتي تآمرت لاغتيال عم المصطفى ﷺ حمزة بن عبد المطلب في هذه الغزوة.

وعلى كل مسلم مقاتل أن ينزه سيفه عن قتل النساء والأطفال مثلما فعل أبو دجانة ونزه سيف رسول الله ﷺ عن ذلك.

وإذا كان أبو دجانة الصحابي البطل جندي من جنود الرسول ﷺ قد رفض قتل هند بنت عتبه فإنه على الجانب الآخر قد أغتال وحشي الحبشي قاتل حمزة عم الرسول لقاء أجر هو عتق رقبته وقد قتله غدراً وغيلة وليس وجهاً لوجه كما يفعل الرجال.

قتل حمزة بن عبد المطلب الكثير من المشركين في بدر وفى أُحد عن إيمان عميق وعقيدة لا تتزعزع وطاعة لابن أخيه رسول الله وخاتم أنبيائه ﷺ.

وقتل المنافق قزمان نفسه بعد أن خرج مع المسلمين وقاتل في الصف الأول الكثير من المشركين وفى نهاية اليوم قتل نفسه واعترف انه ليس شهيداً في الإسلام ولكنه دافع عن وطنه المدينة فقط حتى لا يغزوها المكيون.

وإذا كانت نساء المشركين في هذه الغزوات قد حرضن رجالهن على القتال بالوعد بالعناق والوعيد بالفراق فإن نساء المسلمين انشغلن بحماية الجبهة الداخلية في المدينة هن وأطفالهن وغلمانهم وهو درس لكل نساء وأطفال المسلمين.

وكعادة المسلمين في كل غزوة اتخذوا كلمة تعارف في غزوة أُحد هي أمت .. أمت .. ومن المؤكد أن المصطفى ﷺ قد أقرها أو اختارها.

أحد .. نصر توسطته هزيمة المخالفة

استبسل المشركون في القتال صباح يوم أُحد لدرجة أن حملة اللواء من بني عبد الدار قتل منهم تسعة. فلما قتل أصحاب اللواء انهزم المشركون وسقط الصنم الذي احضروه ليتباركوا به من فوق الجمل كما استبسل المسلمون كل المسلمين كبار الصحابة وكل الصحابة وصال وجال علي وعمه حمزة وأبو دجانة وغيرهم.

انتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً على أربعة أو خمسة أمثالهم من المشركين صباح يوم أُحد أو في المرحلة الأولى من المعركة لقوة عقيدتهم وإيمانهم بالله وبرسوله ﷺ ولمهارة قائدهم الرسول الخاتم ﷺ الذي وضع الرماة الخمسين على الجبل وقال لهم قول القائد الخبير: "أحموا لنا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئونا من ورائنا وألزموا مكانكم لا تبرحوا منه وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم . وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدافعوا عنا. وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل".

كان الرماة الخمسون بوضعهم على جبل أُحد وبالمهمة التي حددها لهم الرسول ﷺ يساوون أكثر من ٢٠٠ من المقاتلين الآخرين لوضعهم المتميز وتفريقهم خيل المشركين. ولكن خطيئة المخالفة وفتنة الغنيمة جعلت الدائرة تدور على المسلمين ولكن الرسول القائد ﷺ بثباته وحوله كبار الصحابة حولوا المرحلة الثانية مرحلة الهزيمة إلى نصر في المرحلة الثالثة والأخيرة من معركة أحد بل ومطاردة للمشركين.

وكما يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي عن غزوة أُحد ، فإن المسلمين لو انتصروا مع المخالفة لهان عليهم أمر الرسول القائد ﷺ وتعليماته في كل ما بعد ذلك ولكن الله نبههم أن الرسول ﷺ يجب أن يطاع دائماً في كل الأمور ، وإلا منع الله النصر عنهم وكذلك إذا هان عليهم أمر الرسول ﷺ هان عليهم أمر الله الذي يقول في كتابه الكريم :

(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) [١]

ومن الواضح أن من خالف الرسول ﷺ فقد خالف الله .

---

[١] سورة النساء - الآية ٨٠

فتنة النصر والغنيمة وخطيئة المخالفة

أكد الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا وأن أموالنا وأولادنا فتنة وهو الذي خلق البشر ويعرف طبائعهم.

في المرحلة الأولى من غزوة أُحد أنتصر المسلمون انتصاراً معجزاً ، المسلمون يهزمون المشركين وهم أربعة أمثال أو خمسة أمثال المسلمين ويدخلون معسكرهم ولكن إغراء الغنيمة فتن المسلمين الذي أدار النصر رؤوسهم وعطل تفكيرهم ونسوا الهدف الذي قاتلوا من أجله وهو الدفاع عن العقيدة والوطن والمشركون هناك لم يبرحوا مكان المعركة وإن كانوا قد هزموا.
إذن تعجل المسلمون إنهاء المعركة ولم يسألوا الرسول قائدهم ﷺ هل يستمرون أم يجمعون الغنائم وإنما انهمكوا في جمع الغنائم والأسلاب.

وغالبية الرماة الذين سال لعابهم للغنائم وانطلقوا يجمعون مع الجامعين وخالفوا أمر أميرهم عبد الله بن جبير والقلة التي ثبتت معه والذين قالوا للمخالفين: "ألم يقل رسول الله ﷺ لا تبرحوا مكانكم. وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا" .
ولكن قائد فرسان مكة خالد بن الوليد أجلى القلة الباقية من الرماة عن مكانهم وشدّ المشركون على المسلمين المضطربين الذين تشتت جمعهم بسبب مخالفة الرسول القائد ﷺ وبسبب انهماكهم في طلب الدنيا والغنائم.

والرسول القائد ﷺ وافق على رأي الأغلبية بالخروج لملاقاة المشركين رغم عدم رغبته في ذلك لكنه أعد العدة وأعد الخطة وسوى الصفوف وحدد لكل واحد من المسلمين مهمته وشدد على الالتزام بها.

درس لكل المسلمين إلي يوم الدين أن من يخالف الرسول ﷺ في أمر أكد عليه وشدد عليه فلا يلومن إلا نفسه ودرس للعسكريين المسلمين أن حساب المكاسب أو الخسائر لا يكون إلاّ بعد إتمام المهمة والتي غالباً ما تكون رد العدوان والدفاع عن الوطن والعقيدة.

ثبات الرسول القائد ﷺ وتأمينه

عندما اندفع المسلمون المنتصرون يجمعون الغنائم وترك الرماة أماكنهم إلا قليلاً أزاحهم خالد بن الوليد بُعد ذلك. وقعت حالة من الفوضى استخدمت فيها كل الأسلحة وكان أكثرها الحجارة وما أكثر الحجارة والحصى في منطقة أحد.

وفى حالة الفوضى هذه اندفع كثير من المشركين يبحثون عن النبي ﷺ لينالوا شرف قتله كما توهموا وتخليص معاقل الشرك منه غير أن المسلمين القريبين من رسول الله ﷺ وقفوا حوله سدا منيعاً يحمون الرسول القائد ﷺ بأجسادهم وسيوفهم ومنهم أبو دجانة وأم عمارة الأنصارية التي كانت تسقي الماء وحملت السيف دفاعاً عن رسولها ﷺ وقائدها وحامى حمى المدينة.

وعندما أصيب النبي الخاتم ﷺ في وجهه من حجر رماه عتبة بن أبي وقاص تحرك المحيطون به لينجوا بعيداً عن مرمى الحجارة فوقع في حفرة حفرها أبو عامر.

لم تمنع إصابة النبي القائد ﷺ والدم ينزف من وجهه الشريف من استمراره بالرمي عن قوسه حتى تحطم فأخذ يناول سعد بن أبي وقاص النبل ويقول له أرم فداك أبي وأمي.

رغم إصابته عليه الصلاة والسلام ظل في ميدان المعركة يقاتل ومن حوله لمنع الهزيمة والكارثة عن المسلمين وعندما سرت إشاعة قتل النبي ﷺ أيدها النبي ﷺ حماية للمسلمين من الانهيار واستجماعاً للقوة التي تفككت باستمراره بينهم ومنع المشركين من البحث عنه لقتله.

إن وجود القائد المسلم بين مقاتليه رجالاً ونساء هو الضمان الأكيد للإستماته في الدفاع عن العقيدة وعن الوطن ولو كان هناك قائد آخر غير الرسول ﷺ لأخذوه بعيداً عن ميدان المعركة ليداووا جراحه ولكنه بقى بينهم يقاتل ويجمع المقاتلين من حوله.

كان النصر في الصباح وعند الظهر كان المسلمون يصلون الظهر قاعدين خلف الرسول القائد ﷺ المصاب والذي أسعفه أبو عبيدة بنزع حلقتي المغفر من وجهه الكريم ﷺ وساعده علي بن أبي طالب في غسل وجه المصطفى ﷺ ورأسه واستعادة نشاطه.

لم يترك المسلمون الصلاة لأي سبب أو يؤجلوها عملاً بأمر الله بالثبات عند اللقاء وذكر الله كثيراً حيث يقول الحق سبحانه وتعالى
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ)[1]

كان انفصال القوتين عن بعضهما انفصالاً آمناً وكريماً للمسلمين الذي قاتلوا بعناد ومعهم الرسول القائد ﷺ لتأمين التخلص من معركة تبدو الخسارة فيها واضحة.

يمكننا القول أن غزوة أُحد لم تكن من بدايتها تسير على رغبة الرسول ﷺ وتخطيطه إذ فضلوا الخروج لملاقاة قريش ووافقهم ﷺ وخالفه الرماة وانكب المسلمون على الغنائم وإصابتهم فتنتها وكان حصيلة كل ذلك أن أصيب القائد ولكنه صمد وخرج بقواته سالمة قدر الإمكان من المعركة.

[1] سورة الأنفال ـ الآية ٤٥

المسلمون لا يشوهون جثث أعدائهم

لما تفقد الرسول القائد ﷺ ميدان المعركة بعد انحسار القتال ورأى جثة عمه حمزة بن عبد المطلب وقد فُتحت بطنه ونُزعت كبده حزن ﷺ أشد الحزن وقال: "لن أصاب بمثلك أبداً ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلي من هذا".

ثم قال ﷺ : "والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب" ولكنه ﷺ عفا بعد ذلك وصبر ونهى عن التمثيل بجثث قتلى الأعداء وليكون قدوة لكل قائد مسلم وذلك عملاً بقوله تعالى

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ۝ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ۝) [1]

وعلى الجانب الآخر نزلت هند إلى جثث القتلى المسلمين تمثل بها وتمزقها وبدأت بجثة حمزة عم الرسول ﷺ وحاولت مضغ كبده وانطلقت هي والمشركون والمشركات يقطعن آذان وأنوف جثث المسلمين صانعة منها قلائد وأقراطاً.

وفعل زوجها أبو سفيان فعلة زوجته وهو قائد المشركين يومئذ قائلاً: "والله ما رضيتِ وما سخطت وما نهيت وما أمرت".
كان التمثيل بجثث الأعداء بعض عادات العرب في الجاهلية ولكن الرسول القائد ﷺ المسلم الأول نهى عنه بأمر ربه كما جاء في آيتي سورة النحل.

وصلى النبي عليه السلام على قتلى المسلمين ودفنهم مكان مصارعهم كما صلت النساء كذلك على الشهداء مثلما فعلت السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ عندما صلت على أخيها سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب.

---

[1] سورة النحل ـ الآيتين ١٢٦ ـ ١٢٧

المرحلة الثالثة واسترداد الهيبة

وقبل أن تجف دماء الرسول القائد ﷺ التي سالت من وجهه وأسنانه يوم أُحد وقبل أن يهدأ الندم على مخالفة أوامر رسول الله ﷺ وترك الرماة لأماكنهم والجري وراء الغنائم وقبل أن يهدأ الحزن والغضب على قتلى المسلمين والتمثيل بأجسادهم الطاهرة خاصة جسد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب.

أذن مؤذن النبي ﷺ في المسلمين بطلب العدو واستنفرهم وحشدهم لمطاردة ذلك العدو الموتور وذلك في اليوم التالي مباشرة ليوم أُحد وكان يوم ١٦ شوال ٣ هـ وطلب ﷺ ألا يخرج معه إلا الذين حضروا الغزوة ليثأروا بأنفسهم من قريش لهزيمة لم يكونوا يستحقونها.

وصل الرسول القائد ﷺ إلى صحراء الأسد على بعد حوالي ٢٠ كم من المدينة وجراحه لم تندمل لا هو ولا المسلمين الذين معه ممن أصيبوا ولكنه أراد أن يندمل أولاً جرح هيبة المسلمين الذي نزف بالأمس في أُحد.

ظل الرسول القائد ﷺ في صحراء الأسد يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتالية باعثاً بإشارات لأبي سفيان بالعودة للمسلمين إن أستطاع ولكنه لم يعد.

ربما استرجع الرسول القائد ﷺ في هذه الأيام الثلاثة مع صحابته ما حدث في أُحد وما هو السبيل لعدم تكراره وبعد الأيام الثلاثة ربما عادوا إلى المدينة وقد اندملت جراحهم البدنية والنفسية وهم أشد إيماناً بالله وبرسوله قائدهم ﷺ ولله وللرسول ﷺ كلّ الطاعة والرضا.

لقد كانت غزوة أُحد بحق غزوة العفو والصبر لقد عفا الرسول الكريم ﷺ عمن أجبروه على الخروج خارج المدينة لملاقاة المشركين وعفا ﷺ عمن خالفوه من الرماة بترك أماكنهم رغم تحذيره لهم وعفا ﷺ عمن جروا وراء الغنائم وتركوا مطاردة المشركين المهزومين.

وصبر ﷺ على الأذى والجروح التي أصابته والحفرة التي وقع فيها وشكر ﷺ لله ولمن دافعوا عنه باستماتة رجالاً ونساء لقد كان عفو المصطفى ﷺ عمن خالفوه مشروطاً بعدم العودة إلى مخالفة رسول الله ﷺ.

أخذ الرسول القائد ﷺ المسلمين ثلاثة أيام إلى صحراء الأسد لينفخ فيهم من روحه ويعيد شحن إيمانهم وثقتهم بالله وبأنفسهم ويرفع من شأنهم أمام أهليهم وذويهم في المدينة وأمام نسائهم وأطفالهم.

ومن المؤكد أن الرسول القائد ﷺ قد عرف الذين خالفوا أمره من الرماة فرداً فرداً وكان يمكنه أن يعاقبهم على مخالفة أمره وما سببوه للمسلمين من هزيمة وله شخصياً من إصابة بسبب هذه الهزيمة التي كان يمكن تفاديها لو أنهم ثبتوا في أماكنهم وأطاعوا الرسول القائد ﷺ كما أمرهم الله بذلك.

سرية أبي سلمة ابن عبد الأسد

دفع الرسول القائد ﷺ بعد حوالي شهرين من غزوة أُحد - المحرم ٤ هـ - لسرية قوامها ١٥٠ رجلاً معظمهم ممن شهد أحد وعلى رأسهم أبو سلمة بن عبد الأسد الذي أصيب في غزوة أُحد ولم يندمل جرحه بعد ومنهم أبو عبيدة بن الجراح الذي نزع الحديد من وجنتي الرسول ﷺ وسعد بن أبي وقاص الذي كان النبي ﷺ يناوله النبل عندما ثبتوا في أحد بعد الهزيمة.

هذان الرجلان أبو عبيدة وسعد سيصبحان قائدين من قادة النبي ﷺ لفتح العراق والشام بعد ذلك في عهد الخلفاء الراشدين.

دفع الرسول ﷺ بالسرية لإحباط نية هجوم طليحة وسلمة ابني خويلد قائدي بني أسد وأحبطا نيتهما في تهديد المدينة وأخذ الغنائم منها.

كان الغرض من السرية إحباط الهجوم ولتحقيق هذا الهدف دون قتال حققت السرية المفاجأة على بني أسد فشتتت شملهم وغنمت منهم واخذ المقاتلون الذين كانوا مثخنين من غزوة أُحد أربعة أخماس الغنائم وحجزوا الخمس لله ولرسوله ﷺ والمساكين وأبناء السبيل.

وهكذا وعلى عادة النبي ﷺ .. كان يسعى لتحقيق أهدافه بالردع ودون قتال قدر المستطاع لأن الذين يقاتلهم قد يصبحون مسلمين يوماً ما.

بهذه السرية وفي هذا التوقيت بالذات استطاع الرسول القائد ﷺ أن يخرس أصوات الشامتين من أهل المدينة لما حدث للمسلمين في أُحد من هزيمة لم يكونوا يستحقونها.

الغدر يوم الرجيع

جاء وفد من قبيلة تجاور بني لحيان من هذيل بعد مقتل خالد بن سفيان الهذلي على يد سرية عبد الله بن أنيس يطلبون من الرسول ﷺ في المدينة إرسال مجموعة من الصحابة معهم لتعلمهم الإسلام وتعرفهم شرائعه ويقرأونهم القرآن.

ويستجيب الرسول ﷺ لهم ويرسل معهم وفداً من ستة من كبار الصحابة فيهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي الذي تبادل مع الرسول القائد ﷺ وعلي بن أبي طالب ركوب البعير عند التحرك من المدينة إلى بدر في رمضان سنة ٢ هـ.

والرجيع تقع هناك جنوب مكة بينها وبين الطائف أي أنها على بعد حوالي ٥٠٠ كم جنوب المدينة وعندها غدر المرافقون ممن ادعوا الإسلام واحاطواهم وهذيل بوفد الصحابة فقاتلهم الصحابة واستشهد منهم ثلاثة ثم قتل صحابي آخر حاول النجاة منهم.

وبيع زيد بن الدثنة لصفوان بن أمية الذي أمر مولاه نسطاس فقتله بدم بارد كما يقال وقتل كذلك خبيب وشاهد أبو سفيان ذلك وعجب لتعلق الصحابة برسولهم الكريم ﷺ ولم تمنعه أي فضيلة من فضائل الشرك إن كان للشرك فضيلة من الموافقة على قتل المسلمين غدراً وبلا ذنب.

هل يقبل أحد في العصر الحديث عصر حقوق الإنسان أن يقتل الدعاة إلى الله أو إلى أي دين غدراً بهذه الطريقة وهل يلوم عاقل الرسول الخاتم ﷺ إذا ما عمل على ردع هذه القبائل وتخليصها من الشرك ومن أسوأ خصال الجاهلية وهو الغدر.

لم يمنع ما حدث لأهل الرجيع الرسول ﷺ من مواصلة الدعوة إلى التوحيد ومواصلة ردع القبائل التي تحاول الاستعداد لمهاجمة المدينة معقل الإسلام في ذلك الوقت ولم يمنع الرسول ﷺ من إرسال الصحابة إلى كل مكان للدعوة في الجزيرة العربية.

يتباكى المستشرقون لمقتل أسيري بدر اللذين يعتبران كمجرمي حرب آذوا المسلمين على مدى ١٣ عاماً في مكة قبل الهجرة وتجاهلوا قيام المشركين بخطف اثنين من الصحابة وقتلهما غدراً كما قتلوا أربعة قبلهم كانوا جميعاً في مهمة سلمية ليس فيها قتال أو غزو.

يوم بئر معونـــة

بعث الرسول الكريم ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في أربعين رجلاً من خيار المسلمين – بناء على طلب أبو براء عامر بن مالك - بعد تردد إلى أهل نجد ليعلموهم الإسلام ونزلوا بئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم بالقرب من المدينة المنورة.

أحاط عامر بن الطفيل وأعوانه بالمسلمين الأربعين وقاتلوهم حتى قتلوا ٣٨ رجلاً من الأربعين ونجا كعب بن زيد وعمرو بن أمية الذي عاد إلى المدينة وقتل رجلين في الطريق كانا في جوار رسول الله ﷺ.

إذا كان الرسول العظيم ﷺ قد حزن حزناً شديداً لمقتل ٣٨ من الصحابة دفعة واحدة ودعا الله صاحب الأمر والنهي أن ينتقم لمقتل شهداء المسلمين فإنه قد دفع دية اثنين قتلهما عمرو بن أمية بطريق الخطأ عملاً بأوامر الله ووفاء بعهد الجوار.

أباد المشركون ٣٨ مسلماً كانوا ذاهبين للدعوة لله هؤلاء الشهداء أكثر بقليل من نصف شهداء غزوة أحد السبعين الذين قتلوا في قتال بين ٧٠٠ مسلم بقيادة الرسول القائد ﷺ وأكثر من ٣٠٠٠ من مشركي قريش في هذه الغزوة ولم يعلق أحد من الحاقدين على الإسلام على هذه الإبادة لقوم يدعون إلى الله.

جلاء بني النضير جزاء غدرهم

منذ أن نزل الرسول القائد ﷺ بالمدينة عند الهجرة إليها وشرفها بمقدمه والمسلمون يزدادون عدداً وعدةً وعلى الجانب الآخر يزداد المنافقون وتزداد كراهية اليهود للرسول ﷺ وللرسالة وإن أبدوا تجاوباً مع الرسول ﷺ ومعاهداته معهم.

في العام الرابع للهجرة صار الرسول ﷺ هو صاحب الكلمة العليا في المدينة وصاحب السلطة الدينية والدنيوية يعقد المعاهدات ويحكم بين الناس بما أراه الله .. كل ذلك رغم ما وقع في أحد من هزيمة أو مخالفة لأمره ﷺ وما وقع بالرجيع وبئر معونة اللذين قتل فيها حوالي ٤٤ من خيرة المسلمين.

ذهب الرسول القائد ﷺ يزور بني النضير في حيهم جنوب شرق مسجد الرسول ﷺ بالقرب من قباء وذهب معه عشرة من كبار وزرائه والصحابة أبو بكر وعمر وعلي وغيرهم.

كان من الواجب على يهود بني النضير عندما يزورهم حاكم المدينة المنورة وخاتم النبيين ﷺ أن يقدروا له هذا الجميل وأن يستمروا في مسالمته لكنهم تآمروا عليه ﷺ لقتله وهو بينهم وربما أخبره الله بذلك أو هو استنتج ذلك من سلوكهم وحركاتهم وتهامسهم مع بعضهم البعض.

لو فعل أحد ذلك الآن وتآمر على ملك الدولة أو رئيسها لفعل بهم الملك أو الرئيس الأفاعيل وأقام لهم المشانق والمحاكم ولكن المصطفى ﷺ كان رحيماً بهم فقرر أن يجليهم عن المدينة المنورة جزاء غدرهم وليكونوا عبرة لأهلهم من قبائل اليهود بأن محمداً ﷺ لن يترك يهوداً بالمدينة يتآمرون عليه لقتله والقضاء على دعوة الإسلام وهم مقرونون بأنهم قتلة الأنبياء قبل الرسول الخاتم ﷺ.

قال المصطفى ﷺ لمحمد بن سلمة اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي (معناها لا مكان لليهود في المدينة المنورة) لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي. لقد أجلتكم عشراً. فمن رُؤيى بعد ذلك ضُربت عنقه.

لم يغادر بنو النضير ديارهم خلال المهلة التي حددها الرسول القائد ﷺ فكان لابد للمسلمين من حصارهم وقتالهم مضيقين الحصار حلقة فحلقة وفى كل حلقة كان

اليهود يخربون ديارهم وأمر الرسول ﷺ رجاله بقطع نخيل اليهود وحرقه حتى لا يتعلقوا بالأرض كما أمره الله بذلك في سورة الحشر:

(مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) [1]

سمح لهم الرسول القائد ﷺ بالمغادرة عندما يئسوا من الدفاع عن ديارهم وسمح لكل ثلاثة منهم ببعير يحملون عليه ما شاءوا وتركوا أرضهم لمهاجري المسلمين ليزرعوها هم وأبو دجانة وسهل بن حنيف وتركوا ٥٠ درعاً و ٣٤٠ سيفاً.

بجلاء بني النضير تفادى الرسول ﷺ أي حرب أهلية تقع في المدينة مع اليهود أو المنافقين إذا غزى المدينة غازي وفى جلاء بني النضير نزلت الآيات:

(أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝) [2]

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي لقد قبل الرسول القائد ﷺ من المسلمين من قطع منهم نخيلاً ومن لم يقطع ورفع عن المسلمين الحرج بإذن الله ويقول قد أجاز بعض العلماء استناداً إلى ما حدث مع بني النصير والآية

(مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) [3]

أنه يجوز هدم حصون الأعداء وتدميرها ولا يعتبر قطع نخيل الأعداء أو هدم حصون الأعداء تدميراً للبيئة أو تخريباً.

---

[1] سورة الحشر - الآية ٥

[2] سورة الحشر - الآيات ١١ - ١٢ - ١٣

[3] سورة الحشر - الآية ٥

بدر الآخرة .. ردع أو نصر بلا قتال

كان للمسلمين مناؤون أربعة في الجزيرة العربية وما حولها المجموعة الأولى كانت قريش بقيادة أبي سفيان اعتباراً من غزوة أحد حتى الفتح الأعظم لمكة هذه المجموعة هي أهم المجموعات وأخطرها وهى التي أخرجت الرسول ﷺ إلى المدينة.

المجموعة الثانية هم اليهود في المدينة وشمالها وهى مجموعة محصنة في بيوتها وأرضها ومسلحة جيداً واشتهرت بنقض العهود وعدم الاعتراف بالديانة الجديدة الإسلام.

والمجموعة الثالثة هي مجموعة القبائل العربية المحيطة بالمدينة وشمالها والمنتشرة بينها وبين مكة وجنوبها.

والمجموعة الرابعة هي الروم شمال الجزيرة العربية وأقرب القوى غير العربية للمدينة المنورة.

رفض الرسول القائد ﷺ رسالة التهديد للمسلمين والتي بعث بها أبو سفيان مع نعيم قائلاً إن قريشاً جمعت جيشاً لا قبل لجيش في العرب لمواجهته لتحارب المسلمين وتقضي عليهم في معركة في بدر كما توعد أبو سفيان المسلمين في أحد بمقابلتهم بعد عام للقضاء عليهم تماماً.

وخرج الرسول ﷺ إلى بدر ومن خلفه المسلمون في شعبان ٤ هـ ينتظرون أبا سفيان وجيشه الذي بلغ ٢٠٠٠ من الرجال وطال الانتظار إلى ثمانية أيام متتالية في بدر ينتظرون ولم يصل أبو سفيان وجيشه فعاد المسلمون بتجارة رابحة من بدر عادوا وقد أظهروا من القوة والاستعداد ما ردع قريش عن قتالهم وحققوا هيبة إضافية في الجزيرة العربية دون أن تراق قطرة دم واحدة من أي من الفريقين.

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

(الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ

يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۞ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞)[1]

المؤمنون إذن لا يخافون إلا من الله وإذا هددهم الآخرون فإن إيمانهم يزداد وينعم عليهم بفضله العظيم ونعمه المادية والمعنوية بالأموال والهيبة .

حقق الرسول القائد ﷺ بخروجه والمسلمين لبدر مرة أخرى نصراً بغير قتال وردعاً لقريش وغيرها من خصومه وربحاً مادياً حلالاً من التجارة لمسلمي المدينة.

[1] سوة آل عمران الآيات ١٦٨ إلى ١٧٥

غزوتا ذات الرقاع ودومة الجندل
ردع وتأمين

في المحرم ٥ هـ قطع الرسول القائد ﷺ حوالي ٢٠٠ كم للوصول إلى ذات الرقاع شمال المدينة ومعه ﷺ ٤٠٠ من رجال المسلمين لإحباط هجوم كانت تعده بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان ونجح في إحباط الهجوم وتفريق حشد غطفان والعودة بالغنائم بعد غياب ١٥ يوماً عن المدينة المنورة.

وفى ربيع الأول ٥ هـ أعاد المصطفى ﷺ الكرة وقطع مسافة حوالي ٦٠٠ كم للوصول إلى دومة الجندل - واحة على حدود الشام والحجاز - وفرق القبائل التي كانت تغير على القوافل وعاد المسلمون غانمين دون قتال وقد تحقق لهم المزيد من الهيبة في الجزيرة العربية.

في كلتا الغزوتين مرّ الرسول القائد ﷺ والمسلمون بالقرب من خيبر وفدك وذي قرد وتيماء وسمعت القبائل واليهود وربما سمعت بجيش المسلمين ذهاباً وعودة مما سبب لها الخوف وأقعدها عن الاستعداد أو الهجوم على المدينة.

وهكذا ينتصر الرسول القائد ﷺ على أعداء الإسلام دون قتال وينتصر عليهم بالرعب كما قال هو عن نفسه.

وربما سمعت الروم التي تجاور حدود الحجاز الشمالية بجيش محمد ﷺ يذهب ويعود منتصراً محملاً بالغنائم مما يردعهم عن مهاجمته ومما يمكن الرسول القائد ﷺ من الدعوة للتوحيد بحرية وأمان.

الارتباط بين غزوتي الخندق وبني قريظة وإجلاء بني النضير

ازدادت كراهية اليهود للإسلام ونبي الإسلام ﷺ خاصة بعد إخراج بني قينقاع من جنوب المدينة وإجلاء جيرانهم يهود بني النضير من المدينة كذلك وأصبح بنو قريظة يعدون العدة لهزيمة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم في المدينة قبل أن يخرجهم الرسول القائد ﷺ من المدينة كذلك.

واليهود يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم ولكن الكراهية تأصلت في نفوسهم لنبي الإسلام الذي يدعو إلى التوحيد مثلهم ولكن بأفضل الرسالات وأتمها وخاتمتها مما سيقضي على عقيدتهم وقوميتهم.

أخذ قادة بني النضير في تأليب العرب المشركين على الرسول القائد ﷺ وقصدوا لذلك أكبر قوة مناوئة للإسلام وهم مشركي قريش والقبائل الموتورة والتي تستعد دائماً للانتقام من المسلمين.

عندما ذهب حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق إلى قريش بمكة ووصفوا لهم موقف اليهود بالمدينة واستعدادهم للمشاركة في القضاء على المسلمين قائلين إن بني النضير هناك بين المدينة وخيبر مستعدون وبنو قريظة بجنوب المدينة في ديارهم يتربصون بمحمد ﷺ ورجاله ويستعدون للاشتراك في القتال ضد المسلمين.

وعندما سألت قريش اليهود عن رأيهم في الإسلام قال اليهود إنهم يفضلون وثنية قريش على الإسلام ولا يعتبرون ذلك كفراً من اليهود بدينهم وبما جاء به موسى من التوحيد.

يقول الحق سبحانه وتعالى

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ۝ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا) [1]

---

[1] سورة النساء - الآيتين ٥١ - ٥٢

ولمْ يكتف اليهود بتأليب قريش واستنفارها لمحاربة المسلمين بل ذهبوا إلى غطفان من قيس عيلان ومن بني مرة ومن بني فزارة ومن أشجع ومن سليم ومن بني سعد ومن أسد ومن كل من لهم عند المسلمين ثأر.
كانت قوات أعداء المسلمين التي وصلت بحشدها شمال المدينة المنورة عند أُحد وتستعد للهجوم عليها واقتحامها واستئصال المسلمين :
قريش: ٤٠٠٠ مشاة ـ ٣٠٠ فارس ـ ١٥٠٠ بعير بقيادة عثمان بن طلحة الذي قُتل أبوه في أُحد.
بنو فزارة: ألوف المشاة ـ ١٠٠٠ بعير بقيادة عيينة بن حصن بن حذيفة.
أشجع: ٤٠٠ مقاتل بقيادة مسعر بن رخيلة.
مرة: ٤٠٠ مقاتل بقيادة الحارث بن عوف.
سليم: ٧٠٠ مقاتل من رجال بئر معونة.
بنو سعد وأسد: مئات من المقاتلين.
إجمالي الأحزاب حوالي ١٠ آلاف رجل والقائد العام أبو سفيان.

كان هذا الحشد الضخم لمحاربة المسلمين والقضاء عليهم بسبب تأليب يهود بني النضير وبني قريظة الذي بقوا في المدينة في جنوبها ينتظرون اللحظة المناسبة لنقض العهد مع الرسول ﷺ وطعن المسلمين من خلفهم وفى قلبهم .

فزع المسلمون من حشد لم تر الجزيرة العربية مثله من قبل ولم يكن لدى المسلمين قدرة على حشد قوات بمثل هذا الحجم الكبير لكن الخندق حجز المشركين شماله وقد أسقط في أيديهم لما فوجئوا بالخندق أمامهم.

الخندق

كعادته دائماً في استشارة أصحابه في أمور الحياة والدفاع ما لم يأت أمر من الله.. استمع الرسول القائد ﷺ الذي يحارب قريش والقبائل الأخرى واليهود منذ ثلاث سنوات منذ بدر رمضان ٢ هـ إلى شوال ٥ هـ .. استمع إلى نصيحة سلمان الفارسي بحفر خندق أمام حشود الأحزاب يصل بين كتفي مضيق مفتوح لقلب المدينة ليصل الخندق بين حرة المدينة اللابة الشرقية وحرة الوبرة اللابة الغربية بطول حوالي ٥,٥ كم وعرض حوالي ٥م وعمق حوالي ٣,٢ م وتم الحفر في ستة أيام.

أُخليت المساكن خلف الخندق مباشرة وجنوبه وحُصنت .. وجيء بالنساء والأطفال لاحتلال المنازل التالية وكومت الأحجار بجوارهم لتكون سلاحاً لهم وحماية لظهر المقاتلين المسلمين.

اشترك الرسول القائد ﷺ في حفر الخندق بيديه الشريفتين وكم من قائد الآن يعمل أي شيء بيديه مع جنوده إن القادة الآن ومنذ أن أصبح القتال بالأسلحة النارية والمدفعية والطائرات أصبحوا يقبعون هناك بعيداً في العمق بعيداً عن نيران الأعداء.

قسم المصطفى ﷺ المسلمين مجموعات صغيرة وأعطى لكل مجموعة مسافة محددة وتوقيت محدد حتى أنهم أتموا الحفر في ستة أيام فقط قبل وصول العدو الذي فوجئ بالخندق كسلاح جديد في المعركة وكما يعلم العسكريون فإن المفاجأة قد تتم في مكان أو زمان لا يتوقعه العدو أو سلاح وأسلوب للقتال جديد عليه تماماً.

نصبت للرسول الكريم ﷺ خيمته الحمراء مركز قيادته في حضن جبل سلع الشرقي كعادته أيضاً في تحديد مركز قيادة له عليه السلام كما فعل في بدر وحتى هذه الغزوة وفى كل الغزوات وهناك لم ينس الهدف من الدعوة والهدف من المعركة وهو تأمين حرية العقيدة والدعوة إلى التوحيد فبنى هناك بجوار مركز قيادته مسجد الفتح.
وبالخندق أصبحت المعركة شبه متوقفة لا حركة فيها ولا كرّ ولا فرّ وإنما بتراشق بالنبال لعدة أيام.

كان المسلمون حوالي ٣٠٠٠ مقاتل أي ثلث قوة الأحزاب فقط أو ربع قوة الأحزاب وبني قريظة القابعين هناك في ظهر المسلمين ولكن المسلمين رغم الظروف

الصعبة كانوا أكثر بقوة عقيدتهم وبقيادتهم القوية الواحدة وباستماتتهم في الدفاع عن وطنهم المدينة المنورة كان المسلمون بين طرفي كماشة الأحزاب المشركين واليهود في معركة فاصلة.

الخندق
غزوة الأحزاب
(شوال ٥ هـ)
﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾
(الأحزاب ٣٣/١٠)
أَبْعَادُ الخندقِ :
طوله : ٥٥٤٤ م
متوسط عرضه : ٤.٦٢ م
متوسط عمقه : ٣.٢٣٤ م
مع ملاحظة أن تراب الخندق شكّل ساتراً مرتفعاً من جهة المدينة
الأحـــزاب
مجمع الأسيال
قريش
غطفان
سُلَيم
كنانة
فزارة
أَشجع
بنو أسد
بنومُرَّة
الخنـــدق
حرة المدينة ـ حرة واقم
(اللابة الشرقية)
صخور بركانية
حرة الوبرة
بنو حارثة
المذاد
النبيت
بنو عبد الأشهل
وزغوراء
بنو ظفر
بنو الحارث بن الخزرج
السَّنْحُ
الوداع
قيادة المسلمين
مسجد رسول الله
مسجد الفتح
بنو النجار
البقيع

يهودي من المطرودين يؤلب بني قريظة

بفضل الله وبفضل قيادة الرسول القائد ﷺ ومشورة أصحابه وحفر الخندق الجديد تماماً على العرب وبفضل اختيار التوقيت السيئ للهجوم على المدينة في شتاء قارص البرودة وبفضل تحصين المدينة واستعداد المسلمين القوى للدفاع عن المدينة ومنع الأحزاب من اجتياز الخندق واقتحام المدينة على أهلها.

بدأ الوهن يدبُ في قلوب الأحزاب وقائدهم المتردد دائماً أبي سفيان وبدأت بوادر فشل هجوم هذا الحشد الضخم على المسلمين ومدينتهم بسبب الخندق والشتاء القارص.

ولكن حيي بن أخطب من بني النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة والذي دفع كل هذه الأحزاب للاحتشاد لمهاجمة المسلمين والانتقام من الرسول القائد ﷺ ورجاله بدأ يفكر في إقناع بني قريظة بقطع الإمداد عن المسلمين ونقض العهد معهم بل ومقاتلة المسلمين ليطبق الجميع على الرسول ﷺ ورجاله ونجح في إقناع كعب بن أسد صاحب عهد بني قريظة في نقض هذا العهد مع الرسول ﷺ.

بعث الرسول العظيم ﷺ بسفرائه إلى كعب بن أسد ليراجعوه وهم سعد بن معاذ سيد الأوس حليف بني قريظة وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير وحذرهم سعد بن معاذ حليفهم من مغبة نقض هذا العهد مع رسول الله ﷺ فقال كعب: من رسول الله!؟ لا عهد بيننا وبين محمد .. هكذا ببساطة ينكر كل شيء.

اليهود هؤلاء عندما تغريهم القوة ينقضون العهود ولا يتوقعون أن تدور الدائرة عليهم وغالباً ما دارت وتدور عليهم. كعب هذا عندما كلمه حيي بن أخطب في نقض عهد رسول الله ﷺ في البداية تردد كعب ذاكراً وفاء محمد وصدقه لعهده ولكنه عاد وأنكر كل ما يعرفه عن محمد ﷺ.

ربما فكر الرسول العظيم ﷺ في ذلك اليهودي من بني النضير الذين أجلاهم من المدينة حاملين ما يحتاجونه من متاع الحياة ولم يحرمهم من متاعهم أو يقتلهم جزاء تآمرهم عليه. عليه الصلاة والسلام .. وربما فكر كثيراً فيما سيفعله في بني قريظة إذا أظهره الله على الأحزاب ثم عليهم بعد ذلك.

إن الرسول الكريم ﷺ رحمة العالمين كان يمكنه إرسال من يغتال حيي بن أخطب أو كعب بن أسد لإنقاذ المدينة ولكنه لم يفعل ولكنه ترك المعركة تأخذ مجراها طبقاً لقواعد الحرب العادلة والمثالية التي بدأ يطبقها في معاركة ضد الشرك والنفاق وضد الغادرين من أهل الكتاب.

ثبات القائد والاستماتة في الدفاع

اجتمعت الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين شمال الخندق ونقضت بنو قريظة العهد بإيعاز من رجل من بني النضير الذي حشد الأحزاب أيضا وانقطع خيط الإمداد الإداري الذي كان يأتي من بني قريظة ولكن ثقة المصطفى ﷺ بربه كاملة وثقته بصحابته المؤمنين موفورة.

فها هو علي بن أبي طالب يقتل عمرو بن عبد ودّ الذي حاول أن يقتحم الخندق هو وآخرون ويقوم بسد الثغرة التي نفذ منها القتيل عمرو بن عبد ودّ.

إن الخندق كمانع دفاعي يحمي المدافعين وقد كان المسلمون رغم ما يرونه ويسمعونه من تحالفات ضدهم يدافعون عن الخندق شمال المدينة وعقيدتهم ووطنهم وفي مقدمة المسلمين بعد الرسول القائد ﷺ ابن عمه علي وكبار المهاجرين والأنصار.

وإذا كان يهود بنو قريظة قد بدأوا يختبرون دفاع المسلمين داخل المدينة تمهيداً لمهاجمة المسلمين من الخلف فإن النساء قد دافعن عن أنفسهن وبيوتهن وها هي صفية بنت عبد المطلب عمة المصطفى ﷺ تقتل يهودياً حاول التسلل لحصنها .. فعلت كما فعل ابن أخيها علي بن أبي طالب عندما دافع في الشمال عن الخندق وعن دعوة الإسلام دعوة ابن عمه المصطفى ﷺ.

ربما فكر الرسول القائد ﷺ كثيراً في كيفية إفشال هذا الحشد للهجوم وإحباط نيته للهجوم ليقي المدينة من قتل المسلمين وتخريب البيوت والمزارع .. كما فكر ﷺ ودعا الله أن يهدى المشركين من أهل مكة وهم أهله للإسلام وللطريق المستقيم.

كان الرسول القائد ﷺ يعرف أن المسلم حينما يقاتل يسعى إلى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة ولكنه كان يفضل النصر بأقل التكاليف لحقن دماء المسلمين بل ودماء الطرفين لأن موضوع العقيدة هو موضوع حوار صادق واختيار حر لا تفلح معه القوة كثيراً.

ثبت الرسول القائد ﷺ أشد الثبات واستمات المسلمون في الدفاع رغم ما رأوا وما عرفوا من أن اليهود والأحزاب اتفقوا أن تقاتل الأحزاب المسلمين عشرة أيام متتالية يستعد فيها اليهود للمشاركة في الهجوم من الخلف.

يقول سبحانه وتعالى مصوراً حالة الخطر والفزع التي عاشها المسلمون قبل هزيمة الأحزاب ورحيلهم:

(إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا۞)[1]

---

[1] سورة الاحزاب ـ الآيات من ١٠ إلى ١٣

دسيسة نعيم بن مسعود

وهزيمة الأحزاب

أمام هذا الحشد الهائل من مشركي العرب في الشمال من قريش وغطفان خلف الخندق ومن يهود بني قريظة في الجنوب بل وفي قلب بيوت المدينة والفزع الذي أصاب المسلمين من احتمال قيام هؤلاء جميعاً بالهجوم عليهم في وقت واحد. لم يكن أمام الرسول القائد ﷺ إلا أن يسلك سبيلين لتفريق هذا الجمع وهزيمته والسبيل الأول هو الأخذ بالأسباب وبالحيلة.

خطط الرسول القائد ﷺ للإيقاع بين مشركي العرب واليهود أهل الكتاب المنكرين لنبوته ﷺ التي فضلوا عليها عبادة الأوثان ونفذ خطته نعيم بن مسعود الذي كان ما يزال معروفاً عنه أنه لم يسلم بعد ونجحت الخطة في وضع بذور عدم الثقة بين الفريقين المتحالفين على الإسلام وأخذ الفريقان يتساءلان عن مصير هذا التحالف غير المضمون. تحالف مادي صرف لا تربطه عقيدة بل تربطه الرغبة في الانتقام وتراجعت اليهود عن الهجوم في وقت واحد مع المشركين حيث كان يوم سبت لا يعملون فيه.

والسبيل الثاني الذي سلكه الرسول القائد ﷺ بالتوازي مع السبيل الأول هو الدعاء والاستنجاد بالقائد الأعلى الذي لا قائد فوقه ملك الكون وخالقه وله جنود السموات والأرض والمسرح مهيأ لنجدة الله الذي لا يعجزه شيء بالبرد القارص وربما الريح العاصف الذي يهدم كل شيء والمطر الذي يطفئ كل شيء والريح والمطر يثيران الفزع في البشر والدواب من خيل وأبل وغيرهما حيث يبدآن ولا يعرف أحد حينئذ متى ينتهيان.

نجح السبيلان الذين سلكهما الرسول القائد ﷺ واستجاب الله لدعائه فعصفت الريح وانهمر المطر فأطفأ نار المشركين فقط وخلع خيامهم فقط وولوا الأدبار هم فقط واستجاب المتآمرون المتحالفون لنداء الدسيسة الذي وضعه لهم نعيم بن مسعود وصمد المسلمون المقاتلون وصمدت النساء والأطفال داخل الجبهة الداخلية في المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى.

ومن العروض التي قدمها الرسول القائد ﷺ للإيقاع بين المتحالفين أن بعث يعرض على غطفان ثلث ثمار المدينة إن هم تركوا هذا التحالف ولم يشتركوا في الهجوم على المسلمين ولكن كبار الصحابة خاصة الأنصار قالوا أنهم مستعدون للقتال ولا

داعي للتنازل عن ثلث المدينة ووافقهم الرسول ﷺ قائد الشورى والديمقراطية حتى في الحرب.
كان الرسول القائد ﷺ في غزوة الأحزاب كما في كل الغزوات والسرايا التي بعثها هادئ النفس قوي الإرادة حتى في أصعب المواقف والتي جرح فيها مثل أحد وحنين كان دائماً ما يفاوض الأعداء لتفادى القتال والحصول على ما يحتاجه من حماية الإسلام والمسلمين ولكن الأعداء كثيراً ما كانوا يغترون بقوتهم ويصرون على القتال وينهزمون بإذن الله.

وإذا كان الرسول القائد ﷺ قد أمر قواته ورجاله أن يصلوا العصر على حصون بني قريظة كإجراء حاسم وسريع ضدهم فإن بعض المسلمين صلى العصر في الطريق حينما دخل وقته وآخرون صلوا العصر على حصون بني قريظة تنفيذاً حرفياً لأمر الرسول ﷺ بصلاة العصر عند الحصون ، وأقر الرسول الرحيم ﷺ هؤلاء وهؤلاء على مكان ووقت صلاتهم ، كما أقر من قطعوا بعض نخيل بني النضير ومن لم يقطعوا أقر هؤلاء وهؤلاء رحمة منه وتوسيعاً عن المسلمين في فهم الأوامر وتنفيذها طالما لم تخالف أوامره وأمر ربه.

بنو قريظة تحت الحصار
الجولة الثالثة مع اليهود

سبقت هذه الجولة غزوتا بني قينقاع وبني النضير اللذين أجلاهما الرسول القائد ﷺ من وسط المدينة وجنوبها جزاء نقضها العهود وغدرهما بالمسلمين وإيذاء رسول الله ﷺ والمسلمين كان أجلاؤهما جزاء عادلاً من رسول بعث رحمة للعالمين واليهود رغم ما هم عليه من العناد.

إن تكرار نقض العهود من اليهود جعل المسلمين لا يأمنون جانبهم فكان الجزاء هو الجلاء أما في حالة بني قريظة فإن الخطر على المسلمين وعلى المدينة كان داهماً ومصيرياً لا يحتمل التسامح أو العقوبات المخففة كما سبق مع بني قينقاع وبني النضير لأنهم تحالفوا مع أكبر قوة معادية للمسلمين في جزيرة العرب وقبلها قطعوا الإمداد الإداري عن المسلمين الذي كانوا حقيقةً واقعين بين فكي كماشة.. المشركين واليهود من بني قريظة وحيي بن أخطب النضيري الذي ألب الدنيا على المسلمين.

عندما عصفت الريح وهطل المطر وقصف الرعد ولمع البرق فوق الأحزاب واقتلعت الخيام وانكفأت القدور ودخل الرعب من كل جانب على المشركين قال أبو سفيان: يا معشر قريش. إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع والخف واخلفنا بنو قريظة وبلغنا منهم ما نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل وغادرت الأحزاب جميعاً تحت ضغط قوة جند الله الريح والمطر والرعب وبسبب ثبات وصمود الرسول ﷺ ورجاله المسلمين.

وبأوامر من الرسول القائد ﷺ أنطلق المسلمون خلف علي بن أبي طالب ليصلّوا العصر حول حصون بني قريظة أو يصلّوا في الطريق لمن أدرك الصلاة في الطريق.

واكتمل الحصار حول حصون بني قريظة وناداهم الرسول القائد ﷺ موجهاً إليهم إنذاراً بما ينتظرهم على يديه قائلاً: "يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته" ولفظ القردة تكلم به الحق في القرآن الكريم وعنه أخذ الرسول الصادق الأمين ﷺ.

صبر الرسول ﷺ عليهم وعلى إخوانهم كثيراً وكان صادقاً كل الصدق في وصفه لهم طبقاً لما نزل عليه من الوحي في القرآن من كلام الله أصدق القائلين .

طال الحصار لحصون بني قريظة ٢٥ ليلة لم يقع خلالها إلا بعض تراشق بالنبل والحجارة من الطرفين عندها شعر اليهود بأنهم واقعون لا محالة في قبضة المسلمين بعد أن تخلت عنهم أحزاب المشركين الذين حالفوهم وتركوهم لمصيرهم ورحلوا إلى ديارهم البعيدة .

عرض كعب بن أسد على قومه أن يختاروا أحد الحلول التالية :

١- أن يسلموا فيأمنوا على أنفسهم وأموالهم فرفضوا.
٢- أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويخرجوا لمقاتلة المسلمين بسيوفهم فرفضوا.
٣- أن يرضخوا لحكم خاتم الأنبياء ﷺ وتوقعوا أن يسمح لهم بالرحيل إلى أذرعات بالشام ورفض الرسول ﷺ ذلك إلا أن توافق أولاً على حكمه وأن تختار اليهود حكماً من حلفائهم الأوس واختاروا لذلك سعد بن معاذ.

رضي سعد بن معاذ بالحكم على اليهود بعد أن وافق الفريقان على الرضا بحكمه فحكم بقتل المقاتلين اليهود وتقسيم أموالهم وتؤخذ الأطفال والنساء سبايا ونفذ الحكم فيهم ذلك الحكم الذي قال فيه الرسول القائد ﷺ: "والذي نفسي بيده لقد رضي بحكمك هذا الله والمؤمنون وبه أمرت" ولم تقتل سوى امرأة يهودية واحدة قتلت مسلماً بحجر فكان قتلها قصاصاً عادلاً لجريمة ارتكبتها خارج ميدان المعركة.

حكم سعد بن معاذ وقتل يهود بني قريظة

فوجئ يهود بني قريظة بحكم سعد بن معاذ حليفهم وكانوا يتوقعون منه أن يحكم بحكم مثل حكم عبد الله بن أبيّ مع بني قينقاع ولكن سعداً فكر كثيراً ونطق بما أمر به الله ورسوله ﷺ واضعاً في الحسبان أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بني قريظة لأبيد المسلمون في المدينة ومثل بهم وقضي على الإسلام ولو أنهم نزلوا على حكم الرسول ﷺ منذ اليوم الأول لحصارهم واعترفوا بخطئهم في نقض العهد مع الرسول ﷺ لما أهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم.

ولكن العداوة والبغضاء اللتين تأصلتا في نفس حيي بن أخطب النضيري وانتقلت منه إلى نفوس بني قريظة الممتلئة أصلاً بالعداوة والبغضاء للإسلام ورسول الإسلام جعلتا سعد بن معاذ وهو حليفهم يؤمن بأنهم إن أبقى عليهم وعلى حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب من المشركين ومن إخوانهم اليهود أيضاً ليحاربوا المسلمين مرة بعد أخرى حتى يبيدوهم تماماً.

حكم سعد بن معاذ هو حكم الله ورسوله ﷺ وهو حكم عادل دفاعاً عن النفس للإسلام الوليد وللمسلمين نواة الدولة الإسلامية في المدينة.

حيي بن أخطب النضيري

قُتل حيي بن أخطب كما قُتل رجال بني قريظة وقُتل زعيم بني قريظة كعب بن أسد. قُتل حيي لأنه نقض عهد الرسول ﷺ مع بني النضير عندما أجلاهم عن المدينة ألا يقاتلوه وهو الذي دخل حصون بنو قريظة عند بدء حصارهم ودعاهم إلى قتال الرسول ﷺ والمسلمين بعد رحيل الأحزاب.

وعندما قال له الرسول ﷺ: "ألم يخزك الله يا حيي" أجاب حيي: "كل نفس ذائقة الموت ولى أجل لا أعدوه. ولا ألوم نفسي على عداوتك" مؤكداً بذلك أنه ليس من الذين قال فيهم الله (عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [1] فهو عدو للرسول وللمسلمين ما بقى حياً.

ألا يعتبر نقض اليهود لعهودهم واتفاقهم مع الرسول ﷺ والمسلمين وهو الحاكم الفعلي للمدينة المنورة والمدافع عنها كوطن للجميع ألا يعتبر ذلك جريمة خيانة عظمى أرتكبها حيي بن أخطب وكعب بن أسد وكل من حمل السلاح ضد المسلمين من يهود بني قريظة أو غيرهم من المشركين.

ورغم ذلك كانت صفية بنت حيي بن أخطب النضيرية من بين السبايا اللائى أخذ المسلمون من حصون خيبر بعد ذلك وكانت زوجاً لكنانة بن الربيع وكان قد قُتل زوجها بعد فتح حصون خيبر جراء كذبه على النبي ﷺ ولما قيل للرسول ﷺ صفية سيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك فأعتقها الرسول الكريم ﷺ وتزوجها مقتفياً بذلك أثر الفاتحين العظماء الرحماء وهو أولهم الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التي فتحوها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا كرامتهم. وأخلصت صفية للرسول الكريم ﷺ رغم قتل أبيها وزوجها في معارك المسلمين واليهود ذلك لما غمر نور الإيمان بالله وبرسوله ﷺ قلبها وروحها. ولا يمكن مقارنة هذه السيدة اليهودية التي أسلمت بزينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم زعيم خيبر اليهودية التي أرادت قتل الرسول ﷺ بشاة مسمومة بعد صلح خيبر.

---

[1] سورة الممتحنة ـ الآية ٧

لا هولوكست في الإسلام

الرسول القائد ﷺ لم يأمر بقتل اليهود في كل مكان وزمان وكان قتل بني قريظة بحكم سعد بن معاذ ورضي الله ورسوله ﷺ جزاء غدرهم وخيانتهم والرسول ﷺ لا يمكن أن يكون للخائنين خصيماً.

والرسول خاتم الأنبياء ﷺ هو الوحيد من الرسل الذي فوضه الله في التشريع بتفويض من الله وما يحكم به هو حكم الله ذلك ما يؤمن به كل مسلم وان لم يعجب الآخرين ذلك.

وفى القرآن الذي يؤمن به كل المسلمين يقول الحق سبحانه وتعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [1]

ليس لدى أي مسلم شعور بالذنب لقتل المعتدين على ديار الإسلام والمسلمين دفاعاً عن العقيدة والوطن.

والمسلمون خاصة العرب منهم قتل منهم ما لا يقل عن ٢٥٠ ألف مسلم وعربي فلسطيني ومصري خلال الجولات العربية الإسرائيلية التي دارت خلال القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين واليهود هم الذين يصدر حاخاماتهم كل حين وآن فتاوى تبيح قتل أطفال ونساء وذراري المسلمين في فلسطين ولبنان دون ذنب اقترفوه درءاً لخطر الزيادة السكانية العربية وزيادة قوة المسلمين.

إن اليهود يرتكبون كل يوم المذابح في الضفة العربية وغزة ولبنان ولا يلومهم أحد ويقال أنهم يدافعون عن أنفسهم كما قتلوا الأسرى العرب في جولاتهم المختلفة مع العرب ويباهون بذلك.

فإذا جاء محمد ﷺ ووافق على قتل رجال بني قريظة فإنما كان ذلك جزاء وفاقاً لغدرهم وخيانتهم وإقرارهم بذلك ورضاهم بحكم سعد بن معاذ.

وإذا كان هناك من يهود خيبر شمال المدينة المنورة من اشتراك في تحريض مشركي قريش والأحزاب على حرب الرسول الخاتم ﷺ فإنه كان في مقدور

---

[1] سورة الأنفال ـ الآية ١٧

الرسول القائد ﷺ أن يهاجم يهود خيبر جميعاً بعد الانتهاء من مقاتلي يهود بني قريظة إلا أن الرسول ﷺ رحمة منه آثر أن يقتص المسلمون فقط من الذي حرض على المسلمين من يهود خيبر وهو سلام بن أبى الحقيق فأرسل المصطفى ﷺ خمسة رجال من المسلمين بقيادة عبد الله بن عتيك فقتلوه وحده فقط جزاء تحريضه على قتال المسلمين ونهاهم الرسول القائد ﷺ عن قتل النساء والأطفال من يهود خيبر.

لقد حكم سعد بن معاذ على مقاتلي بني قريظة بالإعدام أو القتل جزاء جريمة الخيانة العظمى التي ارتكبوها في حق المدينة المنورة وطنهم ووطن المسلمين بانضمامهم لقريش والأحزاب الذين جاءوا لاقتحام المدينة واستئصال أهلها من المسلمين وكذلك الخيانة العظمى المتكررة في حق الرسول القائد ﷺ الحاكم الفعلي والقوي للمدينة المنورة والمدعوم بقوة الحق سبحانه وتعالى باعثه بخاتم الرسالات.

وتقول بعض المصادر أن الذين قتلوا من يهود بني قريظة كانوا حوالي٧٠٠ رجلاً نفذ فيهم الرسول ﷺ حكم الإعدام جزاء الخيانة العظمى كما أمر الله رسوله بذلك.

غزوة بني لحيان

أراد الرسول القائد ﷺ أن يقتص من بني لحيان بمنطقة عران لقتلهم خبيب بن عدي وأصحابه قبل عامين عند ماء الرجيع فقاد مجموعة من المسلمين لهذا الغرض ولكن بنو لحيان هربوا من جيش المسلمين إلى رؤوس الجبال ورغم ذلك فقد أدت الغزوة الغرض منها وهو إدخال الرعب في قلوب أعداء المسلمين وإظهار المسلمين بأنهم قادرون على الثأر لقتلاهم والدفاع عن أنفسهم ووطنهم.

ومن هذه الغزوة بعث الرسول القائد ﷺ وزيره الأول أبا بكر في مائة راكب إلى عسفان بالقرب من مكة بعد حوالي ستة أشهر من غزوة الأحزاب لإظهار قوة المسلمين وردع المشركين عن التفكير في الهجوم على المدينة مرة أخرى.

أليست المفاجأة وهى من المبادئ التي أتبعها الرسول القائد ﷺ في غزواته أسلوباً من أساليب تفادي الصدام والقتال إذ يفر أعداء الرسول ﷺ والمسلمين وقد ملأهم الرعب وكفى الله المؤمنين القتال وحقق لهم الهيبة والرهبة في نفوس الأعداء.

لم تكن مهمة غزوة بني لحيان إجبار هؤلاء على اعتناق الإسلام أو الاستيلاء على أرضهم ومراعيهم وآبارهم أو قتل الرجال وأسر النساء والأطفال والاستيلاء على أموالهم ودوابهم .. كانت المهمة فقط القصاص لقتلى المسلمين وإشعار بني لحيان أن ما حدث من قبل لن يتكرر أبداً.

غزوة بني قرد
لا تهور ولا حرب بدون هدف أو تخطيط

بعد العودة من غزوة بني لحيان بأيام قليلة أغار عيينه بن حصن ورجاله على أطراف المدينة فقتل مسلماً وأخذ امرأته أسيرة وأخذ الإبل التي كان يحرسها الرجل وامرأته. لكن مسلماً هو سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي عندما أبصر ما حدث أخذ يصيح طالباً نجدة المسلمين وأخذ يطارد المغيرين وسمع صياحه الرسول القائد ﷺ فنادى في أهل المدينة: "الفزع الفزع" ودفع الفرسان في أثر الخاطفين ثم تبعهم هو حتى وصل إلى ذي قرد شمال المدينة.

وتمكن المسلمون من استخلاص جزء من الإبل وإنقاذ المرأة المسلمة.

ولما رأى عيينه شدة يقظة المسلمين وقوتهم دخل وسط غطفان يريد الاحتماء بهم من المسلمين ولما أراد المقاتلون المسلمون الدخول خلفه وسط غطفان منعهم الرسول ﷺ لأن هدف الغزوة كان استرداد ما خطف والنيل من الخاطفين وهم عيينه بن حصن وأصحابه فقط ولم يكن الغرض هو محاربة غطفان أو الهجوم عليهم ربما لأن قوة المسلمين لا تكفي أو حقناً لدماء المسلمين من أن تهدر بغير سبب قوي كان الرسول القائد ﷺ ورجاله مستعدين دائماً للدفاع عن وطنهم وعقيدتهم ومستعدين لردع المعتدين ومنعهم من العودة مرة أخرى.

غزوة بني المصطلق (شعبان ٥ هـ)
بعد غزوة دومة الجندل

عندما علم الرسول القائد ﷺ باستعداد بني المصطلق بقيادة الحارث بن أبي ضرار وهم فرع من خزاعة لقتاله وقتل الرسول ﷺ أسرع إليهم مقسّماً قواته إلى لواء للمهاجرين بقيادة وزيره الأول أبي بكر ولواء للأنصار بقيادة سعد بن عبادة مفاجئاً عدوه عند ماء قريب منهم يقال له المريسيع بالقرب من مكة.

وكانت نتيجة المفاجأة التي دائماً ما يحققها الرسول القائد ﷺ أن فرّ من فرّ من عدوه وقتل عشرة منهم وقتل مسلم واحد بطريق الخطأ وأسر باقي أفراد العدو ونساؤهم وأخذت إبلهم وماشيتهم غنيمة للمسلمين.

وقد أثار المنافق عبد الله بن أبيّ فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار حتى أن عمر بن الخطاب حث الرسول ﷺ على قتل عبد الله بن أبيّ فرفض الرسولﷺ قائلاً: "فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه.. رغم أن في بعضهم نفاق".

رفض الرسول القائد ﷺ قتل المنافق بن أبيّ وأرهق جيشه بالمسير ليلاً ونهاراً في رحلة العودة للمدينة حتى أن التعب أنساهم سبب الفتنة وهكذا وأد الرسول القائد ﷺ الفتنة في مهدها بحكمته وقدرته السياسية والعسكرية التي وهبها الله له .. وكم من فتن أرهقت المسلمين في كل العصور بالقتل والقتال ولو اتبعوا أسلوب المصطفى ﷺ واطفأوا الشرر في البداية لكفاهم الله القتل والاقتتال.

وفى هذه الفتنة نزلت الآيات:

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ {٧/٦٣} يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [1]

---

[1] سورة المنافقون ـ الآيات ٧ ـ ٨

عفو القائد الرحيم ﷺ
عن عبد الله بن أبيّ في غزوة بني المصطلق

أشعل عبد الله بن أبيّ الفتنة في غزوة بني المصطلق بين المهاجرين والأنصار وأطفأها الرسول القائد ﷺ بحكمته وبُعد نظره بتهدئة النفوس وترضيتها كما أطفأها بالإرهاق المحمود بالمسير بصفة مستمرة من موقع الغزوة حتى المدينة المنورة.

وإذا كانت الفتنة أشد من القتل لأنها كانت سوف تؤدي إلى حرب أهلية بين الأنصار والمهاجرين بعد خمس سنوات من التآخي والتأليف أشد وأخطر من قتال أعداء الإسلام وإذا كان القرآن قد نزل بالتنديد بالمشركين. فإن أي قائد غير المصطفى ﷺ كان يحق له أن يأمر بقتل رأس الفتنة عبد الله بن أبيّ وهذا ما شعر به ابنه عبد الله الذي طلب أن يكون هو قاتل والده جزاء أفعاله وإيذاء الرسول ﷺ والمسلمين.

ولكن المصطفى ﷺ وهو الرءوف الرحيم رحمة العالمين رد رداً جميلاً على عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بأنه سيترفق بأبيه رغم فعلته في هذه الغزوة وأفعال أخرى.

كان عفو الرسول القائد ﷺ عن المنافق ذا أثر بالغ في نفس عبد الله بن أبيّ ونفوس المسلمين الذي رأوا في عفو المصطفى ﷺ عفوا عند المقدرة وحقنا لدم رجل يقول لا إله إلا الله وإكراماً لولده الذي كان مستعداً لقتل أبيه إذا أمر الرسول ﷺ بذلك.

أي قائد يفعل ذلك غير محمد ﷺ وأي قائد من المسلمين الآن يستطيع أن يحقن دماء المسلمين الذين تأكلهم الفتن التي يشعلها أعداء الإسلام أكلاً كما تأكل النار الهشيم.

كان مما قاله عبد الله بن عبد الله بن أبي للمصطفى ﷺ لما توقع أن رسول الله ﷺ قد يأمر بقتل أبيه:
"يا رسول الله أنه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه. فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه. فو الله ما علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني. وأني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله. فلا تدعني نفسي انظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار".

وكان رد المصطفى ﷺ عليه رداً جميلاً يظهر رحمة القائد العظيم خاتم الأنبياء والمرسلين قائلاً: "إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا".

إطلاق سراح أسرى غزوة بني المصطلق
من ملامح أخلاق الحرب لدى المصطفى ﷺ

كان الرسول القائد ﷺ يتحين الفرصة للتخفيف عن أعدائه المهزومين لعل الله يهديهم إلى الإسلام ويهدئ نار عداوتهم له ولرسوله فها هو المصطفى عليه الصلاة والسلام عندما جاءته جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار قالت له: "أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه وقد أصابني من بلاء الأسر ما لم يخف عليك فوقعت في سهم فلان من الأنصار فكاتبته على نفسي. فجئتك أستعين على كتابي" فقال لها المصطفى ﷺ "فهل لك في خير من ذلك" قالت "وما هو" قال "أقضي كتابتك وأتزوجك".

وهكذا عندما تزوج المصطفى ﷺ بنت سيد القوم ليعتقها من الأسر أطلق الناس من بأيديهم من أسرى بني المصطلق إكراماً لعهد رسول الله ﷺ إياهم حتى كانت السيدة عائشة تقول عن جويرية "ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها" وفي رواية أخرى تقول أن الحارث بن ضرار جاء إلى النبي ﷺ بفداء ابنته. وأنه أسلم بعد أن آمن برسالة النبي ﷺ وأنه أخذ ابنته جويرية فأسلمت كما أسلم أبوها فخطبها محمد ﷺ إليه فزوجه إياها وأصدقها ٤٠٠ درهم.

أصبحت جويرية بنت سيد بني المصطلق زوجة الرسول ﷺ ومن أمهات المؤمنين وبفضل هذا الزواج المبارك أطلق المسلمون أسراهم من بني المصطلق إكراماً لرسول الله ﷺ وعملاً بعقيدتهم السمحة.

وكان من عادة القائد العظيم أن يتزوج من كريمات أعدائه إكراماً لهن وتأليفاً للقلوب وفتحها للإسلام فكما تزوج جويرية تزوج بنت حيي بن أخطب بعد ذلك كما تزوج حبيبة بنت أبى سفيان من قبل.

التحرك إلى الحديبية

بعد حوالي ست سنوات من هجرة المصطفى ﷺ للمدينة المنورة كان الشوق قد أخذ بالرسول ﷺ وبالمسلمين كل مأخذ للبيت الحرام والكعبة والطواف حولها والصلاة عندها في المسجد الحرام.

وأكرم الله رسوله ﷺ برؤيا صادقة أن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون.

بعد هذه الرؤيا الصادقة أذن الرسول القائد ﷺ في المسلمين والناس بالحج والخروج في شهر ذي القعدة الشهر الحرام عام ٦ هـ وأرسل رسله إلى القبائل العربية من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك وإياه في الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين.

وأعلمهم النبي ﷺ أنه يريد أداء الفريضة الإسلامية بالحج لبيت الله الحرام ويؤديها غير المسلمين لأن الكعبة بيت الله بالنسبة لهم أيضاً طبقاً لما بقي في اعتقادهم من آثار دين إسماعيل وملة إبراهيم عليهما السلام.

كانت النية واضحة ومعلنة للجميع أن الرسول ﷺ يريد الحج ولا يريد القتال أو اقتحام مكة أو إرغام القبائل العربية على الإسلام وكان الهدى واضحاً ومميزاً وكان السلاح السيوف في أغمادها طبقاً لتقاليد الارتحال والسفر العربية (حمل السلاح الشخصي فقط).

أحرم المسلمون بالعمرة عندما وصلوا آبيار علي (ذي الحليفة) ومن المؤكد أن قريش علمت بكل إجراءات النبي الخاتم ﷺ وتحركاته وجمعه القبائل العربية لأداء العمرة سلماً لا قتالاً.

حرص الرسول ﷺ على السلام

عندما وصل الرسول العظيم ﷺ إلى عسفان بالقرب من مكة كانت خيل قريش بقيادة خالد بن الوليد هناك على بعد ١٥ كم من قوات المسلمين لقتال المسلمين ومنعهم من دخول مكة بالقوة.

لذلك أمر الرسول القائد ﷺ المسلمين ومن معه من باقي القبائل العربية التي خرجت تحج على وثنيتها بتفادي الاصطدام بقوات قريش نتيجة أي حماسة أو خطأ غير مقصود من الطرفين وذلك بسلوك طريق شاق وغير معروف وبعيداً عن أعين فرسان وقوات قريش حتى إذا ما وصلوا الحديبية بركت ناقة النبي ﷺ (القصواء) وبرحمة منه ﷺ وعملاً بصلة الرحم قال: "إنما حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها".

إن الرسول القائد ﷺ وفي كل غزواته وسراياه لا يريد إلا تأمين حرية العبادة لكل أهل الجزيرة العربية بل وكل الناس ولم يكن يريد أن يستولي على أرض أحد أو يأسر أو يغنم إلا تحرير عقول الناس من الشرك والجمود.

وقد قال ﷺ عندما علم بخروج قريش مستعدة للقتال: "يا ويح قريش لقد أهلكتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب. فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا. وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش. فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (أموت)".

المفاوضات غير المباشرة مع قريش

كانت قريش تكره أن يدخل عليها الرسول القائد ﷺ عنوة ليحج البيت الحرام وكان عليه الصلاة والسلام يكره ذلك أيضاً ويؤكد لكل سفراء قريش له أنه إنما جاء حاجاً فقط.

أرسلوا إليه بديل بن ورقاء في وفد من خزاعة وعاد لقريش مؤكداً لهم نية السلم لدى المصطفى ﷺ وإنه جاء حاجاً.

أرسلوا إليه الحليس زعيم الأحابيش وعاد لقريش يؤكد لهم ما سبق أن أكده بديل بن ورقاء خاصة عندما رأى الهدي سبعين بدنة جاهزة للنحر.

أرسلوا إليه عروة بن مسعود الثقفي وعاد لقريش بعد أن سمع من المصطفى ﷺ مثل ما سمع الذين سبقوه من أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء معظماً البيت مؤدياً فرض ربه.

أرسل إليهم الرسول القائد ﷺ عثمان بن عفان فأقنعهم بنية الرسول ﷺ وأخذ يفاوضهم عن حل يوفق بين البّر بقسمهم ألا يدخل الرسول ﷺ هذا العام عنوة إبقاء على هيبة قريش وبين حرص الرسول ﷺ والمسلمين على الطواف بالبيت العتيق كما أخذ يفاوضهم في موضوع جديد هوَ تنظيم العلاقة بين قريش والرسول القائد ﷺ وهي أول مرة يجري فيها مثل هذا التفاوض بين المسلمين والمشركين وهو اعتراف بقوة المسلمين.

وفى هذه الأثناء خرج بعض رجال من قريش يرمون عسكر النبي ﷺ بالحجارة ولم يرد عليهم أحد بل أسرهم المسلمون واقتيدوا إلى الرسول ﷺ فعفا عنهم تمسكاً بالهدف من العملية كلها وهو حج بيت الله الحرام واحتراما للشهر الحرام والبلد الحرام مكة التي تقع الحديبية في حرمها.

وهكذا في كل مرة يؤكد الرسول القائد ﷺ على الهدف الذي يخرج من أجله ويؤكد تمسكه بأسمى أخلاق الحرب ومنها العفو عند المقدرة والترفع عن الانتقام أو إيذاء الأسرى.

بيعة الرضوان وفتح الحديبية
اعتراف بالدولة الإسلامية الوليدة وبدين الإسلام

رغم أن المسلمين قد قدموا مسالمين ليست لديهم أدنى نية للهجوم إلا أن إشاعة مقتل عثمان بن عفان في مكة البلد الحرام في الشهر الحرام لتأخره عندهم جعلت الرسول القائد ﷺ يقول: "لا نبْرح حتى نناجز القوم" أي نقاتلهم لأنهم بدأوا بالغدر برسوله ﷺ ودعا أصحابه وقد وقف تحت الشجرة فبايعوه جميعاً على ألا يفروا حتى الموت.

وهكذا يجب التمسك بالسلام لآخر لحظة والاستعداد ليس للهجوم والعدوان وإنما لصد العدوان ودحره لأن قتل عثمان يعتبر عدواناً على المسلمين ونزل قوله تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) [1]

ومن أخلاق الحرب في سيرة خاتم النبيين ﷺ أن على القائد المسلم أن يبايع رجاله ويتأكد من صدق نواياهم وإخلاصهم لعقيدتهم الحقة في الإيمان بالله وتوحيده.

ولما كان كل ما يدور في معسكر المسلمين ينقل لقريش وكل ما تريده قريش نقله عثمان بن عفان للرسول القائد ﷺ فإن قريش أصبحت لا تتردد في إرسال سهيل بن عمرو لمفاوضة الرسول القائد ﷺ على حل يرضي الطرفين لأنه ليس هناك أحد يريد القتال في الأشهر الحرام وفى مكة.

في صلح الحديبية كتبت في مقدمته باسمك اللهم .. هذا ما صالح عليه محمد بن

عبد الله... حيث لم ينظر الرسول القائد ﷺ إلى لحظة كتابة الصلح وإنما نظر بعيداً جداً حيث خقق بالسلم وبهدوء ما كان يصعب تحقيقه بالقتال في هذا الصلح اتفق الطرفان على هدنة عشر سنين.

واتفقا على أنه من أتى محمداً ﷺ من قريش بغير إذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريش من رجال محمد ﷺ لم يردوه عليه وأنه من أحب من العرب مخالفة محمد ﷺ فلا جناح عليه (لا إكراه في الدين وأنه لا إجبار على الإسلام) ومن أحب مخالفة

---

[1] سورة الفتح ـ الآية ١٨

قريش فلا جناح عليه (حرية العقيدة وهو نصر للإسلام بإعطاء العرب حرية الاختيار) وأن يرجع محمد ﷺ وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه فيدخلونها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها (التسليح الشخصي) ولا سلاح غيرها.

وأختبر الرسول ﷺ في وفائه بالعهد وكان في كل مرة ينجح في الاختبار لأنه كذلك كما أدبه الله خاتم المرسلين ﷺ فقد صاح أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذي وقع المعاهدة مع الرسول ﷺ قائلاً "أؤردُّ إلى المشركين يفتنونني فى ديني" لكن الرسول ﷺ رد علية مطمئناً قائلاً "يا أبا جندل إصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك واعطونا عهد الله وأنا لا نغدر بهم".

وقد تزوج المصطفى ﷺ كعهده من إبنة ابي سفيان بعد صلح الحديبية بعد عودتها من الحبشة بعد أن مات زوجها عبد الله بن جحش نصرانياً بعد أن كان مسلماً.

الحديبيـــة
(ذي القعدة ٦ هـ)
بيعة الرِّضوان:
﴿ لقد رضيَ اللّهُ عَنِ المؤمنينَ إذ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجرةِ فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِم فَأنزلَ السَّكِينَةَ عَلَيهِم وأثابَهُم فَتْحاً قريباً ﴾
﴿ الفتح ١٨/٤٨ ﴾.
موقع الحديبيَة X
علاملات الميقات
أعلام الحرم
حدود الحرم المكي
الى الشام
الى العراق
المدينة المنوَّرة
ذو الحليفة (آبار علي)
ميقات المدينيين
بدر حنين
الى المدينة المنورة
الأبواء
رابغ
ميقات أهل الشام
والمصريين ولكل من
حازاها براً أو بحراً.
البحر الأحمر (القلزم)
الى مكة المكرمة
عسفان
الحديبية
جدة
التنعيم
مكة المكرمة
ميقات العراقيين
ذات عرق
وادي نخلة
الى العراق
الى نجد
قرن المنازل
ميقات النَّجديّين
عرفة
الطَّائف
أضناء لبَن
الى اليمن
الى اليمن
يلملم
ميقات اليمنيين

مبعوثو الرسول الأعظم ﷺ إلى الملوك

بعد حوالي ٦ سنوات من الهجرة للمدينة المنورة وبعد حوالي ٥٩ عاماً هجرياً من عمره المبارك بعث الرسول الأعظم ﷺ بمبعوثيه إلى ملوك وحكام الدول المجاورة وهم النجاشي ملك الحبشة والمنذر بن ساوي البحرين وكسرى الفرس وهرقل قيصر الروم والمقوقس عظيم مصر وسيد عمان وهوذة بن على اليمامة والحارث بن أبي شمر الغساني دمشق وهي دول الآن مصر وسوريا وفلسطين وأثيوبيا وارتريا والجزيرة العربية وإيران والعراق.

وكمثال على رسائله يقول المصطفى ﷺ في رسالته إلى هرقل :
"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من أتبع الهدى. أما بعد. فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسيين. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"

وهكذا أعلن الرسول الأعظم ﷺ للدول المحيطة على اختلاف عقائدها أنه هناك في المدينة المنورة خاتم المرسلين صاحب الرسالة الخاتمة الذي أسس دولة إسلامية بازغة سيكون لها شأن في عالم ذلك اليوم وفى العالم كله إلى يوم الدين.. لقد قدّم الطفل العظيم اليتيم الذي ولد منذ ٥٩ عاماً قمرياً رسالة سلام ودعوة للحوار مع الجوار من أجل سعادة الإنسانية بعبادة الله الواحد الذي جاء بآخر رسالاته لكافة البشر.

عندما ولد المصطفى ﷺ كان العرب فوضى وقبائل متناحرة وهاهم اليوم متحدون تحت راية الإسلام شعارهم لا إكراه في الدين وفى نفس الوقت لا حرمان من اختيار الدين الصحيح وذلك لكل البشر العرب والعجم.

لقد بلّغ الرسول ﷺ ما أمره الله به أن يبلغه لكافة الناس وقرر أن عقيدة الشعوب هي أمانة يسأل عنها حكام الشعوب أمام الله يوم الحساب ويثابون مرتين إن أصابوا وعليهم وزرهم ووزر شعوبهم إن اخطأوا.

كانت رسائله ﷺ رسائل سلام ومودة وحوار بالحسنى من منطق قوة وهى في نفس الوقت تحذير من العدوان على المسلمين أو الاستهانة بأمرهم. كانت حقناً للدماء

ومنعاً للعدوان والقتال. كان حكام الدول المجاورة يعرفون جيداً ما يدور في الجزيرة العربية رغم صعوبة الاتصال وتأخر المعلومات.

كان مما علموا أن الرسول القائد ﷺ أنتصر على قريش ثم صالحهم بعد أن اعترفوا بالإسلام ديناً ودولة وأن الرسول ﷺ أخلى أو كاد أن يخلي الجزيرة العربية من اليهود لسبب بسيط وقوي ومعروف عنهم وهو نقضهم العهود معه ﷺ وخيانتهم وتآمرهم مع أعداء وطنهم المدينة وتفضيلهم عبادة الأوثان على عبادة الله رب المسلمين ورب كل الناس ورب اليهود أيضاً.

وكان مما علموا أن محمداً ﷺ أصبح يسيطر على طرق القوافل للجنوب والشمال والشرق وساحل البحر وأصبحت له الكلمة العليا في كل الجزيرة العربية.

وبذلك بدأت مرحلة جديدة في حياة الرسول القائد ﷺ والدعوة الإسلامية بعد أن فرغ من المشركين ومن الذين كفروا من أهل الكتاب مرحلة الاتصال بالعالم الخارجي برسالة سلام وحوار.

غزوة خيبر ثم صلح خيبر

بعد أقل من شهر من عودة الرسول القائد ﷺ والمسلمين من الحديبية الذي وقعوا فيه صلحاً مع قريش اعترفت فيه بقوة المسلمين وسماه الخالق عز وجل فتحاً مبيناً دعا الرسول القائد ﷺ إلى التحرك لغزو خيبر كعمل وقائي حتى لا يتحالف اليهود مع بعضهم البعض ضده أو مع غطفان أو يكونوا مقدمة ونقطة ارتكاز لقوات الروم إذا فكرت في العدوان على المسلمين.

وكقائد عظيم دعا للخروج معه فقط الذين حضروا الحديبية لما لمسه من إيمانهم الشديد في بيعة الرضوان ومن خرج غير هؤلاء فهو غازي متطوع ليس له من الغنيمة شيء.

كان من مبادئ الحرب التي أرساها الرسول ﷺ عنصر المفاجأة إذ فوجئ به يهود خيبر في الصباح يحاصر حصونهم.

دار قتال شديد بين المسلمين واليهود وسقط حصن المقاتلين اليهود وهو حصن نطاة بعد قتل قائدهم سلام بن مشكم وقتل آخر هو الحارث بن أبى زينب بعدما سقط حصن ناعم ثم سقط حصن القموص واليهود يقاتلون باستماتة وكذلك المسلمون.

ومن آداب النبي ﷺ في الحرب أن أقرب الناس له ومعه كانوا أكثر الناس إقداماً وعرضة لجميع المخاطر مثل باقي المسلمين فقد دفع أبا بكر لمهاجمة حصن ناعم ثم عمر ثم علي بن أبي طالب الذي فتحه بإذن الله.

وسقط حصن الزبير ثم الوطيح والسلالم آخر الحصون واللذين لاذ بهما النساء والأطفال والأموال وعندها طلبوا الصلح مع المسلمين المنتصرين.

كان إيمان المسلمين بربهم ورسولهم ﷺ قائدهم أقوى من منعة حصون خيبر التي سقطت في أيديهم الواحد تلو الآخر وبسقوط حصون خيبر سقط إلى الأبد أي نفوذ يهودي في أرض الإسلام الدين الخاتم في الجزيرة العربية.

تصالح معهم النبي ﷺ على حقن دمائهم وأبقاهم في أرضهم التي آلت إليه بحكم الفتح طبقاً لتقاليد القتال في الجزيرة العربية على أن يكون لهم نصف ثمارها مقابل عملهم في زراعتها لأن المسلمين ليست لديهم الأيدي العاملة الكافية لزراعتها وليتفرغ المسلمون للدفاع عن الإسلام بالكلمة وبالسلاح.

اطمأن الرسول القائد ﷺ إلى قدرة المسلمين الفائقة على القتال واقتحام الحصون واطمأن إلى عدم قدرة يهود خيبر وغيرهم على قتاله ﷺ لذلك أحسن معاملتهم لزوال خطرهم وازدياد قوة المسلمين يوماً بعد يوم.

نُصر المصطفى ﷺ بالرعب إذ أثار ما وقع لخيبر وطلبهم الصلح عند محاصرة آخر حصونهم الوطيح والسلالم الرعب في نفوس أهل فدك فتصالحوا مع المسلمين على نصف أموالهم من غير قتال وكانت خالصة لرسول الله ﷺ. وأستسلم يهود وادي القرى كذلك وقبل يهود تيماء دفع الجزية من غير قتال.

فتح خيبر (المحرّم ٧هـ)

﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾

(الفتح ٤٨/٢٧)

يَهُودُ خَيْبَر

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾

(النساء ٥١/٤)

حُسن معاملة الرسول القائد ﷺ ليهود خيبر

بعد أن هزم الله الأحزاب في غزوة الخندق أنطلق المسلمون إلى حصار يهود بني قريظة وهم أشدُ ما يكون توتراً وكراهية لهؤلاء الذين طعنوهم في الظهر وخانوا مواطنيهم من مسلمي المدينة وكان ما كان من أمر هذه الغزوة.

وبعد أن منّ الله على المسلمين بالفتح المبين بصلح الحديبية وأمن المسلمون كل ما هو جنوب المدينة انطلقوا إلى شمال المدينة حيث خيبر وما حولها من اليهود لأن وجود يهود خيبر بالقرب من المدينة وبهذه الحصون المنيعة والزراعات والأموال والسلاح إنما يشكلون تهديداً مستمراً لمسلمي المدينة.

كانت المبادأة من رسول الله ﷺ بمفاجأتهم وحصارهم ولو تصالحوا مع الرسول ﷺ من البداية لما قُتل من قُتل ولربما كانت شروط الصلح أفضل بالنسبة لهم ولكنهم ظنوا أن حصونهم مانعتهم فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب.

كان عبد الله بن رواحة مبعوث رسول الله ﷺ إليهم كل عام ليقسم بينهم بالعدل. كما أمر الرسول ﷺ بإعادة صحائف التوراة التي استولى عليها المسلمون في خيبر لهم ولم يفعل مثل ما فعل الرومان عندما فتحوا القدس وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ولا هو صنع صنيع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا صحف التوراة ولم يصنع مثلما يصنع بعض المتعصبين الغربيين من إهانة المصحف الشريف وتدنيسه والإساءة إلى خاتم النبيين.

كما تغاضى رسول الله ﷺ عن رجوع بعض اليهود للمدينة والعيش فيها ووقف النبي ﷺ مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبي وعزى ابنه عبد الله أبر الأبناء بآبائهم.

كما أوصى معاذ بن جبل بألا يفتن اليهود عن يهوديتهم (لكم دينكم ولى دين) ولم يفرض الجزية على يهود البحرين وإن ظلوا متمسكين بدينهم وصالح بني غازية وبني عريض على أن لهم الذمة وعليهم الجزية.

كما تزوج المصطفي ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب النضيرى التي كانت زوجة كنانة بن الربيع التي أسرت في خيبر كما سبق وأصبحت من زوجاته المقربات.

فهل هناك تساهل وكرم أكثر من كرم رسول الله ﷺ مع اليهود الذين قاتلوه وطعنوا في رسالته وجمعوا الأحزاب على المسلمين وحاولوا قتله بأكثر من وسيلة مرة بالشاة مسمومة ومرة بمحاولة إلقاء حجر عليه وهو جالس عندهم.

عمرة القضاء
عبادة واستعراض للقوة وللإسلام

تنفيذاً لاتفاق الحديبية خرج المسلمون من المدينة بقيادة الرسول القائد ﷺ في ذي القعدة ٧ هـ متجهين إلى مكة لأداء العمرة المؤجلة من العام الماضي وهو على رأس قوة من المسلمين قوامها ألفي رجل ومائة فارس بقيادة محمد بن سلمة.

كان المسلمون مسلحين بسلاحهم الشخصي فقط سيوفهم في قرابها تحسباً لأي غدر من أحد من قريش أما الفرسان فلم يتخطوا حرم مكة احتراما لصلح الحديبية باعتبار الفرسان قوة هجومية ليس لها أن تدخل مكة.

وهكذا فقد عمل الرسول القائد ﷺ بالحكمة التي تقول: الضعف دعوة للعدوان ولابد للحق من قوة تحميه. ذهب ﷺ والمسلمون لمكة لأداء شعيرة إسلامية هي العمرة وهم مستعدون للدفاع عن أنفسهم وعن قائدهم وقد كبح الرسول ﷺ جماح أي مسلم قد تأخذه الحماسة للقتال أو السعي للانتقام.

وتأكيداً لهذا المعنى لما بلغ الرسول القائد ﷺ المسجد إضطبع بردائه وهو لبس الإحرام وقال: "اللهم أرحم إمرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة" أو كما قال قوة بدنية وقوة إيمان.

كان المكيون على قمم الجبال المحيطة بالمسجد الحرام والكعبة المشرفة يشاهدون عرضاً للقوة البدنية للمسلمين وللانضباط الشديد الذي قاده الرسول ﷺ بنفسه ويشاهدون الطواف والسعي والصلاة لمدة ثلاثة أيام يؤمهم الرسول ﷺ ويفعلون تماماً مثلما يفعل في كل صلاة وطواف.

كانت عمرة القضاء التزاما تاماً من الرسول القائد ﷺ بالعهد وكانت عرضاً لقوة المسلمين وقوة قيادتهم المتمثلة في الرسول الأعظم ﷺ كما كانت عرضاً لشعائر الإسلام وفرائضه كأحسن ما يكون العرض والبيان.

غزوة مؤتة

إذا كانت الغزوة هي المعركة التي يقودها الرسول القائد ﷺ بنفسه فإن غزوة مؤتة لم يحضرها الرسول ﷺ بنفسه وإن يكن قد أطلعه الله على أحداثها أولاً بأول فكأنه حضرها بنفسه.

لقد كانت غزوة مؤتة معركة بين المسلمين والروم المسيحيين بقيادة هرقل أو أخيه تيودور وكانت مقدمة لمعركة أخرى هي آخر غزوات الرسول ﷺ وهى تبوك التي دارت أيضاً بين المسلمين والروم كقومية تهدد العرب والمسلمين وليس كمسيحيين أهل كتاب.

يمكننا مهما كانت أسباب غزوة مؤتة أن نقول أنها كانت نوعاً من الاستطلاع بقوة للوقوف على قوة الروم واستعدادهم لصد المسلمين إذا جاءوا لنشر الإسلام بتحرير الناس من أسر العادة والتقاليد كما أنها كانت ردعاً للروم وإشعارهم بأن هناك قوة متنامية قوة إسلامية عربية عاصمتها المدينة المنورة.

كانت غزوة مؤتة أو جيش الأمراء بقيادة ثلاثة رجال استشهدوا حددهم الرسول ﷺ عند خروج المسلمين من المدينة في اتجاه مؤتة جنوب شرق البحر الميت بالأردن هؤلاء القادة هم زيد بن حارثة مولى الرسول ﷺ والذي تسمى باسمه يوماً ما وجعفر بن أبي طالب ابن عمه وعبد الله بن رواحة الشاعر الفارس كما تولى خالد بن الوليد القيادة متطوعاً وأمن انسحاب جيش المسلمين وهو نوع من التخلص من المعركة غير المتكافئة وافقه الرسول ﷺ عليه لأن القائد العظيم يحافظ على رجاله ولا يفرط فيهم إلا للضرورة مع أن الاستشهاد ثمنه الجنة وما فعله خالد بن الوليد بالانسحاب الكريم والآمن يؤكد أن المسلمين يستشهدون في سبيل الله ولا ينتحرون.

دعا الرسول ﷺ لجيشه قائلاً: "صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا سالمين" وأوصى الرسول ﷺ المسلمين ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ولا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار إن دعوة الرسول ﷺ لرجاله بالعودة سالمين تعنى حققوا الهدف بأقل الخسائر ولا تتورطوا في القتال دون داعي.

أين هذا مما يفعله الغزاة المستعمرون في القرن الحادي والعشرين من هدم البيوت وقطع الأشجار وقتل المدنيين والمصلين في مساجدهم والعجزة والمعوقين في فلسطين والعراق وأفغانستان.

ثلاثة آلاف مسلم يلتقون مع أكثر من مائة ألف من الروم ويدخلون في قلوبهم الرعب لتمسكهم بدينهم وإيمانهم العميق بالله والرسول ﷺ وعدالة وصدق العقيدة والهدف الذي يقاتلون من أجله.

إن جزاء القادة الثلاثة الذين استشهدوا الجنة لكن ثالثهم تردد بعض الشيء فكان أقل درجة لذلك على المسلم ألا يتردد في نصرة الحق ونصرة دينه طالما بدأت المعركة والتقى الجمعان.

لم ينتصر المسلمون ولكنهم انسجبوا من معركة غير متكافئة بعد أن رأى الروم منهم قوة وصبراً واستبسالاً ووافقهم النبي ﷺ على ما فعلوا وقال ما معناه أنهم ليسوا فراراً وإنما كراراً إن شاء الله.

أعجبت القبائل العربية المتاخمة للشام ببسالة المسلمين واستماتتهم في الدفاع عن أنفسهم وعن عقيدتهم رغم قلة عددهم ودخل في الإسلام ألوف من سليم ومن أشجع وغطفان حلفاء اليهود السابقين ومن عبس ومن ذبيان ومن فزارة وبسبب هذه الغزوة رغم عدم النصر الواضح فيها إن أستقر الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام وزيادة هيبة الإسلام بأقل عدد ممكن من الشهداء والتضحيات المادية واستنزاف الموارد.

غَزْوَةُ مُؤْتَــة
(جيش الأمراء)
زيد بن حارثة ، جعفر ابن أبي طالب ، عبد الله بن رواحة
البحر المتوسط
البلقاء
البحر الميت
معان
بابليون
الفيوم
أيلة
دُومة الجندل
سيناء
النفود الكبرى
تبوك
مدين
مصر
ضبا
العُلا
الوجه
الأقصر
خيبر
بحر القلزم (الأحمر)
المدينة المنورّة
ينبع
الحجاز
النيل
مهد الذّهب
رابغ
مكة المكرمة
جُدَّة
الطائف
النوبة
كم
موقع مؤتة
أريحا
القدس
مغاور
قمران
بيت لحم
الخليل
البلقاء
ماديا
وادي زرقاء معين
البحر الميت – ٣٩٢م
ذيبان
وادي الموجب
الكرك
مؤتة
وادي اليابس
المزار
وادي الحسا
النقب
الحسا
الطَّفيلة
وادي عربة
الشوبك
البتراء
وادي موسى
أذرح
معان
الجفر
كم

الشهادة وألم الفراق عقب مؤتة

يقول الحق سبحانه وتعالى:

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ۞)[١]

وقد تحدث الحق سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم عن جزاء الذين يستشهدون أو يقتلون في سبيل الله ويدافعون عن عقيدة التوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد جزاء لا يضاهيه شيء آخر وذكر سبحانه وتعالى أن الشهداء في المرتبة الثالثة بعد النبيين والصديقين منزلة وأجراً عند الله.

وقال الصادق المصدق ﷺ في أحاديث صحيحة كثيرة ما معناه أنه يود أن يُقتل في سبيل الله ثم يحيا ثم يُقتل ثم يحيا ثم يُقتل وهكذا رغبة في الفوز بجزاء الشهداء مع أنه خاتم النبيين وإمام المتقين والذي نطمع أن يهبه الله يوم القيامة الدرجة الرفيعة والمقام المحمود.

ومع إيمانه الكامل ﷺ بكلام الله الذي نزل على قلبه وجرى به لسانه وأحاديثه الصحيحة إلا أنه ﷺ كان يحزن أشد الحزن لفراق أصحابه وأحبابه الذين يقتلون في الغزوات والسرايا في سبيل الله.

حزن حزناً شديد لما رأى جسد عمه حمزة بن عبد المطلب وقد مُثل به فنوى أن ينتقم له ثم عدل عن ذلك وصبر على فراق عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وسيد الشهداء في غزوة أحد.

وحزن حزناً شديداً على استشهاد زيد بن حارثه وابن عمه جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة رغم أنه رآهما فيما يرى النائم وقد رفعوا هما وعبد الله بن رواحة على سرر من ذهب في الجنة وأن الله قد أبدل جعفراً من يديه اللتين قطعتا جناحين طار بهما إلى الجنة.

---

[١] سورة آل عمران ـ الآيات من ١٦٩ إلى ١٧١

بكى الرسول القائد الرحيم ﷺ لما رأى ابنة زيد بن حارثة بعد مقتله وربت على كتفها وبكى وهدهد بني جعفر وتشممهم وذرفت عيناه ﷺ الدموع وأمر أهله أن يصنعوا لأسرة جعفر طعاماً مواساة لهم على مصابهم وكم من قائد عظيم يبكى رجاله كما فعل الرسول العظيم ﷺ.

بكى الرسول القائد ﷺ عندما علم باستشهاد القادة أصحابه الأحباب وقال ما معناه: "إنما هي عبرات الصديق عندما يفقد صديقه".

إن القائد العظيم ﷺ لم يكن فظاً غليظ القلب يلقي برجاله في أتون المعركة ويضمن لهم الجنة إن استشهدوا وإنما كان يحبهم ويتمنى أن يستمروا في القتال والعطاء غزوة إثر غزوة وسرية إثر سرية حتى تنتصر العقيدة وتسود خاتمة الرسالات.

وحزن ﷺ لمقتل خمسين رجلاً من صحابته إلا واحداً أرسلهم إلى بني سليم ليدعوهم إلى الإسلام وغدر بهم بنو سليم وقتلوهم بغياً بغير حق.

وحزن ﷺ لمقتل خمسة عشر رجلاً إلا واحد أرسلهم إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام دعوة كان جزاؤهم عنها القتل لم ينج منهم إلا رئيسهم.

وحزن الرسول الرحيم ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين حزناً شديداً لمقتل أربعين صحابياً من خيار المسلمين إلا أثنين في بئر معونة وبلغ من حزن الرسول العظيم ﷺ لمقتل هؤلاء أن ظل شهراً كاملاً يدعو الله بعد صلاة الفجر لينتقم من قتلهم وتأثر المسلمون جميعاً لهذه الكارثة التي أصابت أخوانهم في الدين وإن آمنوا بأنهم جميعاً شهداء في سبيل الله وبأن لهم جميعاً الجنة.

فتح مكة سلماً

نقضت قريش عهد الحديبية الذي وقعته مع الرسول العظيم ﷺ الذي لم ينقض عهداً أبداً وعاونت بالسلاح بني بكر وساعدتهم في العدوان على خزاعة حلفاء المسلمين واستنجد عمرو بن سالم برسول الله ﷺ فقال له: "نصرت يا عمرو بن سالم" وبدأ الرسول ﷺ بعدها في حشد المسلمين في كل شبه الجزيرة العربية لنية فتح مكة دون أن يعلن هذه النية لأحد حتى لأقرب المقربين منه.

حاول أبو سفيان بذهابه للمدينة الاعتذار عن نقض العهد مع مد أجله إلى ١٠ سنوات بدلاً من سنتين ولكنه فشل في مهمته.

وكعادة الرسول القائد ﷺ في مفاجأة أعدائه وجعلهم يستسلمون دون إراقة الدماء حرص في تحركه إلى مكة على الكتمان وعمل على مفاجأة قريش قبل أن يستعدوا لصده.

وأستطاع الرسول ﷺ وهو القائد الحكيم بالمؤمنين رؤوف رحيم أن يتدارك ما فعله حاطب بن أبي بلتعة بإرسال رسالة لقريش يحذرهم من الرسول ﷺ والمسلمين وأستطاع علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ردها للمدينة وهي في الطريق لمكة وزاد الأمر كتماناً على قريش.

تحرك المسلمون وهم يزدادون عدداً وعدة كلما اقتربوا من مكة بانضمام المسلمين إليهم في الطريق في جيش بلغ عدده أكثر من ١٠ آلاف مقاتل لم تر الجزيرة العربية مثله من قبل جيش سلام لا حرب ولا إراقة دماء أو انتقام.

وعند نيق العقاب عفا الرسول الكريم ﷺ أول ما عفي عن ذوي رحمه ابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمته عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة وكان ذلك أول عفوه عن أهل مكة.

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة

يقول الحق سبحانه وتعالى

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ۝ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[1]

بهذا الأمر الإلهي أستعد الرسول القائد ﷺ والمسلمون بأقصى ما لديهم من قوة ليحققوا أهدافهم دون كثير إراقة دماء من الطرفين فالمشركون أو أهل الكتاب الذين يقاتلون المسلمين ربما يسلمون يوماً ما.

في التحرك من المدينة لمكة ولولا الحرص على المفاجأة وأخذ المكيين على غرة حتى لا يقع قتال لكان التحرك استعراضاً للقوة على طول مسافة المسير من المدينة لمكة سواء أثناء السير أو وقفات الراحة التي تشتعل فيها النيران لتملأ كل أفق الصحراء يراها الرائي على بعد عدة كيلو مترات.

ومن الإرهاب - والإرهاب هنا بمعنى إخافة العدو دون إيذائه - أن يرى زعيم قريش جيش المسلمين ونيرانهم التي أشعلوها واحداً واحداً بما فيهم كبار الصحابة الذين أشعل كل منهم نيراناً لإدخال المزيد من الرعب في قلب المدافعين.

مرت القبائل بأبي سفيان وهو محبوس بمضيق الوادي عند مدخل الجبل إلى مكة فأخافته كلها لقوة تسليحها وعددها ونظرات التحدي في عيون المقاتلين وأخافته الكتيبة الخضراء كتيبة رسول الله ﷺ يحيط به المهاجرون والأنصار لا يرى من الحديد إلا عيونهم.

بعدما فعل العرض العسكري أمام قائد العدو فعله عاد أبو سفيان ليصيح في أهل مكة: "يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن" قال أبو سفيان ذلك بعد أن أسلم أمام رسول الله ﷺ.

---

[1] سورة الأنفال - الآيتين ٦٠ - ٦١

يوم الفتح والمحافظة على الهدف

كان هدف حشد المسلمين الذين أمر به النبي ﷺ من البداية فتح مكة وإعادة فتح بيت الله الحرام وتطهيره من الأوثان وإعادته على العهد الذي وصفه الله للناس بمكة ورفعه إبراهيم وإسماعيل.

وإذا كان الهدف عظيماً وليس هناك أعظم منه كان الأسلوب النبوي هو الأسلوب الأمثل لهذا الفتح.

حشد هائل تخطى ١٠ ألف مقاتل وكتمان النية حتى لا يستعد المكيون للقتال وإذا أقترب جيش التوحيد من مكة وعرفت نيته أظهر المقاتلون المسلمون كل مظاهر القوة من إشعال نيران لتملأ الصحراء ليلاً ومن المرور أمام زعيم قريش أبي سفيان.

كان الهدف فتح مكة واستعادة المسجد الحرام من براثن الشرك سلماً لا حرباً ومن المؤكد أن الرسول القائد ﷺ قد أمر قادته بالمحافظة على الهدف حتى لو استفزهم أحد من مكة.

وعندما صاح سعد بن عبادة قائد الأنصار وهو يدخل مكة من جانبها الغربي قائلاً: "اليوم يوم الملحمة.. اليوم تستحل الحرمة.." ولكن النبي ﷺ لم يتركه إذ لو تركه لكانت فتنة بين المهاجرين والأنصار ولأريقت دماء كثيرة والمسلمون في غنى عن إراقتها.

ورغم عزل سعد بن عبادة إلا أن القائد الحكيم عين ابنه قيس مكانه إرضاء للأنصار ولسعد بن عبادة نفسه رغم أنه عزله من القيادة لهدوء أعصاب قيس ولاستكمال الهدف العظيم سلماً لا حرباً.

القائد العظيم يحسم الموقف لصالح التروي والهدوء ويسترضي الجميع درءاً للفتن أو الانشقاق والمسلمون يدخلون منتصرين.

وعندما رأى الرسول ﷺ ما دار بين قوة خالد بن الوليد أسفل مكة وبعض القريشيين وعلى رأسهم صفوان وسهيل وعكرمة بن أبي جهل الذي قتل والده في بدر غضب أن كان خالد بن الوليد قد خالف أمره بعدم القتال إلا أنه لما علم بتصدي المشركين لخالد ودفاع خالد بقوته عن المسلمين عفا وصفح عنه.

والرسول القائد ﷺ نفسه تبرأ من فعل خالد بن الوليد لما علم بقتله ناساً عندما ذهب ليهدم صنم العزى وقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد" لأنه خالف أمره وقتل قوماً لا ذنب لهم ولا جريرة ولم يقاوموا بل ألقوا السلاح.

والرسول الرءوف الرحيم ﷺ الذي يداوي الجراح دائماً ... بعث علياً لدفع الدية لمن قتل من جذيمة وعوضهم عن قتلاهم وأموالهم وما زاد عن ذلك مما أعطاه له الرسول ﷺ تركه لهم ترضية وعطفاً على مصابهم من خالد بن الوليد.

غداة يوم الفتح قتلت خزاعة حليفة المسلمين مشركاً من هذيل فغضب المصطفى ﷺ لمخالفة أمره بعدم القتل واحترام حرمة مكة قال الرسول ﷺ: "أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد فيها شجراً لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل لقد قتلتم قتيلاً لأدِيَنَّه (لأدفعن ديته) فمن قتل بعد مقالي هذا فأهله بخير النظرين إن شاءوا فدم قاتله وإن شاءوا فعقله (الدية) أو كما قال - وبعد ذلك دفع دية الرجل الذي قتلت خزاعة.

فتح مكة
٢٠ رمضان ٨ هـ
﴿ إذا جاءَ نَصرُ الله والفَتحُ ﴾
إلى سرف والتنعيم والحديبية ثم إلى المدينة المنورة
ذي طوى
أذاخر
إلى العراق
أبو عبيدة بن الجراح
الزبير بن العوام
رسول الله ﷺ
جبل هند
الحجون
قبر خديجة
إلى عرفات
كداء
قيس بن سعد بن عبادة
المروة
المسجد الحرام
الصفا
بيت رسول الله ﷺ
الخندمة
جبل أبي قبيس
خالد بن الوليد
أجياد
الطريق إلى جدة

الرسول القائد ﷺ الفاتح المنتصر
يعفو عند المقدرة لأهل مكة

وإذا عفوت فقادراً ومقدراً — لا يستهين بعفوك الجهلاء

يقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد ﷺ عن العفو العام عن أهل مكة يوم الفتح الأعظم:

"ما أجمل العفو عند المقدرة. ما أعظم هذه النفس نفس المصطفى ﷺ خاتم المرسلين التي سمت كل السمو فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام (وتصفية الحسابات كما يقال في عصرنا الحديث) وأنكرت كل عاطفة دنيا. وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان.

هؤلاء قريش يعرف محمد ﷺ منهم من تآمروا عليه ليقتلوه. ومن عذبوه وأصحابه قبل ذلك. ومن قاتلوه في بدر وأُحد ومن حاصروه في غزوة الخندق. ومن ألبوا عليه العرب جميعاً. ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إرباً إرباً لما تأخروا في ذلك لحظة واحدة. هؤلاء قريش في قبضة محمد وتحت قدميه. أمره نافذ في رقابهم. وحياتهم جميعاً معلقة بين شفتيه. وتحت سلطانه وقيادته هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد أهل مكة في لمح البصر.

لكن محمد ﷺ الرسول القائد الرءوف الرحيم ليس بالرجل الذي يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس وليس هو بالجبار ولا بالمتكبر. لقد أمكنه الله من عدوه (بعد ٨ سنوات من الهجرة والجهاد المتواصل في سبيل الله وإعلاء كلمته) فقدر وعفا فضرب بذلك مثلاً للإنسانية كلها في العفو عند المقدرة والبر والوفاء بالعهد وسمو النفس سمواً لا يبلغه أحد من العالمين.

العفو عمن ظلم وأجرم
واستحق العقاب

يوم الفتح لم يكن هناك تصفية حسابات بل عقاب لبعض المجرمين في حق الإسلام والرسول ﷺ وأصحابه. هذا العقاب ليس على الشرك لأنه عفا عن أهل مكة جميعاً من أسلم ومن لم يزل على شركه وإنما عقاب على جرائم تستحق العقاب.

أمر الرسول الرحيم ﷺ عند دخول مكة وهو الفاتح المنتصر والحاكم الفعلي لمكة منذ هذه اللحظة أن يقتل ١٧ فرداً رجالاً ونساء جزاء ما ارتكبوه في حق الإسلام والمسلمين ثم عاد وعفا عن ١٣ فرداً منهم بعد أن هدأت الأمور بمكة ورأى نصر الله له وتحطيم الأصنام وتطهير الكعبة وأمر بقتل ٤ فقط منهم.

عفا عن عبد الله بن السرح الذي كان يكتب الوحي للرسول ﷺ ثم أرتد مشركاً لمكة زاعماً أنه كان يزور الوحي حين يكتبه عفا عنه حينما توسط له عثمان بن عفان عند الرسول ﷺ.

وعفا عن عكرمة بن أبي جهل بعدما أسلمت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام واستأمنت له الرسول ﷺ فأمنه وعفا عنه وعفا عن صفوان بن اميه الذي كان على وشك الفرار خارج الجزيرة مع عكرمة بن أبي جهل.

وعفا عن عبد الله بن خطل وإحدى جاريتيه اللتين كانتا تغنيان بهجاء الرسول ﷺ وقتل الأخرى لبذاءتها وعداوتها للرسول ﷺ التي لن تزول.

عفا عن ١٣ رجلاً وجارية وأمر بقتل٤ فقط منهم جارية عبد الله بن خطل والحويرث الذي أغرى بزينب بنت النبي ﷺ عند رجوعها من مكة للمدينة ورجلين ارتكبا جناية قتل عادية في المدينة وهربا إلى مكة فكان قتل هؤلاء الأربعة قصاصاً عادلاً أمر به الرسول ﷺ وتقضي به شريعة الحق.

وهكذا نرى عفواً ليس له مثيل عفواً عمن ظلم وعفواً عند المقدرة وأبرز مثال لهذا العفو عفوه ﷺ عن هند زوج أبي سفيان التي مضغت كبد حمزة عم الرسول ﷺ بعد استشهاده يوم أحد وأحزنت الرسول ﷺ كل الحزن فوق حزن هزيمة البداية وإصابته بالجروح في وجهه الشريف ﷺ.

تحرير مكة من الأصنام في العشر الأواخر من رمضان

في حوالي الحادية والستين من عمره المبارك شرع المصطفى ﷺ في حشد أكبر قوة شهدتها الجزيرة العربية حتى هذا التاريخ وكان الحشد يجرى على قدم وساق تحت غطاء محكم من السرية والكتمان الشديد ولم يكن يعرف أحد من الصحابة بما فيهم المقربين إليه ما هي نية الرسول القائد ﷺ .. حتى أن أبي بكر سأل السيدة عائشة إن كانت تعرف لماذا هذا الحشد وما هي وجهته فأجابت بالنفي.

وحشد حوالي ١٠ آلاف مقاتل بسلاحهم وخيولهم وأبلهم ودوابهم وطعامهم وشرابهم وترتيبهم في وحدات مترابطة متآلفة ليس بالأمر اليسير في ذلك الوقت.

ومع المسير في اتجاه الجنوب علم المسلمون أنهم ذاهبون لفتح مكة سلماً مع استعدادهم للطوارئ وفى الطريق كان ينضم للمسلمين حلفاؤهم من القبائل المتمركزة بين المدينة ومكة وكان المسير يتم عبر طرق ملتوية وربما مجهولة لإخفاء هذه القوة الضخمة بقدر الإمكان ولتحقيق المفاجأة على المشركين في مكة المفاجأة في الوصول وفى حجم القوة وفى التوقيت.

كان لابد للمسير من وقفات في الطريق للراحة والتزود بالماء وكان الجو قارصا ليلاً في ذلك الوقت (ديسمبر ٦٢٩م).

كان من أبرز خصائص عملية فتح مكة السيطرة الحازمة للرسول القائد ﷺ على المسلمين وإبلاغهم بأوامره وتعليماته في الوقت والمكان المناسبين كما كان الإمداد والتموين على أعلى مستوى من الكفاءة والتنظيم.

كان تحرك المسلمين من المدينة المنورة لفتح مكة في أوائل رمضان عام ٨ هـ وتم الفتح يوم ٢٠ رمضان هـ وبقى الرسول ﷺ بعد الفتح أسبوعين في مكة أي أنه ﷺ قضى رمضان كله في الإعداد ثم المسير ثم فتح مكة والبقاء بها لما بعد عيد الفطر مما يعتبر درساً لمن يؤجلون أعمالهم دائماً لما بعد رمضان.

كان من أبرز دروس الفتح محافظة الرسول ﷺ على الهدف الأسمى وهو فتح المدينة المقدسة سلماً مع تحطيم الأصنام كلها وتطهير الكعبة منها إلى يوم الدين.

فتح الله لرسوله ﷺ مكة يوم ٢٠ رمضان هـ وبقى فيها العشر الأواخر من رمضان محطماً خلال هذه العشر الأواخر ٣٦٠ صنماً كانت في الكعبة وأرسل خالد بن الوليد

في ٣٠ فارساً من أصحابه لتحطيم العزى وأرسل عمرو بن العاص لهدم صنم هذيل (سواع) وأرسل سعد بن زيد الأشهلي في ٢٠ فارساً لهدم مناة.
وهكذا.. ولسوف يعطيك ربك فترضى.. أعطى الله رسوله ﷺ فتح مكة وتحطيم الأصنام وتطهير الكعبة منها في العشر الأواخر من رمضان ٨هـ وهى المرة الأولى والأخيرة التي يقضى فيها الرسول الكريم ﷺ هذا الوقت في مكة - العشر الأواخر من رمضان - ومن المؤكد أنه صلى ﷺ الفروض والسنن والقيام وشكر ربه على نعمه الكثيرة وأهمها القرآن الكريم وليلة القدر التي يلتمسها المسلمون في العشر الأواخر من رمضان.

خرج الرسول ﷺ من مكة مهاجراً للمدينة وكان عدد المسلمين جميعاً لا يزيد عن ٢٠٠٠ مسلم ومسلمة وها هو يعود في الغزوة رقم ٢٥ من غزواته الثماني والعشرين بعشرة آلاف مقاتل وراءهم حوالي ١٥٠ ألف مسلم في المدينة ومكة وفى كل الجزيرة العربية.

حُنين وهزيمة الغرور

لم يغتر الرسول القائد ﷺ بقوة المسلمين عندما تحركوا من مكة في الأسبوع الأول من شوال عام ٨ هـ بقوة بلغت ١٢ ألف مقاتل معهم سلاحهم وإمداداتهم منهم ١٠ آلاف ممن قدموا من المدينة من المهاجرين والأنصار والقبائل المتحالفة معهم ومنهم ألفان من حديثي العهد بالإسلام بمكة وفيهم أبو سفيان الذي أسلم منذ أقل من ثلاثة أسابيع فقط وهو رجل من جيش المسلمين يشمت فيهم لفرارهم عندما انهزموا في بداية غزوة حُنين.

توقف المسلمون على باب مضيق حُنين ليلاً وقد سبقهم إلى احتلال أكتاف المضيق هوازن وثقيف ونصر وجشم يتحينون الفرصة للهجوم على المسلمين.

دفعت الثقة الزائدة المسلمين إلى الهجوم في المضيق في الوادي الضيق في الظلام ثقة جعلت بعضهم يقول لن نُغلب اليوم لكثرتنا وفيها نزل القرآن الكريم:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنَزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ۞ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞)[1]

ويقول بعض المفسرين أن الأرض ضاقت على المسلمين من هول المفاجأة ومن الذعر الذي حدث عندما انقض عليهم عدوهم في الظلام من أعلى الجبل بالنبال ويقول آخرون من الخبراء العسكريين أن الله يعتب على المسلمين أن هجموا على عدوهم ودخلوا في مضيق ويجب ألا يكون الهجوم على المضيق في الوادي الضيق أو الأرض المنخفضة وإنما يكون الهجوم بالاستيلاء على أكتاف المضيق وحرمان العدو منها والله يقول إن الأرض واسعة كانت تسمح بالمناورة والالتفاف ولكن الإعجاب بالكثرة هو الذين زين لهم دخول المضيق.

---

[1] سورة التوبة ـ الآيات من ٢٥ إلى ٢٨

وتؤكد هزيمة المسلمين في بداية المعركة أن النصر من عند الله العزيز الحكيم وليس بالكثرة التي تجمع أشتات الناس المسلمين الأوائل مع حديثي العهد بالإسلام أولئك المسلمون الذين صمدوا في مؤتة بقوة ٣ آلاف أمام أكثر من مائة ألف والذين دخلوا مكة بقوة أكثر من ١٠ آلاف ففتحوها وحطموا أصنامها دون إراقة دماء ويقول الحق سبحانه وتعالى:

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ)[١]

كما يقول:

(الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[٢]

ومقارنات قوات المسلمين وأعدائهم في القرآن تأتى بأعداد كثيرة مقابل أعداد. فلم يقل الحق سبحانه وتعالي إن الفرد المسلم باثنين من المشركين وإنما بأعداد تمثل وحدة عسكرية فالمائة مثلاً سرية مقاتلة تغلب سريتين بإذن الله والألف كتيبة مسلمة تغلب كتيبتين من المشركين بأذن الله وهو أسلوب معمول به الآن في جيوش العالم مقارنة أعداد الوحدات سرية وكتيبة ولواء بسرية وكتيبة ولواء وليس بفرد مقابل فرد كما يفهم عامة الناس.

---

[١] سورة آل عمران ـ الآية ١٣

[٢] سورة الأنفال ـ الآية ٦٦

ثبات القائد وحسم المعركة

بعد الهزيمة في البداية ثبت القائد مكانه كما ثبت يوم أُحد ونادى عمه في الناس أن الرسول القائد ﷺ حي بينكم يقاتل قتالاً مستميتاً في سبيل الدعوة فالتف حول القائد ﷺ المهاجرون والأنصار عميقو الإيمان الذين قاتلوا معه في بدر وأُحد والخندق ومكة والذين تحملوا الأذى ١٣ عاماً قبل الهجرة كما تذكر الأنصار ما فعلوه للإسلام وبيعتي العقبة الصغرى والكبرى وجهادهم على مدى ٨ سنوات مع المصطفى ﷺ من أول بدر حتى ذلك اليوم.

ثبت المسلمون بقيادة الرسول ﷺ دفاعاً عن العقيدة والتوحيد وحفاظاً على جهد بذلوه على مدى أكثر من عشرين عاماً في مكة والمدينة وما بينها بل وحتى مؤتة وفتح مكة.

كانت حُنين معركة فاصلة بين الإسلام والشرك بطلها الرسول القائد ﷺ والذين ثبتوا معه ساعة الخطر وليس هناك أخطر من فرار المقاتلين وقد أصابهم الرعب من عدوهم.

تكاد تكون هذه هي الغزوة الوحيدة التي فاجأ فيها المشركون المسلمين رغم حرص الرسول القائد ﷺ على جمع المعلومات والاستطلاع والتشاور ووضع الخطط ولكن ربما كان الوقت ضيقاً وكان المسلمون فرحين بما حققوه من فتح مكة وتحطيم أصنامها وكان عدوهم مستعداً ومنتظراً دفاعاً عن شرف مزعوم وأصنام لم تتحطم بعد.

ثبت المسلمون بعد هزيمة البداية بفضل الله وثبات القائد ﷺ ثم طاردوا هوازن حتى أوطاس وهناك هزموهم هزيمة تامة دفع فيها المسلمون ثمناً غالياً من شهداء المسلمين وجرحاهم.

بعض أسباب الهزيمة في البداية

كانت هزيمة البداية في غزوة حُنين لساعات فقط بدأت قبل الفجر في الظلام ثم انتهت مع ضحى النهار عندما ألتف المسلمون حول قائدهم ﷺ وقاتلوا عدوهم وجهاً لوجه كما التفوا حوله وقاتلوا ببسالة بعد هزيمة أحد.

إن كثرة المسلمين ربما جعلتهم تركوا الحرص والحذر رغم أن فيهم حديثو عهد بالإسلام بل وكارهون للإسلام ربما أبلغوا هوازن وثقيف ومالك بن عوف بكل شيء عن الجيش الإسلامي الذي تحرك من مكة إلى منطقة حنين.

وربما كان المشركون العرب من هوازن وثقيف وحلفاؤهم قد راقبوا غزوات الرسول ﷺ وسراياه على مدى ثماني سنوات وهم دائماً يفاجئون عدوهم في عماية الصبح وفى هذه المرة كمن المشركون وفاجأوا المسلمين في عماية الصبح.

لا يستطيع جيش مسلم مهما بلغت قوته أن يثبت لحجارة النبال تتطاير من كل اتجاه وهو لا يعرف مصدرها ولا يعرف كيف يصدها لذلك فروا ليس خوفاً وإنما ابتعاداً عن خطر مجهول ليستعدوا للمواجهة كما فعلوا بعد ذلك والتفوا حول الرسول ﷺ.

إنه درس يُعلّمه الله للمسلمين وفيهم خاتم المرسلين ﷺ أن النصر من عند الله وبالخطة المحكمة والاستطلاع الجيد ودراسة الأرض وتنقية الجيش المسلم من العناصر المندسة ضعيفة الإيمان.

هل كان من المتصور أن أبا سفيان سيقاتل مع الرسول ﷺ هو وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة وكلدة بن جنبل كما كان يقاتل حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب والمسلمون الأوائل أو يفعلون مع الرسول ﷺ كما فعل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب و عبد الله بن رواحة بل المتصور أن الكثير ممن خرجوا من مكة حديثي عهد بالإسلام قد خرجوا على أمل النصر والفوز بالغنائم.

حصار الطائف والقتال بالحديد والنار
ثم رفع الحصار

لتعزيز النصر وإزالة آثار الهزيمة المؤقتة وفرار المسلمين من حُنين أسرع الرسول القائد ﷺ والمسلمون بحصار الطائف التي احتمت بها ثقيف ومالك بن عوف قائد القبائل أو الأحزاب في حُنين والذي ألبها جميعاً لمحاربة الرسول ﷺ والمسلمين.

وعندما وجد المصطفى ﷺ أن الطائف محصنة ويرمون جيداً بالنبال حتى أنهم قتلوا ١٨ مسلماً من الذين يحاصرون الطائف ولا يجدي سلاح المسلمين مع الحصون أعاد الرسول القائد ﷺ تمركز قواته إلى الخلف بعيداً عن النبال ليتدبر كيف يواجه هذا الموقف.

أستقدم المصطفى ﷺ خبراء من بني دوس يعرفون الرماية بالمنجنيق وهو يشبه المدفعية حالياً وأمطر المسلمون الحصون بالمنجنيق وتقدموا وهم يرفعون فوق رؤوسهم ما يشبه القارب الخشبي المقلوب ليحميهم من نبال الطائف ويسمى بالدبابة.

وهكذا المدفعية ترمي والمشاة تتقدم في حمى الدبابات ولكنها لا تستطيع أن تقتحم الحصون التي أطلق أهلها قطعاً من الحديد أخذت تحرق دبابات المسلمين الخشبية.

وهكذا لا يستنكف الرسول ﷺ أن يستعين بأحدث الأسلحة في قتاله أعداء المسلمين المنجنيق والدبابة التي يستخدمها المسلمون لأول مرة وهكذا يتدرب الجيش المسلم ويقاتل لأول مرة بالحديد والنار بدلاً من السلاح الأبيض البارد استعداد لما هم مقبلون عليه من تحرير إرادة الأمم والشعوب لتختار عقيدتها بحرية تامة.

لم يكن حصار الطائف لإبادة أهلها وإنما هزيمة الشرك والمشركين ليخلوا بين الرسول الخاتم ﷺ والناس يدعوهم لدين الله لذلك رفع الرسول الرحيم ﷺ حصاره عن الطائف ورجع إلى مكة المسلمة ليعتمر هو وجيشه بحرية تامة وليكن لنا درس في استخدام الرسول ﷺ في غزواته أحدث الأسلحة وأحدث أساليب القتال عملاً بمبدأ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة.

العفو عن الأعداء عرفاناً بالجميل

من أجل الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى بنت حليمة السعدية أخت الرسول القائد ﷺ من الرضاعة والتي تربت معه حتى بلغ الخامسة في مضارب بني سعد التي استقبلها الرسول الرحيم ﷺ وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيرها بين البقاء معه أو الرجوع لقومها بعد أن أخذت ضمن سبايا هوازن ، من أجل هذه السيدة التي لم تكن أسلمت بعد وعرفاناً بالجميل لمن رباه صغيراً واستضافه في بيته أو لنقل في خيمته في البادية ردت نساء هوازن وأبناؤها إليها بعد أن أعلنت إسلامها.

تنازل الرسول ﷺ عما يخصه وعن ما يخص بني عبد المطلب من السبايا والأولاد لهوازن وتبعه في ذلك المهاجرون والأنصار إقتداء بكرمه معهم وإكراماً لعلاقته السابقة بهم.

كما أعطى مالك بن عوف قائد العدو الذي كان يقاتله منذ حوالي شهر أهله وماله ومائة من الإبل بعد أن أعلن إسلامه.

لم يكن الهدف من غزوة حُنين وحصار الطائف إبادة المشركين أو الاستيلاء على أرضهم وأموالهم وأهلهم ولكن كان عملاً بمبدأ خلوا بيني وبين الناس فلما أسلموا ترك لهم أرضهم وأهلهم أما الأموال فجرى تقسيمها على سنة الله ورسوله ﷺ في اقتسام الفيء التي تعتبر أوامر من الله وتعديلاً للتقاليد الموروثة عند العرب عند الاقتتال وأخذ الأسرى والغنائم وقد كان أخذ الغنائم متبادلاً بين الطرفين من المسلمين والمشركين في قتالهم مع بعض كقبائل عربية أما الأسرى والسبايا فكثيراً ما كان الرسول يتسامح ويطلق سراحهم.

فتنة الفيء وإرضاء حديثي الإسلام

في الجعرانة بعد رفع الحصار عن الطائف وفي الطريق لمكة لأداء العمرة جلس الرسول القائد ﷺ يتصرف في الغنائم والسبايا طبقاً لأوامر الله في هذا المجال وعملاً بكرمه وعطائه المعتاد فأعطى الكثير وسامح الكثير.

تهامس الناس برغبتهم في سرعة أخذ أنصبتهم في الغنائم والرسول ﷺ يسمع الهمس بأذنيه أو هناك من ينقل له ما يقوله الناس بأمانة من صحابته الكرام ولما سمع الهمس وقف إلى جانب بعير وأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها وقال: "أيها الناس والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم" أي سينفق عليكم لأنه مال عام. وطلب كل من أخذ شيئاً قبل القسمة أن يرده حتى يعيد التوزيع بطريقة عادلة.

قال الرسول الكريم ﷺ في هذا الموقف: "فو الله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسّمته عليكم" مؤكداً بذلك عدله ونزاهته وحسن تقديره لكل مجاهد من المسلمين.

وأعطى ﷺ من خمسه عطاء إضافياً للذين كانوا أعداءه ويقاتلونه منذ أقل من شهرين فأعطى أبا سفيان ومعاوية لكل منهما مائة من الإبل.

كما أعطى ﷺ الحارث بن الحارث بن كلدة والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى لكل منهم مائة من الإبل كما أعطى كثيرين آخرين وأعطى عباس بن مرداس الذي رفض في البداية رد سبايا هوازن أسوة بما فعل المصطفى ﷺ.

لقد أخذ الرسول العظيم ﷺ الغنائم من أعدائه وأعطى بالعدل أعداءه السابقين تأكيداً على نزاهة قتال المسلمين للمشركين دفاعاً عن التوحيد ولم يعط الأنصار الذين خاضوا معه كل المعارك والغزوات وقطعوا المسافات من المدينة لمكة لحُنين للطائف جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته بأموالهم وأنفسهم.

الغنائم والأنصار

غنم المسلمون في غزوة حُنين التي بدأت بهزيمة ثم ثبات الرسول العظيم ﷺ وحوله المهاجرون والأنصار الآتي:

٢٢٠٠٠	من الإبل
٤٠٠٠٠	شاة
٤٠٠٠	أوقية من الفضة
٦٠٠٠	أسير

ولو تصورنا تجمعاً لهذا الحشد من الغنائم لشغل مساحة حوالي ١٥٠ ــ ٢٠٠ فدان من الأرض ولنا أن نتصور كيف كانت تحرس هذه الغنائم حتى لا يفلت منها شعرة وحتى يقسمها الرسول العظيم ﷺ بعدله وكرمه ولنا أن نتصور كيف كانت تشرب وتأكل ثم كيف كانت توزع ، إنه جهد كبير أداره المصطفى ﷺ بالحكمة البالغة ومعه كبار الصحابة الذين علموا الدنيا العدل والأمانة ألم يقل لهم: "فمن أخذ شيئاً في غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عاراً وناراً إلى يوم القيامة" أو كما قال.

أرضى المصطفى ﷺ الألوف التي كانت معه أرضى الأنصار بالدعاء لهم وإكرامهم قائلاً لهم في حضور سعد بن عبادة الذي ربما لا يحب أهل مكة وقد حاول قتالهم عند الفتح فعزله الرسول ﷺ وولى ابنه قائداً للأنصار بدلاً منه قال لهم الرسول ﷺ: "أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك. ومخذولاً فنصرناك. وطريداً فآويناك. وعائلاً فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار فيّ لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم.

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رجالكم. فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار" أو كما قال ـ وربما يمتد دعاءه للأنصار إلى يوم القيامة.

تثبيت الهيبة والسيادة في الجزيرة العربية

بعد حوالي ٧ سنوات من الغزوات والسرايا المتواصلة لتثبيت أقدام الإسلام والمسلمين وبناء قوتهم منذ غزوة بدر وحتى فتح مكة وانتصار حُنين وحصار الطائف ثم العمرة بعد ذلك.

بعد كل ذلك الجهاد وبأقل الخسائر والخسائر هنا ليست بمعنى الخسارة بل هي شهداء وجرحى في سبيل الله وإنفاق الأموال على الإعداد والاستعداد وتدبير السلاح والدواب استقرت للإسلام والمسلمين الهيبة والاحترام والسيادة في شبة الجزيرة العربية.

أصبح المسلمون في شبه الجزيرة آمنين على عقيدتهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم لا يخافون عدوان مشرك أو كتابي عليهم لأنهم يعرفون أن الرسول القائد ﷺ في المدينة المنورة عاصمة الإسلام لديه من القوة والقوات ما يمكنه من ردع وهزيمة أي معتدي على الإسلام والمسلمين داخل الجزيرة وأنه لديه من القوة ما يحمي مقدسات المسلمين في مكة من فلول المشركين إن وجدت.

ثبتت الهيبة والعزة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وأصبح المنافقون والمشركون لا يجدون أمناً حقيقياً إلا تحت لواء الإسلام لذلك أسلم الكثيرون من المترددين ودخلوا جميعاً في دين الله.

وبدأ المصطفى ﷺ والمسلمون يتطلعون لردع الروم شمال الجزيرة ومناوأتهم سلطانهم على شمال الجزيرة العربية والشام.

ثبتت الهيبة والسيادة للرسول ﷺ والمسلمين على شبه الجزيرة العربية وبدأوا يستعدون لملاقاة الروم لتحريرهم وجعلهم يختارون العقيدة التي يريدونها ويقتنعون بها كل ذلك وبناء القوة الإسلامية يجري على قدم وساق استعدادا لدرء العدوان الخارجي وردع هذا العدوان كي لا يقع عليهم من جانب الروم أو جيران العرب.

استمرار بناء القوة والدولة معاً

بعد فتح مكة وغزوتي حُنين والطائف كادت الجزيرة العربية كلها أن تدين وتخضع لخاتم المرسلين حاكماً عاماً وقائداً للمسلمين والعرب لولا بعض الذين تذمروا من دفع زكاة العشر التي فُرضت على المسلمين.

ولنلاحظ هنا أن الرسول العظيم ﷺ لم يجبر أحداً أبداً على الإسلام إذ أخذ من المسلمين زكاة العشر ومن الذين ظلوا على عقائدهم أخذ الخراج الذي يحدده مندوب الرسول الخاتم ﷺ لهؤلاء القوم.

كان المصطفى يدبر ﷺ أمور الدولة الناشئة ويدبر الأموال اللازمة لذلك لبناء هذه الدولة وبناء قوتها التي توقع المصطفى ﷺ أن تصطدم يوماً ما بأقرب القوى إلى العرب براً وهم الروم.

كبرت المهام وزاد عدد معاوني الرسول ﷺ لإدارة الدولة لإعداد القوات ومن المؤكد أن الاختصاصات قد زادت وقد أختار لها الرسول العظيم ﷺ أنسب الرجال من صحابته الكرام.

والمصطفي ﷺ كل يوم يكسب الأنصار والأصحاب والمسلمين ليس بالدعوة وحدها وإنما أيضاً بالشعر الذي يحبه العرب ويتفاخرون به وقد كان له شعراء يفاخرون ويتبارون مع الآخرين وينتصرون في ميدان الكلمة كما أنتصر في ميدان القتال.

لما طردت بنو العنبر من بني تميم العاشر الذي بعثه الرسول الكريم ﷺ (محصل عُشر الإيراد) أرسل إليهم عيينه بن حصن لتحصيل الخراج أو العُشر وهى تشبه الضرائب التي تحصلها الدولة الآن لتصريف شئونها وليست ابتزازا من الناس وأخذ هذا الصحابي حوالي خمسين من الأسرى والسبايا إلى رسول الله ﷺ.

ولما تشفع بعض بني تميم في إطلاق الأسرى وطلبوا مفاخرة الرسول ﷺ وأجابهم لذلك وأنتصر شعراء وخطباء المصطفى ﷺ وأسلم من لم يكن أسلم من تميم وأطلق المصطفى ﷺ سراح أسراهم كعادة المصطفى ﷺ في إطلاق سراح الأسرى لإحباط رغبة خصومه في قتال المسلمين.

بالكلمة الطيبة أسلموا وبالكلمة الطيبة أطلق الرسول الكريم ﷺ سراح أسراهم دون قتال أو مبارزة أو إهدار لممتلكات أو ثروة.

غزوة تبوك (العُسرَة) وتأمين شمال الجزيرة

بعد مؤتة في جمادى الأولى ٨ هـ التي أستشهد فيها زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وهم يتتابعون على قيادة ٣٠٠٠ مسلم لقتال أكثر من ١٠٠ ألف من الروم ثم تولى خالد بن الوليد تأمين أنسحاب هذه القوة وعودتها للمدينة بغير نصر أو هزيمة وإنما بأثر نفسي عظيم في الروم الذين لم يقابلوا مثل هذا الاستبسال من العرب في قتالهم ومثل هذه العقيدة التي أتوا بها وهى الإسلام.

بعدها علم المصطفى ﷺ كعادته في جمع المعلومات عن خصومه باستعداد الروم للعدوان على شمال الجزيرة العربية واسترداد هيبتهم المفقودة في مؤتة دعا عليه الصلاة والسلام إلى حشد أكبر قوة ممكنة من القبائل المسلمة للذهاب لملاقاة الروم مرة أخرى لمناجزتهم أو ردعهم ومنعهم من العدوان على العرب.

كانت العقبات كبيرة أمام حشد الجيش المطلوب أولها وأهمها بُعد المسافة المطلوب قطعها لتبوك حوالي ٥٥٠كم في صحارى حارقة في نهايات الصيف وقلة مياه ووسائل نقل أفضلها الخيل وأقلها السير على الأقدام لمن لم يجد ما يحمله. إن العبء الإداري أكثر قسوة من عبء القتال لأن المقاتلين لو وصلوا سالمين لتبوك لوصلوا منهكين من الحرّ والسفر أمام قوات أكثر عدة وعتاداً وأكثر مؤونة وطعاماً وشراباً ووسائل راحة ورفاهية.

ومن العقبات وجود الكثير من المنافقين الذين تزداد أعدادهم مع ازدياد أعداد المسلمين والذين يثبطون الهمم ويشككون فيما يفعله الرسول المعصوم ﷺ من توجيه لغزوات للروم الأكثر قوة وعتاداً.

يقول الحق سبحانه وتعالى عن سلوك بعض المنافقين:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)[1]

لقد تنوعت حجج المنافقين للقعود وعدم الخروج مع الرسول القائد ﷺ ولكن المصطفى ﷺ كان حازماً دائماً وخرج بجيش قوامه ٣٠ ألف مقاتل فيهم ١٠ آلاف

[1] سورة التوبة ـ الآيتين ٨١ ـ ٨٢

فارس بعد أن كان ٣٠٠٠ مقاتل في مؤتة منذ حوالي ١٤ شهراً فقط أي زاد حشد الجيش عشر مرات خلال حوالي عام أو يزيد وهو تطور سريع وحاسم في حشد قوات المسلمين.

لقد تحرك الجيش المسلم جهاراً نهاراً مغبراً وجه الصحراء بذلك الحشد الهائل ومغيراً وجه التاريخ بردع الروم وجعلهم ينسحبون ويفضلون عدم منازلة المسلمين وقائدهم الرسول القائد ﷺ.

وبعد انسحاب الروم عاهد المصطفى ﷺ قادة المناطق الحدودية العربية الرومية وأعطاهم الأمان ومنهم يوحنة بن رؤبة حاكم أيلة التي قابل الرسول ﷺ وعلى صدره صليب من ذهب فلم يرفض المصطفى ﷺ مقابلته بل كتب له كتاب أمن ومصالحة هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

"هذه أمنةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليُوحنة بن رؤبة وأهل أيلة سُفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس. وإنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يردُونه ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر".

لقد كانت غزوة تبوك امتحاناً لكل المسلمين نجح فيه المؤمنون الصادقون وفشل فيه المنافقون وكافأ الله الصادقين بالغنيمة التي غنمها خالد بن الوليد من غزو دومة الجندل وإسلام حاكمها اكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني.

كانت غزوة تبوك خاتمة الغزوات التي قادها الرسول القائد ﷺ بنفسه وكان لها من الأثر في ازدياد هيبة الإسلام والمسلمين مثل ما كان لفتح مكة والانتصار في حُنين وفي حصار الطائف.

بعد تبوك سارع المشركون من عرب شبه الجزيرة العربية إلى الدخول في الإسلام وترك عبادة الأصنام وتطهرت بلاد العرب جميعاً من الأصنام وعبادتها وتم ذلك بعد تبوك طواعية واختياراً من غير أن تزهق نفس أو يراق دم أو تخرب بيوت.

تبوك

غَزْوَةُ العُسْرَةِ

(رجب ٩ هـ)

﴿ لقد تاب اللهُ على النَّبيِّ والمهاجِرينَ والأنصارِ الَّذين اتَّبعوهُ في سَاعةِ العسرة .. وعلى الثَّلاثةِ الَّذين خُلِّفُوا﴾ (التوبة ٩/١١٧و١١٨)

﴿ تَوَلَّوْا وأَعيُنُهم تَفِيضُ من الدَّمعِ حَزَناً ألاَّ يجدوا ما ينفقون ﴾ (التوبة ٩/٩٢)

خلوا بيني وبين الناس

هدف تمسك به الرسول القائد ﷺ طوال حياته منذ بعثته ليوم وفاته فهو عليه الصلاة والسلام قد أنفق منذ بعثه الله برسالته ثلاث عشرة سنة شاقة يدعو الناس فيها إلى دين الله بالحجة والمنطق والعقل ويجادلهم بالتي هي أحسن وهو ﷺ فيما قام به من غزوات أو أرسله من سرايا لم يكن معتدياً أبداً وإنما كان مدافعاً صلباً عن الإسلام والمسلمين مدافعاً عن حريتهم في الدعوة إلى دينهم الذي يؤمنون به ويضحون بحياتهم في سبيله لتثبيت أركانه في أرض الله.

وإذا كان الإسلام قد انتشر في اليمن فإن المصطفى ﷺ قد أرسل معاذاً إلى أهله يعلمهم دينهم وأوصاه قائلاً: "يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر. انك ستقوم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له" - أو كما قال.

وإذا كان المصطفى ﷺ كان يردد دائماً أن هدفه الأساسي الذي يقوله لغير المسلمين خلوا بيني وبين الناس وكان ينظر إلى أعداء وخصوم اليوم على أنهم حلفاء الغد وأنصاره وهم الذين سيحملون راية الإسلام إلى كل أرجاء الدنيا وكان يعرف جيداً أن الإسلام لن يستفيد شيئاً من إبادة المشركين أو القضاء عليهم قضاء تاماً وكان يقول دائماً ما معناه لعل الله يخرج من أصلاب هؤلاء من يعبد الله ويوحده.

جيش أسامة بن زيد

كان خطر الروم دائماً وماثلاً في تفكير المصطفى ﷺ وكان دائماً مستعداً لردع الروم والذهاب إليهم في عقر دارهم لإظهار قوة المسلمين والدين الجديد واستعراضها.

كان الرسول القائد ﷺ حاكم الدولة الإسلامية الوليدة في المدينة المنورة لا ينتظر الروم حتى يهاجموه في المدينة بل كان ﷺ يذهب إليهم رغم ما في ذلك من مشقة للمسلمين لقطع المسافات في صحراء قاحلة قليلة المياه والمسلمون ليس لديهم من الإمكانيات المادية الكثير ولكن الرسول القائد ﷺ استطاع حشدها ودفعها دائماً إلى الروم في مؤتة ثم تبوك ثم جيش أسامة بن زيد.

كان يمكن لقائد آخر يقول دعوا الروم يأتون لي ويقطعوا هم المسافات في الصحراء القاحلة ويعانوا المشقة التي لم يتعودوا عليها ويسهل بعد ذلك هزيمتهم وتدميرهم.

لكن المصطفى ﷺ أراد أن يعبئ في نفس المسلمين حب الجهاد والخروج لتحرير الناس من عقائد يشوبها الكثير ويدعوهم إلى خاتمة الرسالات رسالة التوحيد.

كان الروم المسيحيون يتربصون بالعرب والإسلام كما تربصوا بالفرس وهزموهم من قبل وكان اليهود في الشمال يودون لو جاءت فرصة للعودة إلى شبه الجزيرة العربية حتى المدينة المنورة وهكذا كان الخطر والتهديد الخارجي للمسلمين قادماً من الجار الشمالي للجزيرة العربية الروم واليهود.

وكما تذهب الشمس أمامنا كل يوم لكل بقاع الأرض كان ضياء الدين الجديد يذهب إلى الأمم والممالك يدعوهم إلى التوحيد ويريهم من القوة ما يرهبون ويحسبون لها ألف حساب وعلى الجانب الآخر كان المصطفى ﷺ ينتظر في المدينة من جاء مسالماً مسلماً لا يريد قتالاً ولا نزاعاً.

عين الرسول القائد ﷺ أسامة بن زيد آخر قادته وهو في العشرين من عمره - أي ما يناهز طالباً في السنوات الأولى من الجامعة الآن - قائداً على كبار الصحابة وصغارهم تكريماً لوالده الذي اُستُشهد في مؤتة ورسالة إلى شباب الصحابة أنهم هم الذين سيكملون الرسالة وينشرون نورها في كافة الأرجاء.

وإذا كان جزاء الشهادة الجنة لزيد بن حارثة فالوجه الآخر من إحدى الحسنيين هو النصر الذي يرجوه الرسول القائد ﷺ لابن زيد حتى يفهم المسلمون أن ليس الغرض الاستشهاد ودخول الجنة فقط بل النصر أيضاً قبل الشهادة.

أوصى الرسول القائد ﷺ أسامة بالشدة في قتال الروم ليترك لهم في الذاكرة ما يجعلهم يفكرون ألف مرة قبل غزو العرب والمسلمين أو العدوان عليهم.

وبعد وفاة الرسول القائد ﷺ استكمل وزيره الأول أبو بكر الصديق مسيرته في الجهاد ودفع الجيش الذي أغار على البلقاء وحتى انتقم أسامة لوالده وللمسلمين الذين استشهدوا في مؤتة وعاد القائد الشاب أسامة بعد النصر المبهر على الروم راكباً الجواد الذي قُتل عليه أبوه بمؤتة يتقدمه اللواء الذي عقده له رسول الله ﷺ.

غزوات الرسول ﷺ ... ليست كالغزو في العصر الحديث

يقول الحق سبحانه وتعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)[1] والمعنى البسيط لهذه الآية أن كل عمل أو قول يفعله أو يقوله خاتم الأنبياء ﷺ هو رحمه للعالمين بما فيها أعمال قتال الكفار واليهود وصدق أحمد شوقي عندما قال "والحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء".

لم يقاتل الرسول القائد ﷺ أعداء التوحيد إلا بعد أذن الله له بالقتال ولم يقاتل قتالاً فعلياً إلا في السنة الثانية للهجرة وعمره المبارك ٥٥ عاماً هجرياً سن الشيخوخة والوهن ولكن الله كان يمده دائماً من قوته سبحانه وتعالى.

قاتل الرسول القائد ﷺ في ٢٨ غزوة عدا غزوة مؤتة من رمضان ٢ هـ إلي تبوك رجب ٩ هـ أي أن أعمال القتال التي قادها الرسول العظيم ﷺ بنفسه امتدت على مدى ٨ سنوات فقط من عمره المبارك الذي بلغ ٦٣ سنة هجرية أي ثُمن هذا العمر الشريف.

والغزوة في تعريف معظم المؤرخين المسلمين هي المعركة التي حضرها وشرفها النبي ﷺ بقيادته أما السرايا فهي الوحدات القتالية التي يوجهها الرسول ﷺ لأعمال قتالية أو استطلاعية وقد بلغت ٥٦ سرية من أول سرية عمه حمزة بن عبد المطلب رمضان ١ هـ إلي سرية ابن عمه وزوج أبنته علي بن أبي طالب لليمن رمضان ١٠هـ.

بدأ الرسول القائد ﷺ غزوة بدر بعدد ٣١٣ مجاهد وانتهى بغزوة تبوك بعدد ٣٠ ألف مقاتل بينهم عشرة آلاف راكب في غزوة تبوك.

وفي العلم العسكري الحديث يحدد الغرض من القتال بهزيمة العدو وتدمير أسلحته ومعداته وقتل أفراده والاستيلاء على أرضه ولم يكن من أغراض الرسول في قتاله إلا هزيمة العدو أو ردعه ومنعه من الاعتداء على المسلمين.

وكان ومازال الرسول ﷺ رسولاً للحرية في حربه وفي سلمه يريد أن يؤمن الحرية لكل إنسان أن يعتقد ما يشاء بغير أكراه.

---

[1] سورة الأنبياء ـ الآية ١٠٧

وغزوات الرسول القائد ﷺ وأعماله القتالية لا تتشابه في أي شيء مع الغزوات الاستعمارية على مر التاريخ خاصة الغزوات الاستعمارية في القرن العشرين لغزو بلاد أتباع محمد ﷺ أو الغزوات الاستعمارية في القرن الحادي والعشرين لغزو أفغانستان والعراق والتحريض على تجزئه دول إسلامية وعربيه أخرى وتخريب عمرانها.

الغزوات في العصر الحديث غزو لنهب الثروات والاستيلاء على الأرض وما عليها من شعوب وغزوات الرسول ﷺ معارك دفاع وردع وتأمين المجتمع الإسلامي.

في غزوة بدر قطع الكفار ٥٠٠ كم من مكة لبدر ليقاتلوا المسلمين وقطع المسلمون ١٥٠ كم من المدينة لبدر للدفاع عن مدينتهم.

في غزوة أُحد كانت هجوماً سافراً من الكفار على المدينة استطاع المسلمون رغم ما حدث دحره و إفشاله.

مكة فُتحت سلماً كما فُتحت المدينة من قبل بالحب والهجرة.

والخلاصة أنه كانت الأعمال القتالية التي أدارها الرسول القائد ﷺ ضد الكفار واليهود تأكيداً للمبدأ الخالد وهو أنه لابد للسلام والحق من قوة تحميه كما أن الضعف دعوة دائمة للعدوان.

الفصل الثالث

أخلاقيات الحرب ومبادئ الحرب في السيرة النبوية

أخلاقيات ومبادئ الحرب
النصر من عند الله العزيز الحكيم

ولله المثل الأعلى في السموات والأرض ولو تصورنا – وهو كذلك – أن الحق سبحانه وتعالى هو القائد الأعلى لجيوش الموحدين في كل زمان ومكان وهو خالق الكون وربه ومدبره وأن محمداً رسول الله ﷺ خاتم النبيين هو القائد الميداني الذي يصدع بكلمة الله على الأرض بكل ما أوتي من قوة.

لذلك لم يبدأ المصطفى ﷺ قتالاً ضد أعداء الإسلام إلا بعد صدور الأمر الإلهي له بذلك:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝)[١]

ثم كان قراره النافذ وأمره الدائم أن ينصر رسله والذين آمنوا إلى يوم القيامة موضحاً للمؤمنين ولرسوله ﷺ في الآيتين:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)[٢]

وفى سورة الحشر يقول الحق تبارك وتعالى

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)[٣]

---

[١] سورة الحج ـ الآيتين ٣٩ ـ ٤٠
[٢] سورة الأنفال ـ الآيتين ١٧ ـ ١٨
[٣] سورة الحشر ـ الآية ٢

وفى سورة الصافات

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)[1]

وفى سورة غافر (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)[2]

وفى سورة المجادلة (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)[3]

وبذلك وبمثل هذه الآيات وآيات كثيرة في كتاب الله العزيز تؤكد أن النصر من عند الله وأن الله ينصر رسله وبذلك فإنه من المحتم أن ينتصر محمد ﷺ وجنوده بدعم من الله وتأييده إذا أعد الرسول القائد ﷺ العدة وأخذ بالأسباب وصدق جنوده في إيمانهم وأبلوا بلاء حسناً وتسابقوا في الشهادة وعلى نصرة دين الله. وهذا ما فعله الرسول القائد ﷺ في كل معاركه قاتل ودافع عن دين الله بالكلمة وبالسيف كما لم يقاتل نبي من قبله ولا نبي بعده فهو الخاتم فأيده الله ونصره وفتح الله له فتحاً مبيناً في كل غزواته وجهاده وكما قال عمر بن الخطاب إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة فإنها كذلك لا تمطر سيوفاً وسهاماً ورماحاً ونبالاً كما لا تنشق الأرض عن الخيل والإبل والدواب التي يحارب بها وعليها المؤمنون.

---

[1] سورة الصافات ـ الآيات ١٧١ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣

[2] سورة غافر ـ الآية ٥١

[3] سورة المجادلة ـ الآية ٢١

أخلاقيات الحرب عند الرسول القائد ﷺ
في خطط المعارك

خطط المصطفى ﷺ في كل غزواته وسرياه والمهام التي كان يكلف بها الصحابة بطريقة تؤدى في النهاية إلى النصر على خصوم الإسلام بأقل الخسائر في الطرفين حيث كانت معادلة صعبة إذ كيف ينتصر بأقل الخسائر ويغلظ على الكافرين في نفس الوقت كما أمره الحق سبحانه وتعالى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[1]

هذه المعادلة الصعبة الغلظة مع الرحمة حققها القائد الأعظم محمد ﷺ في كل غزواته وسراياه ولولا بعض المخالفات البسيطة ولو أمكن تداركها لكانت كل معاركه انتصاراً مبيناً على قوات المشركين.

لم يخرج الرسول القائد ﷺ لمعركة من المعارك دون تخطيط وإعداد ولم يخرج ﷺ أبداً بغرض التخريب والتدمير والترويع وإنما كان ﷺ يخرج لمعركة تتقاتل فيها قوتان قوة الحق وقوة الباطل لفرض إرادة الحق على الباطل.

ولو راجعنا كل غزوة أو سرية أو حتى دورية استطلاع لوجدنا وراءها هدف وفكر لا تحيد عنه إلا إذا تغير الموقف على الأرض من مسار الغزوة أو السرية بطريقة مفاجئة.

كانت خطط الحرب للرسول القائد ﷺ بهدف عام هو خلوا بيني وبين الناس ولا إكراه في الدين ولا حرمان من حرية اختيار الدين أو أن الهدف العام هو هدف إستراتيجي بلغة عصرنا ولكل معركة من المعارك هدف خاص أو هدف تكتيكي يتسق وينسجم تماماً مع الهدف الإستراتيجي العام الدفاع عن الإسلام وتحرير عقول الناس.

---

[1] سورة التوبة ـ الآية ١٢٣

مبادئ الحرب عند الرسول القائد ﷺ

كانت ولازالت مبادئ الحرب كما هي منذ فجر التاريخ وبدء الحروب النظامية بين جيوش الدول حيث طبق الفاتحون العظام وانتصروا بها قبل رمسيس الثاني والإسكندر الأكبر وغيرهم من قادة ما قبل الإسلام وما بعده وتنحصر المبادئ في المبادئ العشرة الآتية وقد تزيد أو تنقص قليلاً:

١- اختيار الهدف والمحافظة عليه.
٢- الروح المعنوية والعقيدة القتالية.
٣- المبادأة وهي مرتبطة بالمفاجأة إلى حد كبير.
٤- المفاجأة.
٥- العمل الهجومي ولو للدفاع فالهجوم خير وسيلة للدفاع.
٦- المرونة والمناورة لاستغلال النجاح.
٧- الحشد بمعنى إعداد أكبر قوة ممكنة لتحقيق الهدف في الوقت والمكان المحددين.
٨- الاقتصاد في المجهود بمعنى عدم الإسراف في حشد القوة بدون داعي لذلك (الطائف).
٩- أمن القتال وله روافد كثيرة منها الحصول على المعلومات والخداع.
١٠- التأمين الإداري والفني مثل الطعام والشراب والنقل بالوسائل المتيسرة وسرعة استعادة الكفاءة ومداواة الجرحى .

وقد أضاف إليها الرسول القائد ﷺ القدوة أول قائد مسلم إلى هذه المبادئ ما يعتبر شرفاً له وللإسلام والمسلمين:

١- الرحمة كان أرحم القادة على مر التاريخ.
٢- الحسم (ما بعد الأحزاب) خاصة مع اليهود.
٣- الشورى وعدم الإنفراد بالقرار.
٤- المساواة بين القائد وجنوده في الأعباء والمهام.
٥- اللياقة النفسية والبدنية للقائد والجهد المتصل.
٦- العدل كان يحارب حرباً عادلة أساسها الحق والشريعة.
٧- حماية الأسرى والحفاظ على البيئة.

اختيار الهدف والمحافظة عليه

على القائد المتميز الناجح أن يختار بكل دقة الهدف السياسي والعسكري لمعاركه المقبلة حتى تنجح هذه المعارك ويحقق النصر لأمته ولقومه.

ولم يكن لرجل مثل محمد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيين إلا أن يختار هدفه السياسي والعسكري ليكون: "تأمين حرية الدعوة وحرية اختيار العقيدة لكل إنسان لتكون عقيدة التوحيد مع البدء بأبناء الجزيرة العربية والمقيمين بها من أهل الكتاب ثم ما جاورها من الدول والممالك. ولم يكن له إلا أن يختار المجادلة بالحسنى والحوار الهادئ والمقنع والدفاع عن هذا الحق بكل قوة".

كانت القوة عند رسول الله ﷺ لحماية الدعوة والمسلمين وتأمين مبدأ خلوا بيني وبين الناس وكانت القوة أولاً للدفاع ثم الهجوم لردع خصوم الإسلام ولتحقيق الهيبة والاحترام للمسلمين.

حافظ المصطفى ﷺ في كل معاركه وغزواته وسراياه على هدفه الأسمى وهو التوحيد حتى أستطاع بفضل الله الانتصار على خصوم الإسلام وتحقيق هذا الهدف.

لقد حقق المصطفى ﷺ هدفه بسلسلة المعارك التي خاضها ضد المشركين وضد اليهود أو التي بادر بها سعياً إلى تبليغ الرسالة التي كُلف بها من رب العالمين ولم تكن الحرب عند الرسول القائد ﷺ لإبادة قبيلة أو أهل كتاب أو الاستيلاء على أموال وأراضي وإنما كانت لتحقيق الحرية بمعناها الشامل والسامي وهل هناك حرية أعلى من حرية اختيار العقيدة.

لقد تحقق هدف الرسول القائد ﷺ في النهاية بانضمام المشركين من عرب الجزيرة للإسلام هؤلاء الذين قاتلوه في البداية كما تحقق برحيل اليهود الذين أصروا على معاداته ومناوأته إلى خارج الجزيرة العربية.

الروح المعنوية والعقيدة القتالية

لم ير العرب روحاً قتالية أو معنوية عالية مثل تلك التي رأوها في جنود المصطفى ﷺ في غزواته وسراياه كل جندي أو مسلم مقاتل يؤمن بشعار النصر أو الشهادة وكل جندي أو مقاتل امتزجت لديه عقيدة التوحيد بعقيدة القتال بالفطرة السليمة بالهدف الأسمى لذلك الصراع المسلح بين المسلمين وخصومهم والذي أمتد لحوالي ٩ سنوات من عام ٢ هـ إلى عام ١٠ هـ بدءاً من بدر إلى جيش أسامة بن زيد.

وكان من أسباب الروح المعنوية العالية الثقة في نصر الله والثقة في الرسول القائد وقيادته وأركانه ومساعديه والثقة في تخطيط وتدبير الرسول القائد ﷺ لكل معركة.

كان المسلمون يندفعون في كل غزوات الرسول القائد ﷺ خلف قائدهم أو خلف القائد الذي عينه الرسول ﷺ أو للمبارزة كما فعل علي بن أبي طالب مراراً وتكراراً وكما فعل حمزة في بدر وكما اندفع زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة.

لم يفقد المقاتل المسلم إيمانه بربّه ولا برسوله ﷺ أبداً حتى لو أُسر أو عذب أو أقتيد للقتل كما حدث في كثير من المواقف لبعض صحابة رسول الله ﷺلإيمانهم بالعقيدة وبالجزاء الذي ينتظر الشهادة في سبيل الله ثم في سبيلها.

المبادأة والمفاجأة

كان من الطبيعي أن تكون المبادأة لرسول الله ﷺ فهو الوافد الجديد على الجزيرة العربية برسالته وبأفكاره التي تصحح المسار الإنساني في الجزيرة العربية وكان من الطبيعي أن يلقى معارضة عنيفة من المشركين ومن اليهود الذين أضيرت مصالحهم جميعاً.

كانت المبادأة إذن لرسول الله ﷺ بالدعوة بالحسنى والحوار البناء القائم على الحرية المطلقة لكل الآراء ثم كانت المبادأة له بتحقيق أهداف رسالته واستخلاص حقوق المهاجرين وهى أموالهم وممتلكاتهم بمكة عندما أذن الله له بالقتال (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [1]

كانت المبادأة لرسول الله ﷺ في كل معاركه ضد اليهود لاستحقاقهم ذلك ونقضهم العهود وتآمرهم عليه وكانت المبادأة له ﷺ في معظم معاركه مع مشركي العرب عدا غزوتي أحد والأحزاب اللتين هاجم المشركون فيها المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية الوليدة.

كان من تقاليد الحرب عند الرسول القائد ﷺ مفاجأة أعدائه في عماية الصبح ونجحت المفاجأة والمبادأة في كل معاركه في تجنيب المسلمين بل المشركين خسائر لا داعي لها لو تحقق الهدف الأسمى الذي يسعى لتحقيقه وهو هزيمة الشرك والمشركين وتحقيق الهيبة للمسلمين ودينهم الإسلام.. ولم ينجح المسلمون في تحقيق المفاجأة في غزوة حُنين رغم هجومهم في الفجر لأن خصومهم تحصنوا بأكتاف مضيق الوادي وفاجأوا هم المسلمين ولولا ثبات الرسول القائد ﷺ الصلب وقيادته الحكيمة لكان لهزيمة حُنين آثارها المؤلمة.

والمبادأة التي حققها المكيون في غزوتي أُحد والأحزاب أفشلها الرسول القائد ﷺ بصلابته وثباته في أحد بعد مخالفة المسلمين الرماة للخطة التي وضعها الرسول

---

[1] سورة الحج ـ الآيتين ٣٩ ـ ٤٠

القائد ﷺ كما أن المبادأة التي حققها المشركون في غزوة الخندق أفشلها المسلمون بمفاجأة حفر الخندق الذي لم ير العرب مثله من قبل والذي تحصن المسلمون خلفه واحتموا بمدينتهم.

وقد حقق المصطفى ﷺ المبادأة والمفاجأة دائماً بأساليب الخداع مثل تغيير اتجاه التحرك بعيداً عن مكان المعركة وأساليب الكتمان التي حققها رغم انفتاح المجتمع وعدم وجود قيود على تحركات الأفراد أو أحاديثهم إلا قيود الإخلاص للعقيدة ولصاحب الرسالة العظيمة.

العمل الهجومي للدفاع والمناورة لاستغلال النجاح

كان العمل الهجومي عند رسول الله ﷺ إما رداً على هجوم سابق من الأعداء أو الخصوم أو رداً على نقض عهد كما فعل مع اليهود أو درءاً ومنعاً لهجوم محتمل من الأعداء أي أن العمل الهجومي عند رسول الله ﷺ لم يكن أبداً عدواناً عملاً بأمر الله للمسلمين ألا يعتدوا وأنه سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ)[1] كما يقول (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ)[2].

وفى سورة المائدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[3] وفى سورة الأعراف (ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[4]

لقد أحبط الرسول القائد ﷺ في الكثير من الغزوات والسرايا الكثير من الأعمال العدوانية التي كان أعداء الإسلام يخططون لها لهزيمة المسلمين والقضاء على عقيدتهم.

وفور انسحاب المشركين وفرار أحزابهم شمال الخندق استدار المسلمون بقيادة رسولهم ﷺ لمحاصرة يهود بني قريظة وقتالهم جزاء غدرهم وطعنهم في ظهر المسلمين والتي انتهت إلى ما انتهت إليه من قتل وطرد من المدينة المنورة.

لقد هاجم المسلمون وناوروا بقواتهم ليس سعياً للعدوان وإنما لاستخلاص أهم حقوق الحياة وهو حرية العبادة كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد

---

[1] سورة البقرة ـ الآية ١٩٠
[2] سورة البقرة ـ الآية ١٩٣
[3] سورة المائدة ـ الآية ٨٧
[4] سورة الأعراف ـ الآية ٥٥

تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1]

وقوله تعالى (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ)[2]

[1] سورة البقرة ـ الآية ٢٥٦
[2] سورة يونس ـ الآية ٩٩

الحشد والاقتصاد في المجهود

الحشد بمعنى إعداد أكبر قوة ممكنة لتحقيق الهدف من المعركة المقبلة في الوقت والمكان المحددين والاقتصاد في المجهود بمعنى عدم الإسراف في حشد القوة بدون داعي لذلك ، مبدأن من مبادئ الحرب منطقيان وليسا متناقضين ولكل منهما ما يبرره.

فالرسول القائد ﷺ قد وازن دائماً بين احتياج المعركة واحتياج الإنتاج الاقتصادي واحتياج التفقيه في الدين فلم يحشد الرسول ﷺ في معاركه كل الصالحين للقتال وإنما كان يترك من يزرع ويرعى النساء والأطفال ويرعى الزرع والضرع ولم يتوقف عن إرسال مبعوثيه إلى كل مكان للتفقيه في الدين رغم استمرار الغزوات والسرايا.

وفى بدر حشد الرسول القائد ﷺ أقصى ما يمكن حشده لمعركة محتملة قد تكون فارقة بين الإسلام والشرك وقد كانت كذلك كما حشد لفتح مكة لردع المشركين عن محاولة مقاومته بل واستعرض قواته أمام أبي سفيان لتصل الرسالة أنه لا قبل لكم بالمسلمين.

وفى الطائف وعندما حدثت خسائر في صفوف المسلمين رغم تدبير الدبابات التي يغطي المسلمون بها رؤوسهم من نيران ثقيف رفع القائد العظيم ﷺ حصاره عن الطائف وعاد إلى مكة لأن الهدف من الحصار لم يكن إبادة أهل الطائف أو إجبارهم على الإسلام.

أمن وتأمين القتال

على القائد المتميز أن يؤمن إعداد وحشد قواته وتحركها للمعركة المقبلة ويؤمن كذلك أعمال قتالها بما يضمن نجاح هذه الأعمال سواء كانت المعركة دفاعية أو هجومية.

وليس هناك من هو أكثر تميزاً وتفرداً من الرسول القائد ﷺ الذي أحيا أمة العرب بالإسلام ونظم دولتهم وأقام أول جيش إسلامي عقائدي ينتصر دائماً كلما تمسك بعقيدة التوحيد.

ومن أهم أعمال أمن القتال الحصول على معلومات كافية عن الخصوم قوتهم وأماكنهم واحتمال مقاتلتهم وفى نفس الوقت كتمان ما يجرى أعداده لجيش المسلمين وقد نجح الرسول القائد ﷺ تماماً في هذا المجال.

ومن أمن القتال أعمال الخداع التي برع فيها المسلمون بقيادة المصطفى ﷺ إذ أنه كلما هم بغزوة وري بغيرها أو تتحرك قواته دائماً في اتجاه آخر مخالف للاتجاه المطلوب.

لقد حقق المصطفى ﷺ نجاحاً فريداً في مفاجأة أعدائه بالحصول على المعلومات اللازمة عنهم وعن نواياهم وكتمان تحركاته وإظهار ما يخالفها كل ذلك من أجل تقليل خسائر الطرفين لأن الخصوم مهما كانوا سوف ينضمون يوماً ما إلى صفوف المسلمين إذا تركوا لاختيارهم الحر.

كما نال التأمين الإداري لمعارك المصطفى ﷺ كل عناية لدرجة أن الرسول القائد ﷺ كان يطمئن بنفسه على ركوب وتحميل المقاتلين للمعركة القادمة كما كانوا يطلبون منه ذلك مباشرة إذا لم يجدوا ما يحملهم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: (وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ)[1]

[1] سورة التوبة ـ الآية ٩٢

كما نال تدبير الطعام والماء عصب معارك الصحراء كل عناية من الرسول القائد ﷺ وهناك الكثير من الغزوات التي لعب فيها الماء دوراً هاماً في المعركة مثل غزوة بدر.

ومن التأمين الإداري المتميز للرسول القائد ﷺ سرعة تدبير السلاح المطلوب للمسلمين كما حدث في حصار الطائف إذ تم تدبير ما يسمى بالدبابات لحماية المقاتلين المسلمين من نيران المحاصرين في الطائف ثم رفع الحصار بعد ذلك لما فشلت هذه الدبابات في تحقيق الغرض منها.

الرحمة في الحرب بالجميع

إذا كان العالم لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب كما قال الكثير من المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون فإن العرب والعالم كله لم يعرف قائداً محارباً أرحم من الرسول القائد ﷺ.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۞إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) [1]

ومنها نفهم أن الرسول الرحيم ﷺ قد ألف القلوب حوله بالرحمة واللين والاستغفار لأصحابه ومشورتهم والتوكل على الله لذلك كافأه الله بالنصر الأكيد في كل أعماله.

كان الرسول الرحيم ﷺ حريصاً على المؤمنين بهم رؤوفاً رحيماً وكان الله بالناس جميعاً رؤوفاً رحيماً وكانت رسالة محمد ﷺ خاتم المرسلين رحمة للعالمين مؤمنين وغير مؤمنين.

ورحمة بالمؤمنين كان يختار النبي ﷺ للقتال معه من يستطيع ذلك ومن يتحمل مشاق القتال وكان يدبر وسائل نقل المقاتلين وحملهم وإن لم يكن في بيت المال ما يكفى قَبِل تبرعات أغنياء المسلمين أمثال عثمان بن عفان الذي جهز جيش العُسرة.

تجهيز الجيش وإعداده رحمة من الرسول ﷺ برجاله وحرصاً عليهم ولو كان هناك قائد غيره لاستغل حماسهم ورغبتهم في الشهادة ودخول الجنة بدفعهم للقتال غير مستعدين.

لم يكن مقاتلو جيوش الرسول القائد ﷺ انتحاريين كل همهم الموت في سبيل الله بل كان كل همهم الانتصار لله ولرسوله ﷺ ولعقيدة التوحيد.

---

[1] سورة آل عمران ـ الآيتين ١٥٩ ـ ١٦٠

كان للمسلمين جيشان جيش يقاتل بالسلاح وجيش من الدعاة يقاتل بالكلمة الطيبة وبالقدوة الحسنة.

كان الرسول القائد ﷺ رحيماً بالمشركين ففي غزوة بدر دفن قتلاهم وداوى جراح مصابيهم وأفرج عن أسراهم وأطعمهم وكساهم بشروط الفدية وتعليم أطفال المدينة وأمر بقتل أثنين فقط من الأسرى كانا مجرمي حرب أجرموا في حق المسلمين من قبل.

كم أفرج القائد الرحيم ﷺ عن الأسرى في غزواته المختلفة وكم قبل شفاعة من تشفع لديه في الأسرى وكم رد مالاً لأصحابه وكم أكرم من الأسرى الكثير منهم الشيماء بنت حليمة السعدية ووالد أبي بكر وكم تزوج من بنات خصومه المهزومين رحمة بعزيز قوم ذل واستمالة لنخوة العرب في المشركين حتى يرجعوا إلى رشدهم ألم يتزوج صفية بنت حيى بن أخطب الذي ألب اليهود جميعاً على رسول الله ﷺ.

كانت الرحمة الكبرى يوم فتح مكة يوم عفا ﷺ عمن أذاقوه والمؤمنين العذاب ألواناً وأشكالاً على مدى ١٣ عاماً قبل الهجرة للمدينة.

من في العصر الجديث وفى أي عصر عامل خصومه وأعداءه بمثل رحمة الرسول القائد ﷺ وكرمه وعطفه.

ألم يصفح ﷺ عن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان التي مزقت كبد عمه الحبيب حمزة بن عبد المطلب وعن زوجها الذي كاد يقضي على المسلمين والإسلام في غزوة الخندق بل وفى كل فرصة تسنح له. ألم يترك وحشي الحبشي قاتل عمه حمزة دون عقاب عندما هداه الله للإسلام.

لم تكن حروب الرسول القائد ﷺ مع خصومه حروب إبادة أو حروب مريرة ومدمرة بل كان كثيراً ما يسمح للخصوم بالفرار وكان يرفع الحصار عندما يطول كما فعل بالطائف. كان أسلوب الردع الذي أتبعه الرسول القائد ﷺ حاسماً للمعركة يجعلها تنتهي قبل أن تبدأ بالنصر للحق وللمسلمين.

أليس من الرحمة أن ينشب القتال بين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ وبين المشركين واليهود في تسع غزوات من ثماني وعشرين غزوة هي: بدر – أحد – الخندق – بني قريظة – بني المصطلق – خيبر – فتح مكة – حُنين – الطائف ، بينما فر المشركون في باقي الغزوات دون قتال.

وبذلك يتجنب الرسول القائد ﷺ بأساليبه القتالية بالعمل التعرضي والردع والمفاجأة ضراوة المعارك وخسائر لا داعي لها إذا حقق الهدف بوسائل أخرى غير الحرب.

أشتبك المسلمون بقيادته ﷺ في تسع غزوات فقط على مدى ٧ سنوات من بدر سنة ٢ هـ حتى تبوك ٩ هـ أي بمعدل غزوة واحدة تقريباً كل عام تدوم يوماً أو عدة أيام فقط فلم يكن الرسول القائد حاملاً سيفه لابساً لبس الحرب إلا عند الضرورة فقط.

أليس من الرحمة أن يكون كل شهداء غزوات وسرايا الرسول ﷺ حوالي ٤٠٠ شهيد فقط قامت على تضحياتهم دولة الإسلام وترسخت عقيدة التوحيد ونحن نرى اليوم القتلى بالألوف في كل مكان من العالم الإسلامي بسبب العدوان وبسبب الكوارث الطبيعية الزلازل والفيضانات والأمراض الوبائية.

الحسم

كان الرسول القائد ﷺ حاسماً في قراراته التي لا تنتظر التسويف أو التشاور لأن الحسم كان ضرورياً مع الأعداء كما فعل عندما تحرك المسلمون فوراً من خلف الخندق إلى حصون بني قريظة الذين غدروا وتآمروا مع المشركين لطعن المسلمين في الظهر.

وكان الرسول العظيم ﷺ حاسماً عندما تحرك من مكة بعد تحطيم أصنامها لغزوة حُنين ثم الطائف ثم رفع الحصار والعودة لمكة لأداء العمرة ثم العودة للمدينة.

وكان الرسول ﷺ حاسماً عندما ثبت كما لم تثبت الجبال يوم أُحد رغم إصابته وكما ثبت يوم حُنين يوم انخلعت القلوب وشمت مشركو مكة حديثو العهد بالإسلام عندما أنهزم المسلمون داخل المضيق.

كان ﷺ حاسماً في دومة الجندل ومؤتة وتبوك وإعداد جيش العُسرة وعندما ولىّ أسامة بن زيد آخر الجيوش في حياته المباركة.

كان ﷺ حاسماً عندما عقد صلح الحديبية لثقته في الله وفى صحة قراره بالصلح رغم تذمر بعض كبار الصحابة مثل عمر بن الخطاب.

كان رجال الرسول القائد ﷺ جاهزين دائماً مستعدين مدربين على القتال وعلى المسير راكبين أو راجلين في أصعب ظروف الحر والعطش في صحراء الجزيرة العربية الحارقة وكان هو ﷺ معهم دائماً يتقدم الصفوف ويتحمل المشاق أكثر مما يتحملون.

الشورى

كان من الممكن لخاتم المرسلين ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أن يتخذ قراراً فيما كل ما يجد له من أمور في الدين وفى السياسة وفى الحرب وكان من المتوقع والطبيعي أن يطيعه المسلمون في كل ما يأمر به أو يراه.

ولكنه عليه الصلاة والسلام أكد في كل موقف على مبدأ الشورى والاستماع إلى آراء وزرائه وصحابته. تشاور معهم في غزوة بدر عند اختيار مكان المعركة وتشارور معهم في التصرف في الأسرى والغنائم وتشاور مع صحابته خاصة الأنصار عن أسلوب ومكان الدفاع الأمثل عن المدينة المنورة وقررّ ﷺ كما أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق وشارك في الحفر بنفسه.

وتشاور ﷺ مع صحابته يوم الحديبية ولكنه لم يأخذ بآراء المتشددين انحيازاً إلى السلام ورغبة في تحقيق أهداف إسلامية بعيدة المدى لدعم حركة الدخول في الإسلام.

تشاور ﷺ في كثير جداً من الأمور ولكنه أختار الجانب الأصوب ولم يكن ليوافق على شيء لا يقتنع به ويرضى الخالق سبحانه وتعالى.

كان تطبيق مبدأ الشورى من جانب الرسول القائد ﷺ تعليماً للمسلمين بأن يتبعوا نهج الشورى فيما بينهم وليعلم حكام المسلمين في كل مكان وزمان الديمقراطية الإسلامية الحقة لأنه وهو المعصوم كان يشاور أصحابه في كثير من الأمور رغم أنه المعصوم والذي لا ينطق عن الهوى فهل يتعلم المسلمون ذلك أو يقتدوا به.

المساواة بين القائد والجنود في الأعباء

إذا تكلمنا عن الأعباء والمشاق البدنية فإن الرسول القائد ﷺ كان ينال نصيبه بأكثر مما يناله أي واحد من رجاله أو صحابته فقد شارك في كل الأعمال البدنية مثل السير مشياً في غزوة بدر فقد مشى الرسول الكريم ﷺ حوالي ٨٠ كم على قدميه ورفض الاستئثار بالبعير بدلاً من علي بن أبي طالب ومرثد الغنوي.

وشارك في بناء بيوته ومسجده وحفر الخندق حتى غطى التراب جلد بطنه الشريف وقطع المسافات راكباً أو ماشياً في كل الغزوات صيفاً وشتاء في الحر والبرد والعواصف وصعد الجبال وهبط للوديان كأي فرد من المسلمين ولو طلب من المسلمين حمله على أكتافهم لحملوه وهم سعداء بذلك.

إن القادة الآن وفى كل زمان ومكان كانوا يميزون أنفسهم بوسائل الراحة والمتع بل كان القادة العرب ورؤساء القبائل في الجاهلية يأخذون ربع الغنائم لأنفسهم وصحح الإسلام الوضع فأصبح نصيب الرسول ﷺ الخُمس لله ورسوله وكان القادة في كل زمان ومكان يميزون أنفسهم بالطعام والشراب وهو ما لم يفعله المصطفى ﷺ بل كان طعامه وشرابه أقل القليل بل ربما صام في الإقامة والسفر والقتال.

وعلى مدى ثلاثة عشر عاماً قضاها الرسول ﷺ في مكة قبل الهجرة تحمل من الأذى والإهانة أكثر مما تحمله أصحابه وشاركهم الحصار والمعاناة والألم.

وكما جُرح أصحابه واستشهدوا في معاركه تحمل من الجراح الكثير في أُحد وحُنين وكاد أن يُقتل ﷺ لولا رعاية وحماية الله له لاستكمال الدعوة.

ولا يزال حتى يومنا هذا يتلقى شخصه العظيم ﷺ من النقد والتجريح الكثير بغير حق ودون مبرر.

اللياقة النفسية والبدنية للرسول القائد ﷺ

الرسولُ الكريم ﷺ منذ بداية رضاعته في مضارب بني سعد مع حليمة السعدية وقيامه برعي الغنم وهو صغير واستمراره في تحّملِ المشاقِ وبذل الجهدِ البدني المضني الذي تنوء بحمله الجبال وتحمُلِ المسئوليات الجسام في استمرار الدعوة والدفاع عنها بالتي هي أحسن أو بالقوة إذا كان الخصوم لا يستحقون غير ذلك.

ولكن الله سبحانه وتعالى أعدّه لذلك وأعانه عليه. ولو تتبعنا كلَّ هذه المشاق بمقاييس عصرنا وما فيه من وسائلِ راحةٍ وتسهيلات مذهلة في الاتصال والتنقل لذهلنا من قدرته عليه السلام على إنجاز ما أنجز في سبيلِ الدعوة العالمية رغم الوسائل المادية البسيطة التي كان يمتلكها حينئذ.

منها فترةُ الحصار التي فرضتها قريش عليه ﷺ وعلى آله في أحد شِعاب مكة والتي امتدت لثلاث سنوات أي حوالي ١٠٠٠ يوم متصلة وهم قد يأكلون أوراق الشجر ويربطون على بطونهم ونحن الآن لا نطيق الجوع يوماً أو بعض يوم.

ومنها هجرته المباركة ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة وخروجه خفْية مع أبي بكر متجهاً للجنوب ثم الشمال ثم سارياً في دروب ملتوية غير مطروقة وترتيب أمور الطعام والنوم وقبلهما الصلاة خمس مرات في اليوم وما تتطلبه من الطهارة والصفاء.

ومنها الغزوات وأوّلها غزوة بدر الكبرى التي تبادل هو وأثنين من الصحابة ركوب دابة من المدينة المنورة لموقع الغزوة عند آبار بدر على مسافة كبيرة من المدينة المنورة. وفى غزوة بدر كذلك أبدى عليه السلام من القلق والترقّب والخوفِ على الدعوةِ وعلى تنفيذ المهمة التي كلّفه بها ربُّ العزةِ ما جعله دائم الدعاء لله والرجاء أن ينجزه وعده بالنصر وظهور الدين الحنيف رغم قلة المسلمين يومئذ.

ومنها رحلة الطائف جنوب مكة وكيف أُهين ﷺ فيها واحتمل طالما أن الله غير غاضب عليه وأنه يرجوه ويستعطفه حتى يرضى سبحانه وتعالى.

ومن المشاق البدنية – وكلها كانت تسعده وتعطيه الطاقةَ والقوةَ ويتحملها راضياً – كثرة العبادة خاصة قيام الليل حتى تورمت قدماه. ومنها كذلك الصيام فرضاً ونفلاً والذهاب للمسجد لأداء الصلوات الخمس متطهراً وهو يؤم المصلين لمدة ثلاثة

وعشرين عاماً متصلة لم يتخلف عن صلاة واحدة إلا قبل وفاته بيوم عندما دفع أبا بكر للصلاة إماماً بدلاً منه والرسول ﷺ عن يمينه.

ولو قرَّبنا الحساب لقلنا أنه عليه الصلاة والسلام قطع يومياً حوالي ثلاثين كيلو متراً لمدة ٦٣ عاماً هي عمره المبارك ولبلغ إجمالي المسافة التي قطعها حوالي ٧٥٠ ألف كيلو متر قطعها كلها ماشياً أو راكباً دابته على مدقات صحراوية لا زرع فيها ولا ماء ولا إنارة بالليل. وقطع الكثير أيضاً في حرارةٍ شديدة تتميز بها كل من مكة والمدينة وصحراء الحجاز وعلى شفتيه دائماً تسبيح الله وحمده.

كذلك شارك ﷺ بنفسه في جمع الحطبِ لإعدادِ الطعامِ وفى حفر الخندق وفى بناء المسجد وكان يَسهُل على غيره أن يكلِّف أصحابه أن يكفوه مؤونة كل ذلك.

كذلك قاتل ﷺ المشركين وأصيب يوم أُحد وهو القائد بين رجاله وجنوده وثبت يوم حُنين يوم ولَّى المسلمون في البداية رغم كثرتهم.

والرسولُ الكريم ﷺ كان قويَّ البدنِ صحيحه قادراً على تحمل المشاق وكان عرقه في الصيف أو في الحر له رائحة المسك وأطيب. كما كان نادر المرض لم يمرض إلا مرض الوفاة.

كان الرسول ﷺ رجلاً حيَّاً حاضراً متواجداً كلَّ الوقتِ بين صحابته وآل بيته بالحديث والاستماع والتنقل من مكان لآخر ليصل هديه مباشرة إلى المسلمين جميعاً دون وساطة أو تليفون أو فاكس أو مذياع أو تليفزيون ولو أرسل ﷺ رسلاً يختار أفضل صحابته لأشق المهام وأدقها.

كان الرسول ﷺ داعياً إلى الله ورئيس دولة وقائد جيش وربَّ أسرة وقد أدّى كل ذلك كأكمل ما يكون الأداء. وقد قال ﷺ ما معناه عند وفاته: "الآن لا كرب بعد اليوم يا فاطمة" عليه الصلاة والسلام.

كان الرسول ﷺ بحق إمام المجاهدين في سبيل الله لتبليغ الدعوة وفى سبيل إسعاد البشرية بتبليغها رسالة الحق والتوحيد. وقد عقد من المعاهدات وأرسى من المبادئ ما تصلح للحياة في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية.

كان ﷺ يولِّى أحب الناس إليه أصعب المهام رغم علمه باحتمال استشهادهم. فقد بارز علي بن أبي طالب عند الخندق وكان رجل المواقف الصعبة والخطيرة. وقُتل عمه

حمزة يوم أُحد وجعفر ابن عمّه في غزوة مؤتة بعد زيد بن حارثة حبيب الرسول وابنه بالتبني وكثير غيرهم من أهله وأصحابه الأجلاء. أليس في ذلك نوع من الألم النفسي لفقد الأحبة ولكن كان عزاؤه أنهم شهداء في الجنة وأن الله ناصره في دعوته.

هذا الرسول ﷺ الأب الذي يموت كل ذريته في حياته عدا السيدة فاطمة التي كانت أول اللاحقين به بعد موته.

اللهم صلِ وسلم عليه وأجْزِهِ عنا وعن كل مسلم خير الجزاء.

الرسول القائد ﷺ والحرب العادلة

الحرب العادلة هي حرب توجه ضد شعب ارتكب ظلماً نحو شعب آخر ولم يشأ رفعه. ويشترط فيها أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية وتكون لغرض تحقيق سلم دائم ووجوب احترام حياة وأملاك الأبرياء وحسن معاملة الأسرى والرهائن.

الحرب العادلة هي حرب دفاعية لا عدوانية ، تستهدف تحقيق سلم دائم ، أغراضها إنسانية ، تحترم حياة وأملاك الأبرياء ، وتعامل الأسرى والرهائن بالحسنى.

إن شروط الحرب في الإسلام كما أرساها المصطفى ﷺ قبل أربعة عشر قرناً كانت أكثر عدلاً مما تنص عليه مصادر القانون الدولي في القرن العشرين ، فهي بالإضافة إلى ذلك لا تثيرها العنصريات ولا حب الأمجاد ، وليست لأغراض مادية أو استعمارية ، وتدافع عن حرية الرأي والعقيدة.

حروب الرسول ﷺ حروب دفاعية

ارتكبت قريش كل الظلم والعدوان ضد المسلمين عندما كانوا في مكة ، فلم يبق هناك مجال للمسلمين غير ترك أموالهم وأهليهم والهجرة من مكة إلى الحبشة أولاً وإلى المدينة أخيراً تخلصاً من هذا الظلم والعدوان.

هاجر أكثر المسلمين من مكة فراراً بعقيدتهم فقط ، تاركين فيها كل ما يملكونه من أهل ومال ، وكان أكثر هؤلاء المهاجرين من الذين حمتهم عصبتهم من أن يصيبهم ما أصاب المستضعفين في الأرض من المسلمين الذين عذبتهم قريش ولقوا مصارعهم من جراء هذا التعذيب.

حتى الرسول ﷺ نفسه ، لاقى التكذيب والإهانة ، واستمع بصبر عجيب إلى دعايات قريش الكاذبة ضده ومكافحتها العنيفة للدين الجديد.

وقد نجا الرسول ﷺ من مؤامرة قريش المحكمة التي دبرتها لاغتياله ، كما نجا من مطاردة قريش له في هجرته من مكة إلى المدينة متحملاً المشاق والأهوال.

لم يقاتل الرسول ﷺ عدواً إلا مضطراً لقتاله ، وكل غزواته كانت لرد اعتداء خارجي أو داخلي أو لإحباط نية اعتداء ، ولم يجد من عدو ميلاً للسلام إلا بادر إلى تشجيع هذا الميل ، والارتباط بهذا العدو بالمعاهدات.

إن دراسة أسباب غزوات الرسول ﷺ بروح محايدة بعيدة عن الهوى ، تثبت أن المسلمين لم يعتدوا على أحد ، لأن الله لا يحب المعتدين.

كما أن تلك الدراسة تثبت أن المسلمين لم يريدوا بقتالهم إكراه الناس على الدخول في الإسلام ، فقد بقي كثير من رجالات قريش على الشرك بعد الفتح وشهدوا مع الرسول ﷺ في غزوة حُنين وكان المسلمون يعرفون أن هؤلاء لا يزالون على عقيدتهم الأولى ، ومع ذلك لم يجبرهم أحد على تبديل دينهم.

ألم يكن بإمكان المسلمين أن يجبروا هؤلاء على اعتناق الإسلام ، بعد أن استسلمت قريش وفتحت مكة أبوابها للمسلمين ؟؟

إن القول بأن هدف القتال في الإسلام هو نشر الدعوة هراء لا يستند إلى الواقع ، ولكن هدف القتال هو حماية حرية نشر الدعوة ، وحماية الدعوة ، وإقرار السلام ، وشتان بين الهدفين !

ومع أن الحرب الإسلامية دفاعية لأنها بعيدة عن الظلم والعدوان إلا أن هذا الدفاع غير ثابت ، بل هو دفاع هجومي مرن كما يسمى في المصطلحات العسكرية الحديثة، ومعناه أن المسلمين لا يبدأون بالاعتداء ، ولكنهم يدافعون عن أنفسهم ضد كل اعتداء بالهجوم المضاد المسبق لسحق قوات المعتدين.

حروب الرسول ﷺ لدعم السلام

أظهر مشركو المدينة ويهودها بعد هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ميلاً إلى السلم ، فشجع الرسول ﷺ هذا الميل السلمي وعقد معهم معاهدة أمنت لجميع سكان المدينة حرية الرأي والأمن.

وقد حالف الرسول ﷺ كل قبيلة أظهرت رغبتها في السلام كما فعل مع بني ضمرة في غزوة ودّان ومع بني مدلج في غزوة العشيرة ومع قريش في غزوة الحديبية.

بل كان الرسول ﷺ يبذل كل جهده لتحقيق أهدافه السلمية ، حتى لو أدى ذلك إلى اعتراض قسم من أصحابه ، كما حدث في غزوة الحديبية.

إن السلام يضمن الاستقرار ، وقد انتشر الإسلام في فترة صلح الحديبية – وهي فترة سلام – انتشاراً عظيماً بين الناس لم ينتشره في أيام الحرب ، بل إن انتشاره في أيام السلام كان أضعافاً مضاعفة لانتشاره في أيام القتال.

إن السلم في الإسلام هي القاعدة الثابتة ، والحرب هي الاستثناء.

ولكن الإسلام يدعو للسلام لا للاستسلام : يسالم من يسالمه ويعادي من يعاديه ، ولكنه لا يعتدي على أحد ولا يظلم أحداً ، ولا يرتضي للمسلمين الظلم والعدوان.

معارك الرسول ﷺ حرب إنسانية

احترام الأبرياء:

لم يتعرّض الرسول ﷺ لغير المقاتلين في غزواته ، وحرص على صيانة واحترام أرواح وأموال الأبرياء.

لما استسلم بنو قريظة قتل المسلمون الرجال الذين قاتلوهم فعلاً ، لأنهم خانوا عهودهم وعرّضوا المسلمين للفناء. أما الأطفال والنساء من بني قريظة فلم يصابوا بأذى كما أن الذين ثبتوا على عهودهم من يهود لم يصابوا بسوء أيضاً.

والمرأة الوحيدة التي قُتلت من بني قريظة ، هي التي قتلت مسلماً بقذفه بالرحي من فوق سطحها وإنما كان قتلها عقاباً لها على جنايتها هذه كما هو واضح ومعروف.
ولما خرج المسلمون لغزوة مؤتة أوصاهم النبي ﷺ بألاّ يقتلوا النساء والأطفال والمكفوفين ولا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار.

الأسرى والرهائن :

أسر المسلمون سبعين أسيراً من قريش في غزوة بدر فقسّم الرسول ﷺ ثمانية وستين أسيراً من هؤلاء على أصحابه قائلاً: "استوصوا بالأسارى خيراً".

ثم فادى ﷺ أغنياء الأسرى بالمال أما الفقراء فأطلق ﷺ سراح قسم منهم دون مقابل وكلّف المتعلمين منهم بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة ثم أطلق ﷺ سراحهم بعد تعليمهم هؤلاء الأطفال.
ولكن الرسول ﷺ أمر بقتل أسيرين من السبعين أسيراً لأنهما أجرما في حق المسلمين وعذبا المستضعفين منهم وشنّعا على الإسلام فكان قتلهما لجرائمهما لا لأنهما أسيران.

إن هذين الأسيرين كانا "مجرمي حرب" كما يطلق عليهما في التعابير العسكرية الحديثة وعقابهما كان جزاء لما جنت أيديهما من ذنوب وآثام.

كما فادى الرسول ﷺ الأسيرين اللذين وقعا بأيدي سرية عبد الله بن جحش فأسلم أحدهما وعاد الثاني أدراجه إلى مكة آمناً.

ذلك ما طَبّقه المسلمون بحق الأسرى وهو ما ينطبق على أحدث قوانين معاملة الأسرى في العصر الحاضر.

أما الرهائن ، فلم يروِ التاريخ أن المسلمين اعتدوا عليهم لأن الرهائن أمانة وفي القرآن الكريم:
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)[1]

الجرحى والقتلى :

كان قسم من أسرى المشركين في غزوة بدر الكبرى جرحى. وقد اعتنى المسلمون بتمريضهم وعنايتهم بجرحى المشركين سواء بسواء.

ولم يهمل المسلمون أمر الاعتناء بجرحى أعدائهم في كل غزواتهم ، لأن هذا الاعتناء قضية إنسانية والإسلام دين الإنسانية جمعاء.

وقد دفن المسلمون قتلى المشركين في بدر كما دفنوا شهداءهم ولم يتركوهم في العراء.

أما المشركون فقد مثلوا بشهداء المسلمين في أحد أفظع تمثيل.

---

[1] سورة الأنفال - الآية ٢٧

معارك الرسول ﷺ حرب عقيدة

لا أغراض شخصية :

لم تُعلن الحرب في الإسلام لأغراض شخصية لأن الإسلام في حقيقته دعوة للمصلحة العامة وتقديم للصالح العام ولو أدّى ذلك إلى تناسي مصالح الأشخاص.

ولم تُعلن هذه الحرب لأطماع شخصية وحب السيطرة والأمجاد فقد بعثت قريش عتبة بن ربيعة وهو رجل رزين هادئ فذهب إلى رسول الله ﷺ يقول له: "يا ابن أخي! إنك منّا حيث علمت من المكان والنسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها. إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا". ولكن الرسول ﷺ لم يكترث بكل هذا الإغراء.

لقد كان الرسول ﷺ يردد دائماً قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)[1] ولم يترفع أبداً عن الفقراء والضعفاء والمساكين والخدم وسيرته ﷺ في كل ذلك مضرب الأمثال.

إن حماية حرية نشر العقيدة هي التي أثارت الحرب في الإسلام ولم يكن من أسباب إثارتها الأغراض الشخصية من بعيد أو قريب.

حرب لا عنصرية :

ليس الإسلام ديناً لقبيلة دون قبيلة ولا لأمة دون أُمة ولا للعرب دون العجم. ولكنه للناس جميعاً ـ للعالمين ـ (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي

---

[1] سورة الكهف ـ الآية ١١٠

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[1] فالإسلام يعمل لفكرة جليلة فكرة وحدة الإنسانية تحت لواء الإسلام.

إنه دين يقاوم العصبية والتعصب ويكافح العناصر والأجناس لأنه يريد أن يجمع العالم كله على صعيد واحد: لتوحيد كلمتهم وتوحيد الله.
"إنما المؤمنون إخوة" و "ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى" و"سلمان منا آل البيت" كلها معناها إن الإسلام قومية ودين تنصهر فيه كل قومية وكل دين هو دنيا ودين.. سيف وكتاب.. مذهب في الحياة.

كان الرسول ﷺ من قريش ولكنه قاتل قريشاً حين اعتدت على المسلمين وكان عربياً ولكنه قاتل قومه العرب دفاعاً عن الإسلام.

ولما تصدى الروم لعرقلة دعوته ﷺ قاتلهم. وعندما التحق ﷺ بالرفيق الأعلى قاتل خلفاؤه الفرس والروم وغيرهم من الأقوام والأجناس.

والذين كانوا أعداء المسلمين على اختلاف قومياتهم وأجناسهم قبل إسلامهم انصهروا بعد إسلامهم بالمسلمين فأصبح عليهم ما على المسلمين ولهم ما للمسلمين.

إن الإسلام ساوى بين الناس في الدنيا والآخرة.. أمام الناس وأمام الله "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

<u>حرب لا مادية :</u>

لم يكن من أغراض القتال في الإسلام الاستحواذ على المادة والبحث عن الأسواق والخامات واسترقاق المرافق وفرض الاستعمار.

خرج المسلمون للتصدي لقافلة أبي سفيان بن حرب العائدة من الشام في غزوة بدر الكبرى لأنهم أرادوا أن يحرموا قريشاً من طريق مكة ـ الشام التجارية فيؤثرون بذلك على حالتها الاقتصادية حتى يخففوا من غلواء عدوانهم على المسلمين.

[1] سورة الأعراف ـ الآية ١٥٨

ولكن تلك القافلة أفلتت من أيديهم ومع ذلك اصطدمت قواتهم بالمشركين وكان بإمكانهم العودة إلى المدينة بأمن وسلام بكل يسر وسهولة.

ولو كانت القضايا المادية هي التي دعتهم للخروج إلى بدر لعادوا أدراجهم عندما علموا بوصول قافلة قريش سالمة إلى مكة.

وبعد غزوة حُنين انتظر الرسول ﷺ حوالي شهر قدوم وفد هوازن إليه ليعيد إليهم ما غنمه المسلمون من أموالهم ولكنهم لم يحضروا فاضطر ﷺ إلى تقسيم الغنائم وأعاد السبي إلى وفد هوازن الذي وصل بعد تقسيم الغنائم على الناس.
ولكن ما هو نصيب الرسول ﷺ من الغنائم؟ إنه الخُمس. وهذا الخُمس مردود عليهم لأنه يُصرف في مصالحهم العسكرية وغير العسكرية فهل أبقى الرسول ﷺ لنفسه شيئاً من المال؟

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: "لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب".

إن الأهداف الرفيعة تتعب الأجساد والنفوس في الحصول عليها ، وقد أتعب الرسول ﷺ نفسه وأهله وأصحابه في سبيل أهداف الإسلام ليكون أسوة حسنة للمسلمين في كل زمان ومكان.

معارك الرسول ﷺ حرب مثالية

إن تعريف الحرب العادلة كما تنص عليه مصادر القانون الدولي - بالرغم من أنه حبرٌ على ورق بالنسبة لكل الحروب قديماً وحديثاً - قاصر عن الوفاء بحق تعريف القتال في الإسلام.
إن أصح تعبير يمكن إطلاقه على تلك الحروب هو الحروب المثالية.

مثالية: لأن أهدافها الدفاع عن حرية الرأي وتوطيد أركان السلام ، تصون أرواح وأموال الأبرياء والضعفاء ، وتعطف على الأسرى والرهائن ، وتواسي المرضى والجرحى ، ولا تُمثل بالقتلى بل تدفنهم كقتلاها ولا تثيرها الأغراض الشخصية ولا العصبية ولا المنافع المادية ولا الاستغلال والاستعمار.

فإذا لم تكن هذه الحرب مثالية فأي حرب في التاريخ كله يمكن أن يطلق عليها هذا التعبير؟

لا عجب إذن إذا استطاعت هذه الحرب أن تسيطر على العقول بالمثل العليا قبل أن تسيطر على الحصون والقلاع بالسلاح والرجال.

إن هذه الحرب المثالية جعلت جراح المغلوبين تلتئم بسرعة فينضمُون طائعين إلى الغالبين ليكون الغالبون والمغلوبون جميعاً تحت راية واحدة هي راية الإسلام.

ولو كانت حرباً ظالمة لما دام الظلم لأن الظلم لا يدوم وإن دام دمّر الغالب والمغلوب فهل يفقه الظالمون ذلك أم على قلوبهم أقفالها؟!

ولكنها كانت حرباً عادلة إلى حدود المثالية فاستجاب العرب لأهدافها العالية ثم حملوا رسالة تلك الأهداف إلى العالم واستجاب لها الفرس والروم وكثير من الأمم والقوميات الأخرى ثم حملوا بدورهم مشعل هدايتها شرقاً وغرباً فاستنار الشرق بنور الإسلام على حين كان الغرب في دياجير الجهل والظلام.

حماية الأسرى والحفاظ على البيئة

الإسلام دين رحمة وعدل حتى في أحلك المواقف في الحرب لا يدعو إلى الانتقام وسفك الدماء بل يأمر بحسن معاملة الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين.

عن كيفية معاملة الأسرى في الإسلام والحكمة من هذا الأسر يقول الدكتور طه عبد الجواد أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٧/٣/١٣:

"من سنن الحرب أن يكون هناك قاتل ومقتول وأسير ومأسور لكن ما يميز الإسلام هو سماحته في معاملة الأسرى. فلا ينبغي للمسلمين أن يلحقوا بهم الأذى أو يعذبوهم بضرب أو جوع أو عطش أو تركهم في الشمس أو البرد أو لسعهم بالنار المحرقة أو تكميم أفواههم وآذانهم وأعينهم ووضعهم في أقفاص الحيوانات بل يجب أن يعاملوهم برفق ورحمة وإطعام وترغيب في الإسلام فقد قال تعالى في صفات الأبرار في سورة الإنسان الآية رقم ٨ (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) وهذه الآية جاءت حين أمر رسول الله ﷺ صحابته يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم في الغداء".

ويضيف إن حبس الأسير في الإسلام سياسة لإستبانة المصلحة فلإمام المسلمين حبس الأسرى حتى يرى فيهم وجه المصلحة فإما أن يقبل منهم الفداء بالمال أو يبادلهم بأسرى مسلمين أو يبقوا لتحقيق منفعة للمسلمين سواء في التعليم أو الخدمات المختلفة أو أن يطلقهم عفواً منه.

والحكمة من الأسر هو كسر شوكة العدو ودفع شره بإبعاده عن ساحة القتال لمنع أذاه فالغاية منه إذن هي الاحتراز والتحفظ وليس الانتقام وقد كان الروم ومن قبلهم الآشوريون والفراعنة يفقأون عيون الأسرى بمسامير ويسلخون جلودهم ويطعمونهم الكلاب حتى كان الأسير يتمنى الموت على هذه الحياة إلى أن جاء النبي ﷺ فأوصى بالأسرى خيراً وقصة تمامة بن أثال خير شاهد على ذلك فقد كان سيد بني حنيفة ووقع في الأسر فربطوه في سارية المسجد وكان النبي ﷺ يمر عليه كل يوم يسأله عن حاله وثمامة يعرض على رسول الله ﷺ الفداء بالمال إلى أن أطلقه رسول الله ﷺ وعفا عنه فذهب إلى نخل قريب من المسجد فأغتسل ثم رجع إلى النبي ﷺ وأعلن إسلامه فالمعاملة الحسنة هي التي اقتادت ثمامة إلى الإسلام.

ويقول الدكتور عبد الفتاح إدريس أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر: "أسرى الحروب وفق ما عرفت به اتفاقية جنيف بشأن معاملة الأسرى المبرمة في ١٩٤٩/٨/١٢ والتي تضمنت مائة وسبع مواد تنظم ما أستقر عليه دولياً في شأن

معاملة الأسرى من ناحية مفهوم الأسير وابتداء أسره ووضعه في أثناء الأسر وحقوقه وواجباته أثناءه وعلاقته بغيره والعقوبات التي توقع عليه وقد جاء في مادة ١٣ من الاتفاقية: "يجب معاملة أسرى الحرب معاملة إنسانية في جميع الأوقات ويحظر أن تقترف الدولة الحاجزة أي فعل أو إهمال غير مشروع يسبب موت أسير في عهدتها ولا يجوز تعريضه للتشويه البدني أو التجارب الطبية أو العلمية مما لا تبرره المعالجة الطبية له ويجب حماية أسرى الحرب في جميع الأوقات من أعمال العنف أو التهديد والسباب وفضول الجماهير وتحظر تدابير الاقتصاص من أسرى الحرب" وجاء في مادة ١٤ منها أن: "لأسرى الحرب حقاً في احترام أشخاصهم وشرفهم في جميع الأحوال".

وإذا نظرنا إلى ما تلزم به مواد هذه الاتفاقية الأطراف التي وقعت عليها والسلوك الذي تتبعه مع أسراها وجدنا تنكبا صارخا على أحكامها وأقرب الأمثلة على هذا التنكب ما تتبعه أمريكا مع المحتجزين في جوانتانامو وأبو غريب سواء اعتبرتهم أسرى حرب أو غير ذلك وما تتبعه إسرائيل مع الفلسطينيين وغيرهم وما أتبعته مع أسرى مصر في حرب ١٩٦٧ والذي بلغ حد قتلهم وهم عزل من السلاح.

لقد كانت مبادئ الإسلام في شأن معاملة الأسرى أسمى من ذلك وكان سلوك أتباعه مثالاً يحتذى في حسن معاملة الأسرى حتى وجدنا المسلمين قاطبة يطلقون سراح أسرى بني المصطلق بدون فدية ويمن رسول الله ﷺ على كثير من أسرى بدر فيطلق سراحهم بدون عوض ويوصي ﷺ أصحابه بحسن معاملة من أسر منهم حتى لقد بلغ حد اختصاصهم بأطايب الطعام وإيثارهم على أنفس من أسروا عندهم فقد روي عن أبي عزيز بن عمير أنه قال: "كنت في الأسارى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ استوصوا بالأسارى خيراً وكنت في نفر من الأنصار وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز بوصية رسول الله ﷺ إياهم" بل ثبت أنه ﷺ كان يتولى كسوة من لم يكن له كساء مناسب من الأسرى.

كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم كسا بعض الأسارى من ملابسه وكان يطعمهم ويسقيهم بيده الشريفة ولما كانت غزوة بني قريظة وكان حكم الله تعالى فيهم أن يقتل مقاتلهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم رأى رسول الله ﷺ أسراهم موقوفين في القيظ تحت أشعة الشمس فأمر بوضعهم في مكان ظليل قائلاً: "لا تجمعوا عليهم حر هذا اليوم وحر السلاح قيلوهم حتى يبردوا" ولما وقعت ابنة حاتم الطائي في أسر المسلمين أشار إليها علي بن أبي طالب أن تحدث رسول الله ﷺ في شأن المن عليها فقالت: "يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فأمنن علي منّ الله عليك" قال ﷺ : "قد فعلت" ثم كساها رسول الله ﷺ وأركبها دابة وأعطاها نفقة لرحلتها حتى تصل إلى قومها ولم

يؤثر عنه ﷺ أو أحد من المسلمين أنه عنف أسيراً من أجل معتقده أو سامه سوء العذاب لأجل فكره أو نكل به لمخالفته له في الدين أو نحو ذلك وإذا سلمنا جدلاً أن ما يتبع الآن في معاملة الأسرى من هؤلاء هو تطبيق للاتفاقات الدولية التي تفرض أن يعامل الأسير معاملة سوية فهل من السوية في المعاملة انتهاك آدميته ومقدساته واحتقار شعائر دينه والاعتداء على عرضه وإيذائه بسبب فكره ومعتقده وتقييد حريته بدون جريرة فأين هذا من معاملة الأسرى في الإسلام إن هذا وغيره يسطر للإسلام صفحة ناصعة في شأن معاملة الأسرى ونهجاً لم تعرفه الإنسانية في عصور تقدمها وازدهارها ومناداتها بحماية حقوق الإنسان واحترام آدميته.

لقد أتى الرسول القائد ﷺ بأقواله وأفعاله في معاملة الأسرى ما لم يأت به أحد من قبل ومن بعد في حسن معاملة الأسرى والعطف عليهم.
الحقوق الأساسية التي أقرها القانون الدولي الإنساني لأسرى الحرب

أسرى الحرب.. تحت رحمة العدو أم في ظل القانون؟

كان الأسرى على مر العصور عرضة للتنكيل بهم ففي العصور القديمة تعرضوا للقتل والتشويه أو الاستعباد بينما كانوا يسجنون أو يحتجزون مقابل فدية في العصور الوسطى، وفي القرن السابع عشر عومل الأسرى للمرة الأولى كما لو كانوا سجناء لدى الدولة وليسوا ملكية خاصة للآسرين. ومع ذلك استمر سوء معاملة أسرى الحرب خلال القرن التاسع عشر وعقب الحرب العالمية الثانية تمت محاكمة عدد كبير من الضباط الألمان واليابانيين وأدينوا لقتلهم أو لسوء معاملتهم أسرى الحرب.. فما هي القواعد التي أقرها القانون الدولي لحماية أسرى الجرب من بطش الأعداء؟ هذا السؤال الذي سنسعى إلى إجابته في السطور التالية..

من هو الأسير؟

يعتبر المقاتلون أسرى من لحظة وقوعهم عاجزين عن القتال في قبضة العدو وحددت المادة الرابعة من اتفاقية جنيف الثالثة ست فئات يندرج تحتها أسرى الحرب وهي:

١. أفراد القوات المسلحة.
٢. حركات المقاومة المنظمة.
٣. أفراد القوات المسلحة الذين يعلنون ولائهم لحكومة أو سلطة لا تعترف بها السلطة الحاجزة.
٤. الأفراد المصاحبون للقوات المسلحة دون أن يكونوا أعضاء بها.

5. أفراد الأطقم البحرية التجارية والطيران المدني التابعون لأطراف النزاع في حالة عدم تمتعهم بمعاملة أكثر ملاءمة طبقاً لأحكام القانون الدولي.
6. سكان الأراضي غير المحتلة الذين يحملون السلاح لدى اقتراب العدو بهدف مقاومة الغزو.

وأوضحت الفقرة الثانية من المادة الخامسة أنه "في حالة تولد أي شكوك بشأن ما إذا كان الأشخاص الذين اقترفوا فعلاً قتالياً ووقعوا في أيدي العدو ينتمون إلى أي من الفئات المنصوص عليها بالمادة الرابعة، يتمتع هؤلاء الأشخاص بحماية هذه الاتفاقية لحين تقرير وضعهم القانوني بواسطة محكمة مختصة".

<u>من المسئول عن الأسرى؟</u>

أقرت المادة ١٢ أن "أسرى الحرب يقعون تحت سلطة الدولة المعادية لا تحت سلطة الأفراد أو الوحدات العسكرية التي أسرتهم" وبمعنى آخر تتحمل الدولة الحاجزة كافة المسئوليات عما قد يحدث للأسرى المحتجزين بواسطة أفراد القوات التابعة لها وبما لا يعفي أحداً منهم من المساءلة عما قد يترتب عن انتهاكهم لأحكام الاتفاقية.

<u>حقوق الأسرى:</u>

1. الحق في "المعاملة الإنسانية في جميع الأوقات" - مادة ١٣.
2. حظر ارتكاب "أي فعل أو إهمال غير مشروع يسبب موت أسير حرب أو يهدد صحته على نحو خطير" - مادة ١٣.
3. الحماية من "أعمال العنف أو التهديد ومن السباب" - مادة ١٣.
4. الحق في "احترام أشخاصهم وشرفهم" - مادة ١٤.
5. حظر ممارسة "أي تعذيب بدني أو معنوي أو أي شكل آخر من أشكال الإكراه" - مادة ١٧.
6. الإجلاء بأسرع ما يمكن خارج مناطق القتال والتكفل بإعاشتهم - مادة ١٥ - ١٩ - ٢١.
7. حظر استخدام السلاح ضد أسرى الحرب "إلا كتدبير أخير يجب أن يسبقه دائماً الإنذارات المناسبة للظروف" - مادة ٩٢.
8. حظر "إرغام الضباط على العمل" - مادة ٤٩.
9. حظر تشغيل الأسرى في الأعمال التي تصب مباشرة في دعم المجهود الحربي أو التي تشكل خطراً على حياتهم أو صحتهم - مادة ٥٠ - ٥٢.
10. الحق في مراسلة ذويهم - مادة ٧٢.

١١. الحق في التقدم بشكواهم إلى السلطات العسكرية المختصة بالدولة الحاجزة - مادة ٧٨.

واجبات الأسير:

١. الخضوع للقوانين واللوائح والأوامر السارية في القوات المسلحة بالدولة الحاجزة.
٢. الإدلاء لدى استجوابه بكامل اسمه ورتبته العسكرية وتاريخ ميلاده ورقمه بالجيش أو الفرقة أو رقمه الشخصي أو المسلسل فإذا لم يستطع فبمعلومات مماثلة.
٣. تأدية التحية لضباط الدولة الحاجزة (حسب القواعد والأقدمية).
٤. الالتزام بمراعاة الأقدمية وتسلسل الرتب فيما بين الأسرى وبعضهم البعض.
٥. القيام بالأعمال المكلفين بها طالما كانت في نطاق الأعمال المسموح بها.

وقد استقرت تلك الأحكام في الضمير الإنساني فصارت قانوناً عرفياً ملزماً لكافة أعضاء الأسرة الدولية سواء الدول التي أقرتها أو التي لم تقرها حتى الآن.

فهل زاد القانون الدولي واتفاقيات جنيف بشأن الأسرى شيئاً على ما فعله الرسول القائد ﷺ منذ أكثر من ١٣٥٠ سنة من احترام ورعاية للأسرى؟

من تعليمات الرسول القائد ﷺ وأصحابه بشأن الأسرى

ويرجع حسن معاملة الأسرى لسببين السبب الرئيسي والأول هو الدافع الإنساني والإحسان إلى الإنسان مهما كانت أسباب عداوته ومنها الحرب والسبب الثاني وهو تحبيب الأسرى في الإسلام وإحباط أي دوافع انتقامية لهم ضد المسلمين وكما جاء في سورة الإنسان ـ ولنلاحظ أن اسمها الإنسان ـ أوصى الله سبحانه وتعالى بإطعام الأسرى

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)[1].

كان أعداء الإسلام يحاربون الرسول القائد ﷺ بعد ذلك لما رأوا حُسن معاملته للأسرى في بدر بهدف النصر على المسلمين أو الوقوع في أسر المسلمين وهم يضمنون حُسن معاملتهم والرفق بهم بل وإطلاق سراحهم ولو بدون فدية كما كان أعداء المسلمين يعرفون جيداً أن الرسول القائد ﷺ نهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ ونهى ﷺ عن تدمير المنازل والأشجار وأن الرسول الكريم ﷺ سيترك لهم أوطانهم ومصادر رزقهم دون تهديد أو تخريب محافظاً في كل حروبه على البيئة والطبيعة التي خلقها الله قائلاً للمقاتلين: "انطلقوا باسم الله وبالله وعلى بركة رسول الله. لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا امرأة ولا تغلوا وضعوا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين" أو كما قال.

أباح الإسلام الحرب لكنه هذبها ولطف من حدتها ووضع لها ضوابط تتجاوز كل ما وضعته المدنية بمراحل كثيرة. فالحرب يجب أن تكون لغرض مشروع كالدفاع عن الأرض والوطن لا لهوى ملك ولا لأطماع رئيس. وأن تكون الرحمة شعار المؤمنين فلا يقتلون طفلاً ولا شيخاً ولا رجل دين ولا مستسلماً ولا امرأة ولا أحداً من خدم المحاربين ولا أن يحرقوا دور أعدائهم أو يقطعوا أشجارهم وأن لا يسرفوا في استثمار انتصارهم فلا يجردوا المغلوبين من حقوقهم ولا يصادروا أموالهم ولا يضطهدوهم لدينهم ولا يتقاضوا منهم إلا الجزية وهي مبلغ من المال كما قال المستشرق دوزى في كتابة تاريخ الفرق الإسلامية يقل كثيراً عما كانت تتقاضاه منهم حكومات تلك الأمم المغلوبة.

والمسلمون يفعلون هذا انطلاقاً من أوامر نبيهم ﷺ الذي كان إذا بعث جيشاً أو سرية أوصى صاحبها بتقوى الله خاصة نفسه ثم قال: "اغزوا باسم الله ، قاتلوا من كفر بالله

---

[1] سورة الانسان ـ الآية ٨

ولا تقتلوا وليداً ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم وادعوهم إلى التحول من ديارهم إلى ديار المهاجرين فإن فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم وإلا فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين وليس لهم في الفيء ولا في الغنيمة فإن أبوا - أي الإسلام - فادعوهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم".

لقد كان قادة قريش ورؤوس الكفر فيها يهددون الإسلام بالإبادة لكنهم عندما وقعوا في الأسر في غزوة بدر أمر رسول الله ﷺ بالإحسان إليهم وأوصى المهاجرين والأنصار: "استوصوا بالأسارى خيراً" وأمر ﷺ بإطعامهم وحُسن معاملتهم. وأخذ ﷺ منهم الفداء وجعل ﷺ فداء من ليس معه مال تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة كي يمحو الأمية من المجتمع الإسلامي وجاء القرآن ليؤكد على هذا

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا)[1]

فقد ساوى بين ثواب كافل اليتيم وبين مطعم الأسير والنبي ﷺ يقول "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين" فالإسلام يحمي الضعفاء ولا يكره أحداً على الدخول فيه ولكنه يأمر المسلم عندما يُعتدى على دينه وعرضه ومقدساته أن يهب للدفاع عن نفسه وللأسف هذا ما لا نفعله. فالرسول ﷺ أخرج اليهود من المدينة ثأراً لعرض وشرف امرأة مسلمة علق يهودي طرف ثوبها في رقبتها فانكشفت عورتها ونحن نرى بناتنا وأمهاتنا وأطفالنا ورجالنا يهانون ويغتصبون ويقتلون في العراق وفلسطين ولا نتحرك بل نستنكر ونشجب!

إن الإسلام يرى أن المسلم الذي يخالف تعاليمه بالهجوم على أسير أو إذلاله يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة ولكن ماذا فعلنا عندما قتل اليهود أسرانا في ١٩٥٦ و ١٩٦٧؟ وماذا فعلنا عندما أغتصب الأمريكان العراقيين والعراقيات؟ إن الحضارة الغربية تنزلق والإمبراطورية الأمريكية تحفر قبرها بيديها بعد أن تملكهم غرور القوة. ولكن ماذا عنا نحن الضعفاء والمستسلمين؟ إنني أدعو الله أن يعيد المسلمين إلى دينهم ولكن (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)[2] ولا حول ولا قوة إلا بالله !!؟!

---

[1] سورة الانسان - الآيتين ٨ - ٩

[2] سورة يونس - الآية ٩

الجهاد في الإسلام
كما شرعه الرسول العظيم ﷺ وطبقه في حياته

من رد شيخ الأزهر على هجوم بابا الفاتيكان على الإسلام ورسوله العظيم ﷺ في مجلة الأزهر ذي القعدة ١٤٢٧:

حقائق الجهاد في الإسلام :

الحقيقة الأولى :

أن كلمة "الجهاد" في اللغة العربية مشتقة من الجهد بمعنى التعب والمشقة وبذل نهاية الطاقة في الوصول إلى أمر معين أو في الحصول على مطلوب محدد كالحصول على المال أو على التفوق في لون معين من ألوان العلوم.

وقد يكون بذل هذا الجهد حسياً كما نرى في المسابقات الرياضية وما يشبهها وقد يكون معنوياً عن طريق التغلب على الخصم بالحجة الناصعة وبالأدلة الساطعة وبالبراهين التي تخرس الخصوم.

ومن ذلك قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)[1]

والضمير في قوله سبحانه "به" يعود إلى القرآن الكريم.

والمعنى: لقد آتيناك يا محمد القرآن الكريم المشتمل على كل ما يحق الحق ويبطل الباطل فتسلح به وما دام الأمر كذلك: فلا تطع الكافرين فيما يريدونه منك من أقوال باطلة ومن أفعال فاسدة بل ابذل – أيها الرسول الكريم – جهدك في تبليغ ما أنزل إليك من ربك وجاهد الكافرين بهذا القرآن جهاداً كبيراً لا تكاسل معه بأن تذكر لهم من آيات هذا القرآن الكريم ما يزهق باطلهم ويفضح أكاذيبهم.

وقد قسم العلماء الجهاد في شريعة الإسلام إلى ثلاثة أقسام:

فهناك جهاد النفس ومعناه: منعها من الوقوع فيما نهى الله عنه وإلزامها بالوقوف عند حدوده وبأدائها للتكاليف التي كلفنا – سبحانه – بها قال تعالى

---

[1] سورة الفرقان ـ الآية ٥٢

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)[1]

وهناك جهاد الشيطان ومعناه: مخالفته مخالفة تامة فيما يزينه للإنسان من قبائح وما يحسنه له من رذائل.
قال تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)[2]

وهناك جهاد الظالمين والمعتدين والمفسدين في الأرض عن طريق إزالة ظلمهم ودحر عدوانهم والقضاء على إفسادهم في الأرض بكل الوسائل التي شرعها الله تعالى لنصرة الحق وإزهاق الباطل.

ومن الآيات القرآنية التي جمعت هذه الأقسام الثلاثة لمعنى الجهاد في شريعة الإسلام قوله سبحانه:
(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[3]

ومعنى الآية الكريمة بإيجاز: والمؤمنون الصادقون الذين جاهدوا وبذلوا أقصى جهدهم في طاعتنا وفى صيانة أنفسهم عن كل ما لا يرضينا وفى مخالفتهم للشيطان وفى قتال أهل الظلم والعدوان لنهدينهم إلى الصراط المستقيم لأن سنتنا أن نرعى المحسنين وأن نجعل النصر في النهاية للمتقين.

وكبار الباحثين في أوروبا لم يبذلوا جهداً يذكر في الرجوع إلى معجم من معاجم اللغة العربية أو القرآن الكريم من أجل معرفة المعنى الحقيقي للكلمة وقد أصبح سوء الفهم ذلك شائعاً.

والجهاد والمجاهدة يعنيان استفراغ الجهود. والجهاد ثلاثة أقسام:

- الأول: مجاهدة العدو الظاهر.
- الثاني: مجاهدة الشيطان.
- الثالث: مجاهدة النفس.

---

[1] سورة الشمس ـ الآيات من ٧ إلى ١٠
[2] سورة فاطر ـ الآية ٦
[3] سورة العنكبوت ـ الآية ٦٩

الحقيقة الثانية : أن الأصل في شريعة الإسلام هو السلام. أما الجهاد بمعنى القتال فأمر طارئ لا يلجأ إليه إلا عند مقاومة العدوان ودحر الظلم والتخريب والبغي والعصيان.

ومن الأدلة على ذلك أن لفظ "الإسلام" الذي اختاره الله تعالى ليكون الدين المقبول عنده فقال: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ) [1]

هذا اللفظ وهو "الإسلام" مأخوذ من مادة السلام وهذان اللفظان – الإسلام والسلام – يلتقيان معاً في وجوب توفير الأمان والاطمئنان والتعاون على البر والتقوى بين الناس ، الذين ينحدرون جميعاً من أصل واحد كما قال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [2]

وهذا اللفظ "السلام" قد تكرر في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثين موضعاً.

ومن بركات لفظ "السلام" أنه اسم من أسماء الله الحسنى كما في قوله تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [3]

وأنه التحية التي يتبادلها أهل الإيمان فيما بينهم بأن يقول المسلم لغيره عند لقائه به: "السلام عليكم" أي: الأمان لنا ولكم.

وفى الحديث الشريف قال ﷺ: "إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأماناً لأهل ذمتنا".

المسلم خلال صلاته يقرأ الفاتحة وما تيسر من قرآن ويسلم على النبي ﷺ وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين فإذا ما فرغ من صلاته قال عن يمينه: "السلام عليكم ورحمة الله" وعن شماله كذلك.

---

[1] سورة آل عمران ـ الآية ١٩
[2] سورة النساء ـ الآية ١
[3] سورة الحشر ـ الآية ٢٣

والتحية التي يتلقاها المؤمنون من خالقهم وهم في الجنة: السلام. قال تعالى:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)[1]

وتحية الملائكة للمؤمنين عند دخولهم الجنة: السلام وقد ورد ذلك في آيات منها قوله عز وجل:

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[2]

ومنها قوله سبحانه:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)[3]

وتحية الملائكة للمؤمنين وهم في الجنة السلام. قال تعالى:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)[4]

والمؤمنون دعاؤهم في الجنة التسبيح وتحية الله وملائكته وفيما بينهم السلام كما في قوله سبحانه:

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[5]

وخطاب المؤمنين بعضهم لبعض في الجنة السلام. قال تعالى:

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)[6]

---

[1] سورة الأحزاب ـ الآية ٤٤
[2] سورة النحل ـ الآية ٣٢
[3] سورة الزمر ـ الآية ٧٣
[4] سورة الرعد ـ الآيتين ٢٣ ـ ٢٤
[5] سورة يونس ـ الآية ١٠
[6] سورة مريم ـ الآية ٦٢

وقال تعالى:

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا)[1]

وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر: (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)[2]

ودار السلام هو اسم من أسماء الجنة كما في قوله سبحانه:

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[3]

ودعاء الرسول ﷺ الذي كان يردده كثيراً: "اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام"

وبذلك يتبين لكل عاقل أن شريعة الإسلام تعتبر السلام بين الناس هو الأساس الذي تقوم عليه العلاقات الإنسانية فيما بينهم أما الجهاد بمعنى القتال فهو أمر طارئ لا يستعمل إلا عندما تدعو الضرورة إلى ذلك.

<u>الحقيقة الثالثة :</u>

أن جميع الغزوات وجميع السرايا التي تمت في عهد النبي ﷺ كانت لدفع الظلم ولإزالة العدوان ولم تكن في يوم من الأيام من أجل الأطماع أو البغي أو التعطش إلى سفك الدماء أو تخويف الآمنين والأدلة على ذلك كثيرة منها على سبيل المثال:

<u>في غزوة بدر:</u> وهي أول حرب في الإسلام كان مشركو قريش هم الذين أشعلوها وهم الذين تسببوا فيها ولم يكن من المسلمين إلا قبول التحدي ورد التعدي!!

كان المشركون هم الذين أشعلوها وتسببوا فيها لسبب رئيسي ـ سكت عنه كثير من المؤرخين ـ وهو أن المشركين بعد هجرة النبي ﷺ وكثير من أصحابه إلى المدينة المنورة صبوا نار عدوانهم وظلمهم على المسلمين الذين بقوا في مكة لعدم قدرتهم على الهجرة إلى المدينة وما زال طغيانهم عليهم يزداد يوماً بعد يوم حتى عيل صبرهم وطفح كيل بلائهم وأخذوا يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء ويقولون:

---

[1] سورة الواقعة ـ الآيتين ٢٥ ـ ٢٦

[2] سورة القدر ـ الآية ٥

[3] سورة يونس ـ الآية ٢٥

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا)[1]

وأجاب الله تعالى دعاء هؤلاء المسلمين الذين ظلوا في مكة ولم يستطيعوا اللحاق بإخوانهم المهاجرين وأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار أن يسارعوا لنصرة إخوانهم المستضعفين وقال لهم بأسلوب فيه ما فيه من الحض على نصرة المظلومين:

(وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ)[2]

أي قاتلوا أيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار من أجل إعلاء كلمة الحق ومن أجل نصرة إخوانكم الذين لم يستطيعوا الهجرة والذين ظلمهم أعداؤهم من مشركي مكة ظلماً شنيعاً جعلهم يستغيثون في صرخات عالية ويقولون في دعائهم: يا ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها.

وهنا لبى النبي ﷺ وأصحابه أمر خالقهم وهبوا لنجدة إخوانهم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان وهيأ الله تعالى الأسباب لغزوة بدر التي سماها القرآن بيوم الفرقان والتي انتصر فيها الحق على الباطل والعدل على الظلم والإيمان على الشرك والفسوق والعصيان.

<u>والخلاصة:</u> أن غزوة بدر ـ وهي أول قتال بين المؤمنين والمشركين ـ كانت من أجل نجدة المظلومين وإغاثة الملهوفين من الرجال والنساء والولدان الذين لم يستطيعوا الهجرة إلى المدينة المنورة فبغى عليهم مشركو مكة فهيأ الله تعالى الأسباب لنصرة هؤلاء المستضعفين في غزوة بدر.

<u>وفي غزوة أحد:</u> لم يخرج المسلمون لقتال أحد وإنما مشركو مكة بعد عام تقريباً من هزيمتهم في بدر جمعوا جموعهم في أكثر من ثلاثة آلاف رجل ومعهم حلفاؤهم من القبائل الأخرى ومعهم الدفوف والمعازف والخمور واصطحب كبراؤهم نساءهم وخرج الجميع وهم مصرون على محاربة المسلمين وواصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى قرب المدينة المنورة واجتمع المسلمون حول رسول الله ﷺ يتدبرون أمرهم: أيخرجون لقتال أعدائهم الذين اقتربوا من المدينة المنورة؟ أم يستدرجونهم إلى أزقة المدينة حتى إذا دخلها المشركون قاتلهم الرجال في طرقاتها وقاتلتهم النساء من فوق أسطح البيوت؟

---

[1] سورة النساء ـ الجزء الثاني من الآية ٧٥

[2] سورة النساء ـ الجزء الأول من الآية ٧٥

وكان الرسول ﷺ يميل إلى الرأي الثاني أما الشباب فكان رأيهم الخروج إلى الأعداء وقتالهم خارج المدينة.

وما زالوا يلحون على الرسول ﷺ في الخروج حتى طاوعهم ﷺ وحدث ما حدث في هذه الغزوة من استشهاد عدد كبير من المسلمين.

وفي غزوة الأحزاب: تجمع أكثر من عشرة آلاف رجل من قبائل متعددة واتجهوا نحو المدينة للقضاء على الإسلام وعلى المسلمين وساعدهم على ذلك بعض زعماء اليهود.

وبلغ النبي ﷺ ذلك فاستشار أصحابه فيما يصنع أمام هذا الجيش الحاقد الباغي؟ فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة وبدأ المسلمون بتنفيذ هذه الفكرة في الأماكن التي يمكن للمشركين أن ينفذوا منها.

ولقي المسلمون تعباً شديداً في حفر الخندق وكان النبي ﷺ يشاركهم في ذلك.

ووصل المشركون إلى المدينة وبدأ القتال بالنبال وانتهى الأمر بهزيمة المعتدين وارتدادهم على أعقابهم وكان حالهم كما قال الله تعالى:
(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)[1]
وهكذا غزوات الرسول ﷺ كانت إما لنصرة المظلوم وإما للدفاع عن العقيدة وعن النفس وعن الكرامة الإنسانية ولم تكن أبداً للظلم أو العدوان.

الحقيقة الرابعة: أن شريعة الإسلام وضعت للقتال شروطاً ألزمت المؤمنين بها وأمرتهم بتطبيقها وجاءت هذه القيود وتلك الشروط في آيات منها قوله سبحانه:
(وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ)[2]
ولفظ القتال معناه: محاولة الرجل قتل من يحاول قتله والمقاتلة: محاولة كل واحد من المتعاديين قتل الآخر. وقوله سبحانه (وَلاَ تَعْتَدُواْ) نهى عن الاعتداء بشتى صوره ويدخل فيه دخولاً أولياً الاعتداء في القتال. والاعتداء: مجاوزة الحد فيما أمر الله تعالى به وفيما نهى عنه.

---
[1] سورة الأحزاب - الآية ٢٥
[2] سورة البقرة - الآية ١٩٠

والمعنى: وقاتلوا - أيها المؤمنون - من يقاتلكم وينتهك حرماتكم ولا تعتدوا بأن تقتلوا الآمنين من الرجال والنساء والصبيان ومن يشبهونهم من الشيوخ والمرضى وأصحاب الأعذار واعلموا أن الله يكره المعتدين على غيرهم.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: "ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول لأصحابه: "اغزوا في سبيل الله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع – أي ولا تقتلوا المتفرغين للعبادة".
وفى الصحيحين عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: "وُجدتْ امرأة مقتولة في بعض الغزوات فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان".

وأوصى أبو بكر الصديق أسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام لقتال أهل البغي فكان مما قاله: "لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقطعوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع – وهم الرهبان – فاتركوهم وما فَرَغوا أنفَسهم له".

ومن هذه الآيات التي تدل على أن شريعة الإسلام قد وضعت للقتال شروطاً وضوابط قوله تعالى:
(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝)[1]

والمعنى: إن الله عز وجل بفضله وإحسانه يمنع عن عباده المؤمنين عدوان الملحدين والفاسقين لأنه – سبحانه – لا يحب كل خوان للأمانة جحود لنعم ربه.

ثم رخص الله للمؤمنين في الدفاع عن أنفسهم وفى قتال أعدائهم الذين ظلموهم وبشرهم بأنه على نصرهم لقدير لأنه كتب على نفسه أن يجعل العاقبة الحسنة لعباده المؤمنين الصادقين.

---

[1] سورة الحج - الآيات من ٣٨ إلى ٤٠

ثم بيّن – سبحانه – بعض الأسباب التي شرع لها الجهاد لنصرة الحق فقال:
(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ)[1] وبدون سبب من الأسباب سوى أنهم كانوا يقولون ربنا وخالقنا الله تعالى وحده.

ولولا أن الله تعالى يسلط على الطغاة من يذلهم ويردهم لعاثوا في الأرض فساداً ولهدموا أماكن العبادة من صوامع الرهبان ومن كنائس النصارى ومن معابد اليهود ومن مساجد المسلمين التي يؤدون صلاتهم فيها ولينصرن الله تعالى من ينصر دينه وأولياءه إن الله قوى عزيز.

فهذه الآيات قد بينت بوضوح وبأسلوب حكيم أن الله تعالى يدافع عن عباده المؤمنين وأنه – عز وجل – قد أباح لهم قتال الطغاة المفسدين الذين ظلموا أهل الإيمان وطردوهم من ديارهم ولولا ما شرعه الله من أحكام عادلة لدحر أهل الباطل لفسدت الأرض.

الحقيقة الخامسة:
أن شريعة الإسلام تحبب لأتباعها المصالحة والموادعة وتأمرهم بقبول إنهاء الحرب وإيقافها متى طلب أعداؤهم ذلك مادام هذا الإنهاء أو الإيقاف لا ضرر من ورائه للمؤمنين.
قال تعالى:
(وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)[2]

والآية الكريمة تشجيع للنبي ﷺ على السير في طريق الصلح مادام فيه مصلحة للمسلمين وتبشير له بأن النصر سيكون له حتى ولو أراد الأعداء بإظهار الميل إلى السلام المخادعة والمراوغة.

الحقيقة السادسة:
أن شريعة الإسلام تجعل للحرب آداباً لابد من التزامها والتقيد بها.. ومن هذه الآداب الوفاء بالعهود والمواثيق فمتى عاهد المسلمون قوماً على أمر معين وفوا به وفاء تاماً.

---
[1] سورة الحج - الآية ٤٠
[2] سورة الأنفال - الآيتين ٦١ - ٦٢

ولقد ضرب الرسول ﷺ أروع ألوان الوفاء ومن أمثله ذلك أنه ﷺ كان من بين شروط الحديبية "أن من جاء إلى المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يردونه".

فأوفدت قريش أبا رافع إلى رسول الله ﷺ فوقع الإيمان في قلبه فقال: "يا رسول الله ﷺ لا أرجع إلى قريش وأبقى معكم مسلماً" فقال له ﷺ: "إني لا أنقض العهد فارجع إليهم آمناً فإن وجدت بعد ذلك ما أنت فيه الآن فارجع إلينا".

ومن هذه الآداب النهي عن قتل من لا يقاتل وتحريم المثلة وتحريم الإجهاز على جريح وتحريم قطع الزروع والثمار وتلويث الآبار وهدم البيوت ومعاملة الأسرى معاملة حسنة وإذا طلب الأمان أي فرد من الأعداء المحاربين قُبل طلبه وصار بذلك آمنا لا يجوز الاعتداء عليه بأي وجه من الوجوه لقول الله تعالى:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ)[1]

والمعنى: وإن طلب الأمان منك يا محمد ﷺ أحد من المشركين فأجبه إلى طلبه لكي يسمع كلام الله ويتدبره فإن آمن بعد سماعه لكلام الله صار من أتباعه وإن بقى على كفره وأراد الرجوع إلى موطنه فعليك أن تحافظ عليه حتى يصل إلى مكانه واستقراره.

<u>والخلاصة:</u> أن الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا من أجل الدفاع عن الحق ومن أجل نصرة المظلوم ومن أجل نشر الأمان والسلام في الأرض ومن أجل تأديب الأشرار الذين لو تُركوا بدون عقاب لفسدت الأرض.

والذين يقولون غير ذلك نرد عليهم بقوله تعالى:

(مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)[2]

---

[1] سورة التوبة ـ الآية ٦

[2] سورة الكهف ـ الآية ٥

الفصل الرابع

الرسول القائد الأرحم ﷺ
والقادة الآخرون

الرسول القائد ﷺ القدوة والمعلم

الحرب كما هو معروف قمة الدراما الإنسانية حيث يلتقي خصمان بأسلحتهما كل منهما يحاول هزيمة الآخر والنيل منه والإستيلاء على أرضه وأسلحته وممتلكاته والبشر أيضاً وفرض إرادته عليه.

وفى الحرب يختلف سلوك الإنسان عنه فى السلم فقد لاحظنا مثلاً أن بعض الجنود المشاغبين كثيري المشاكل والتغيب عن المعسكر فى السلم وعندما نشبت الحرب اختلفوا وأظهروا بطولة وتضحية عندما وجدوا وطنهم فى خطر وبعض الجنود المثاليين فى السلم إنهاروا وحاولوا الفرار وربما البكاء.

لذلك عندما نظر الصحابة رضوان الله عليهم إلى رسولهم ﷺ ربما قالوا هذا الرجل الرسول الخاتم المعصوم يخرج يقاتل معنا وربما يسبقنا إلى لقاء العدو ويشاركنا الإعداد والمسير وتبادل ركوب الدواب والحفر ويشاركنا قلة الطعام والمياه وقسوة حر الصحراء وبرد الشتاء كل ذلك أدى بهم إلى الإلتصاق به ﷺ وتعظيمه كرسول بشر وصدعوا بأمره وهم راضون مستعدون للتضحية فى سبيل العقيدة التي جاء بها هذا الرسول القائد.

فى الحرب التصق به ﷺ الصحابة ليلاً ونهاراً وفى كل حركة وعمل وراقبوه عن قرب وتعلموا منه وأخذوا منه القدوة ليس بالوحي المنزل من السماء فقط أو بأحاديثه الشريفة وإنما بكل حركة وسكون أداها أمامهم وعلى مرأى ومسمع منهم.

خرج من بعده ﷺ وهو أول وأعظم قائد مسلم قادة مسلمون شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لتحرير الناس والشعوب من ذل العبودية لغير الله مقتدين بكل ما سمعوا وما رأوا ثم ربى الجيل الأول من القادة المسلمين جيلاً آخر وأستمر هذا الإقتداء بالرسول ﷺ ينتقل من قائد مسلم لآخر إلى يومنا هذا وسيظل ينتقل إلى أن تقوم الساعة.

تعلم القادة الذين تخرجوا فى مدرسته العسكرية الإنضباط والطاعة والنظام وبذل الجهد ومشاركة الجنود وعدم التأفف من أي عمل صغير أو كبير يقومون به. لقد كان الصحابة يحاولون دائماً رفع المشقة عن الرسول ﷺ ولكنه كان يأبى دائماً إلا أن يشارك فى كل شيء مثل أي فرد منهم رغم أعباء القيادة وما تتطلبه من جمع معلومات وتحليلها وإعطاء التعليمات وتوزيع الفيء والتحفظ على الأسرى والإطمئنان إلى طعام الرجال وشرابهم وربما الإطمئنان إلى طعام الدواب وشرابها وإلى حسن رعاية الأسرى كذلك.

لقد رأى الصحابة والقادة المسلمون منهم بعد ذلك بأعينهم ذلك الرجل الرسول القائد ﷺ الذى لُقب بالصادق الأمين قبل البعثة وتألقت شمائله وأخلاقه العظيمة بعد البعثة إزداد تألقاً فى الحرب كقائد للأمة وقائد لجيوشها وأدار معاركه وغزواته بسهولة ويسر وتحمل أعباءها وادارها أيضاً كأعظم قائد رحيم وعادل وإنسان عرفه التاريخ.

يقول الحق سبحانه وتعالى عن رسوله الرحيم :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝ إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ۝)[1]

وهكذا وفى كل المواقف كان الصحابة يتحلقون فى دوائر حول رسول الله ﷺ أقرب الدوائر إليه دائرة الصحابة الكبار الخلفاء الراشدين والمبشرين بالجنة والقادة العسكريين الذى فتحوا فى المشرق والمغرب ورواة الحديث وعلماء الدين المتفقهين فيه وتتوالى الدوائر بعد ذلك كلٌ حسب فضل الله عليه وقربه من الرسول ﷺ وكل يأخذ من نوره قدر إستطاعته وإستعداده ولم يقل أحد منهم للرسول القائد ﷺ أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.

---

[1] سورة آل عمران - الآية ١٥٩ - ١٦٠

الرسول القائد ﷺ والقادة الآخرون لا وجه للمقارنة

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون وفى هذا الذكر القرآن العظيم الخالد سجل الله سبحانه بكلامه معظم غزوات الرسول القائد ﷺ ومعاركه بدءاً من الإذن بالقتال حتى نهاية الغزوات وسمى سورة واحدة باسم غزوة الاحزاب.

كانت معارك الرسول ﷺ تدار بقيادته على مرأى ومسمع من الحق سبحانه وتعالى وبتوجيهات منه ووصف لما يدور فيها وتحليل أسباب النصر والهزيمة وإبلاغ الرسول ﷺ عن المنافقين والمشركين وأهل الكتاب الذين ينقضون العهود ويقتلون الأنبياء.

سيظل القرآن وفيه معارك الرسول ﷺ وتصرفاته وأداء جنوده المدعمين من الله بجنده والملائكة يتلى ويتعبد به ويقرأ فى الصلوات الخمس والنوافل ويُدعى ويتقرب به إلى الله عز وجل إلى يوم القيامة.

حارب الرسول ﷺ حرباً فعلية فى غزوات لا تزيد عن التسع ولأيام معدودة كل عام من أعوام الهجرة فلم يكن ﷺ متفرغاً إلا للدعوة إلى التوحيد ولكن دائماً يحتاج الحق إلى قوة تحميه خاصة إذا كان الباطل له أنياب ومخالب ومدجج بالأسلحة والأموال والحلفاء.

وأقتدى القادة المسلمون العظام برسولهم القائد ﷺ الذين حضروا معه المعارك والذين لم يحضروا ولكنهم قرأوا القرآن وسمعوا السيرة النبوية والأحاديث الشريفة فكانوا أرحم القادة وأكثرهم بحثاً عن الحرية للشعوب لتختار العقيدة التى تريدها.

والقادة الآخرون قبل محمد ﷺ وبعده كانوا يبحثون عن مجد زائف وخلود فى التاريخ حتى أنهم انشأوا المدن والمواقع وسموها بأسمائهم والقادة المنتصرون سعدوا بالهتاف والتمجيد ولو كان الثمن مقتل مئات الألوف من البشر من الاعداء والاصدقاء على السواء بينما سمى الرسول القائد ﷺ يثرب المدينة المنورة ولم يسمها مثلاً مدينة محمد ولم يسم أحد من خلفائه وقادته أيا من المدن أو المواقع بأسمائهم لأنهم كانوا يجاهدون فى سبيل الله أقتداء برسولهم العظيم ﷺ.

لقد أدى محمد بن عبد الله ﷺ الأمانة وبلغ الرسالة وأسس دولة على أسس متينة وراسخة ستبقى إلى يوم الدين وكان كل شهداء المسلمين فى كل معاركه لا يزيدون عن حوالي ٤٠٠ شهيد وربما كان قتلى الخصوم الذين قاتلهم الرسول القائد ﷺ لا

يزيدون عن مثل هذا العدد فأين ذلك من القتلى بمئات الألوف والملايين فى الحروب التى يشعلها من يوصفون بالقادة العظام والأبطال على مر التاريخ.

الرسول القائد ﷺ وموسى وعيسى عليهما السلام

خلق الله البشر ويعلم ميلهم للإقتتال والعدوان فأراد أن يشرع للحرب بينهم لتكون إن وقعت الحرب حرباً عادلة ومثالية وإنسانية لا حرب تدمير وتخريب وقتل وظلم فأذن لخاتم رسله محمد ﷺ بالقتال دفاعاً عن الإسلام وإحقاقاً للحق بعد الهجرة وبعد تحمل رسوله ﷺ الأذى على مدى ١٣ عاماً بمكة وسيكون التشريع الإسلامى على يد الرسول القائد ﷺ وبهداية من الله هدى للبشرية جميعاً خاصة المسلمين.

وعلى مدى حوالي ٩ سنوات قضاها الرسول الخاتم ﷺ فى المدينة يدافع عن الإسلام بدءاً من غزوة بدر حتى جيش أسامة بن زيد كان الرسول الخاتم ﷺ يشرع وينظم أعمال الحشد والتحرك والقتال ودفن الشهداء والقتلى وتنظيم توزيع الفيء والغنائم وينظم شئون الأسرى كل ذلك على مرأى ومسمع من الحق سبحانه وتعالى يأمره بأشياء ويقره على أشياء ويمده بالمعلومات ويمده بالمدد من جند الله المتنوعة ويحذره من المنافقين ويحذر الجنود المسلمين من الإغترار بالقوة كما حدث فى حنين.

وقد قيض الله لرسوله الكريم ﷺ الصادق الأمين الحشد الكثير من المؤمنين المستعدين للقتال مع الرسول القائد ﷺ لنصرة الحق والإسلام ورسالة التوحيد لم يترددوا فى القتال معه ضد المشركين والكفار واليهود ناقضي العهود أصحاب الغدر الدائم والخيانة المتأصلة فى نفوسهم.

يقول سبحانه وتعالى فى وصف المؤمنين المقاتلين:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)[1]

ويقول سبحانه وتعالى فى وصف الرسول القائد ﷺ ورجاله:

(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ

---

[1] سورة الأحزاب ـ الآية ٢٣

يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[١]

هؤلاء المؤمنون المجاهدون من المهاجرين والأنصار الذين قالوا لرسول الله ﷺ يوماً ما: (انا لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون وإنما نقول لك إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون) رضي الله عنهم جميعاً.

أما موسى عليه السلام فإنه عندما خرج من مصر بأمر الله بعد أن أنجاه الله وبني إسرائيل من فرعون وجنوده الذين طاردوا بني إسرائيل حتى ماء بحر "سوف" بين خليج السويس والبحيرات المرة فى مصر فرّق الله لهم البحر بقدرته وأغرق فرعون وجنوده وابقى جثته إلى يومنا هذا دليلاً على عظمة الله وعلى هذه الموقعة.

ثم أمرهم موسى بعد ذلك بأن يقاتل الفريق الذى لم يتخذ العجل إلهاً بعد عبور الماء الفريق الذى أتخذه إلهاً لعل الله يتوب عليهم وبعد كثير من القتلى من الطرفين أمر موسى بوقف القتال طالباً لهم العفو من ربهم.

وعندما قارب موسى ببني إسرائيل حدود فلسطين أرسل إثنى عشر رجلاً من رجاله يستطلعون أرض وأهل فلسطين وعادوا قائلين لرسولهم إن سكان فلسطين رجال أقوياء عمالقة كبار الأجسام جبابرة لا قبل لهم بهم ولن يستطيعوا دخول فلسطين بالقوة. فقال لهم موسى إن الله أمرنا أن ندخل الأرض فنقاتل أهلها ووعدنا أن تكون لنا والله لا يُخلف وعده ولكنهم رفضوا الدخول وعاندوا وقالوا إنا لا نستطيع الدخول أبداً.

ورغم محاولات موسى عليه السلام لحضّهم على الدخول كان جوابهم يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ورغم كل محاولات الرسول الكريم إلا أنهم قالوا قولتهم المشهورة إنا لن ندخلها أبداً ما دامو فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون وبذلك وفي حياة موسى لم يقاتل بنو إسرائيل إلا بعضهم البعض ولم يقاتلوا أبداً عدواً لله أو مشركاً.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

[١] سورة الفتح ـ الآية ٢٩

(قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)[1]

ويقول سبحانه وتعالى:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[2]

أما المسيح عليه السلام فقد سعت إليه الجماهير الغاضبة لمقتل يحيى المعمدان فى الجليل تطالب المسيح بالمعاونة فى الحصول على رأس هيرودوس والثأر للرسول يحيى وتلح عليه أن يقودها فى ثورة دامية تقضي على عرش الظالم وانضم إلى الثائرين بعض سكان جنوب فلسطين ولو كان المسيح من طلاب الدنيا لإستطاع بإشارة منه أن يقضي وهو صاحب المعجزات الباهرة على سلطان الملك هيرودوس ولكن المسيح الداعى دائماً للسلام خيب آمال الثائرين للإنتقام ليحيى المعمدان.

وفى حجه الأخير لأورشليم كثر الجدل والنقاش بين سكان الشمال والجنوب بشأن ذلك الناصري الذى جاء مصدقاً بالمعجزات وانقلبت المدينة إلى معسكرين هذا من شيعته وهذا من عدوه وبدت بوادر الصدام بين الفريقين ولكن السيد المسيح فضل الخروج من أورشليم قبل أن تشتعل نار الفتنة فخرج منها ليلاً وحيداً وصعد إلى جبل الزيتون.

---

[1] سورة المائدة ـ الآيتين ٢٤ و٢٥

[2] سورة يونس ـ الآية ٩٠

الإسكندر فاتح العالم القديم

والفاتح الذى لم يقهر

منذ حوالي ثلاثة وعشرون قرناً شن الإسكندر الأكبر المقدوني حرباً قاسية على بلاد الفرس ومصر والهند والبعض يقول إنه كان يحلم بتوحيد البشرية فى ظل حكومة واحدة وآخرون يؤمنون بأن الإسكندر كان مصاباً بجنون العظمة والسيطرة، ألم يدّع أنه من نسل الآلهة وأى آلهة هذه التى تتناسل والبعض لا يزال يعتقد أنه أراد أن ينشر حضارة اليونان وعلومها فى أنحاء الدنيا.

ولد الاسكندر عام ٣٥٦ قبل الميلاد وولد المصطفى ﷺ عام ٥٧٠ ميلادية والفاصل بينهما ٩٢٦ عاماً وهى ليست طويلة فى عمر البشرية والمصطفى ﷺ لم يتعلم منه شيئاً حربياً أو غير حربي وإنما علمه ربه.

أوتى الإسكندر من القوة والذكاء ما مكنه فى خلال عمره الذى تجاوز الثلاثين بقليل من فتح الممالك والشعوب المعروفة حينئذ عدا الصين وإيطاليا وقتل مئات الألوف وأخذ ألوف الأسرى وخرب ودمر ألوف القرى والمدن ليقال الفاتح العظيم وهو الملك بن الملك.

لقد سلطه الله على دارا الثالث فى معركة إسوس الذى سمى نفسه ملك الملوك فهزمه وأسر والدته وزوجته وابنتيه ولكن الفاتح العظيم تعامل مع كبار أسراه من الملوك معاملة طيبة ولكنه أذاق ألوف الأسرى من جنود الأعداء صنوف العذاب والهوان.

وكان يحاول أن يصنع من نفسه إنساناً كاملاً فتتلمذ على يد فيلسوف اليونان أرسطو وأحب الشعراء وأكرمهم وكان يحارب أعداءه كالمجنون كما يقول المؤرخون وقاد الجيوش ونظمها وهو فى السابعة عشرة من عمره.

هذا القائد العظيم أهان والده الملك فيليب كثيراً ثم عاد وإنتقم من قتلة والده ثم ورثه وهو فى العشرين من عمره وشتان بين سيرة هذا القائد وسيرة الرسول ﷺ الذى لم يهن أحداً ولو من أعداء الإسلام.

أطلق الاسكندر إسمه على كثير من المدن فى العالم وهناك عشرات المدن تحمل اسم الإسكندرية وقدم القرابين لكل الآلهة فى كل الدنيا ولم يعترض على أحد منها ربما لعدم إيمانه بها جميعاً.

كان قائداً عسكرياً فذاً دوخ أعداءه وأرهق جنوده حتى أنه قطع حوالي ١١ ألف ميل فى تحركاته ومعاركه.

عبر الدردنيل والأنهار وتسلق الجبال والأسوار وكون جيشه من الكتيبة المقدونية التى تشبه القوات الخاصة الآن وكتائب رماة النبال وكتائب المشاة المسلحة بالرماح وحارب أكثر من ست سنوات قبل أن يعود لوطنه وفى معركة واحدة خسر الفرس أمامه ٢٠ ألف قتيل من المشاة و٢٥٠٠ فارس لا لسبب إلا للمجد الشخصي وجنون العظمة وأوهام السيطرة وإذلال الأعداء.

إستخدم الإسكندر المنجنيق وقاذفات اللهب وإبتكر الكثير من الأسلحة ومهمات القتال وأدوات ركوب الخيل.

لقد خدعه كهان مصر فى واحة سيوة عندما أكدوا له أنه ليس من سلالة البشر وإنما هو من سلالة الالهة وأنه ابن إله ونسوا أنه يأكل ويشرب ويتغوط وينام.

وفى أواخر أيامه صار يفقد قواده واصدقاءه واحداً بعد الآخر ويتخلص منهم لأتفه الأسباب كما اعدم فيلوتاس ابن صديقه بارمينو كما قتل صديقه كلينوس كما راح رجاله يتساقطون كالذباب نتيجة الجوع والعطش وأصيب بنوبات جنون ثم حمى فى بابل ومات بعدها فهل يقارن هذا القائد بالرسول القائد ﷺ.

هنيبعل (هانيبال) بطل قرطاجة (التونسى)

عام ٨١٤ ق.م. أنشأت ملكة صور مدينة قرطاجة على الساحل الأفريقى وفيها ولد هنيبعل عام ٢٤٦ ق.م. لوالده هملقار برقة الملقب بالكبير.

وعندما قاتل هملقار أندروتس الأسباني الذى جمع ٥٠ ألف ليقاوم القرطاجيين فر الأخير فاعتقله هملقار وأمر بسَمْلِ عينيه وجلده بالسوط وصلبه حتى الموت وهكذا كانت الحروب قبل الميلاد وحتى الآن عدا حروب الرسول القائد ﷺ وقادته حروباً وحشية لا هدف لها ولا رحمة فيها تسعى وراء مجد زائف وذكرٍ فى التاريخ لا يفيد.

ولأول مرة فى التاريخ العسكرى ينتخب الجنود قائداً لهم هو هنيبعل رغم معارضة القيادة السياسية فى قرطاجة.

هنيبعل قائد عظيم قاد الألوف من المشاة والفرسان وإستخدم الدواب والأسلحة ووضع الخطط الحربية ودمر المدن والقرى وأحرق البيوت والزروع على مدى ٣٠ عاماً من عمره الطويل ولم يكن له هدف واضح إلا المجد الشخصي وهزيمة روما وليحالف فى ذلك من يريد من القبائل الاسبانية وغير الأسبانية مثل السورية.

كما أشتهر كأفضل من عبر جبال الألب بجيوشه وأفضل من حارب فى العواصف والثلوج وأعد خطط الخداع ونفذها ولكن لم تكن له عقيدة يروج لها أو يعمل على تحقيقها.

تسلق الجبال الشاهقة وإجتاز الأودية وما قامت فى وجهه عقبة إلا وتغلب عليها وكان يعبر الأنهار بالفيله والمركبات وعلى جذوع الأشجار وقتل وجرح وأصاب مئات الألوف من أعدائه ومن رجاله وإذا قورنت هذه الأعداد بأعداد سكان الشعوب التى قاتلها لكانت بالنسبة لأعداد السكان الآن تساوى الملايين من الجرحى والقتلى فكأنه فعل مثلما فعل هتلر وغيره فى الحروب العالمية الأولى والثانية.

وإنتصر إنتصاراً ساحقاً على جنود روما عند بحيرة تراسيمين وسحق الجيش الروماني فى أسوأ هزيمة عرفتها روما فى تاريخها وفقد إحدى عينيه من مرض الحمى.

وفى ٣ يوليو ٢١٦ ق.م. إنتصر على الرومان فى معركة "كان" عندما أجبرهم على مواجهة الشمس والعواصف وقتل من الرومان ٥٠ ألف مقاتل وكان شعار المتقاتلين النصر أو الموت الذى حوله الرسول القائد ﷺ إلى النصر أو الشهادة ودخول الجنة

وقتل أسراه وعذبهم وأحرقهم فى الحمامات من شدة الحرارة كما وصل إلى أبواب روما وفشل فى إقتحامها وبقي حوالي ٥ سنوات فى إيطاليا محاطاً بالحديد والنار والجيوش الكبيرة لا يفعل شيئاً وينتظر الفرصة لقتال الرومان وكان يرسل جنوده يقتلون وينهبون ويدمرون وكانت نهايته الحربية الهزيمة على يد الرومان فى معركة "زاما" بالساحل الإفريقي ثم فر إلى سوريا ثم إلى جزيرة كريت واقام فى بيثينيا عدة سنوات إلى أن حاصره الجنود الرومان ليعتقلوه فتناول سماً كان يحتفظ به فى خاتمه وشربه ومات وعمره ٦٥ عاماً وفى عام ١٨١ قبل ميلاد السيد المسيح وقبل ميلاد المصطفى ﷺ بحوالي ٧٥١ عاماً وقضى عمره كله مقاتلاً باحثاً عن المجد الزائف والذهب والمال وترك خلفه مئات الألوف من القتلى والجرحى من أعدائه ومن رجاله ولو قورنت اعداد القتلى والجرحى بأعداد السكان حينئذ لكانت خسارة بشرية هائلة.

ألا يمكننا القول أن حروب الاسكندر كانت الحرب العالمية الأولى قبل الميلاد وحروب هنيبعل الحرب العالمية الثانية قبل الميلاد حروب لا هدف من ورائها إلا المجد والمال وتكوين الإمبراطوريات ثم جاء الرسول القائد ﷺ فشرع الحرب وقننها ووضع لها هدفاً واحد هو إحقاق الحق وتوحيد الله.

تيمور الأعرج (لنك) المغولى

القائد السفاح المخرب

ولد هذا القائد عام ١٣٣٦م قرب سمرقند فى جمهورية أوزباكستان الحالية إحدى الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى.

فى عام ١٣٦٩ قاد إنقلاباً على حاكم سمرقند ونصب نفسه ملكاً على عرشها وبدأ بعدها عصر حملات السلب والنهب وتدمير الصروح الحضارية.

فى أعوام ١٣٨١ – ١٣٩٧ شهدت غزواته الهمجية والتخريبية فارس ولكن السلطان برقوق من دولة المماليك الجراكسة فى مصر إستطاع أن يدفع غائلته عن مصر.

فى عام ١٣٩٣ إستولى على بغداد وأشاع الخراب والدمار فى كل المناطق التى عبرها.

عام ١٣٩٥ غزا روسيا وهزم جيوش قبيلتي الحشود الذهبية والحشود البيضاء المغوليتين.

عام ١٣٩٨ غزا الهند ونهب العاصمة دلهي.

عام ١٤٠١ أكتسح جيش المماليك فى الشام وخرب حلب ودمر أغلب المنشآت التى بناها صلاح الدين ثم أستولى على دمشق ونقل خيره الصناع وأهل الحرف إلى سمرقند.

فى عام ١٤٠٢ هزم السلطان العثمانى بايزيد الأول فى أنقرة وأسره ويقال انه كان يحمله أينما يذهب فى قفص من حديد فمات كمداً وقد فاوضته كثير من الممالك ومنها مصر لإتقاء شره.

عام ١٤٠٥ توفى هذا السفاح المغولي الذى أدعى أنه من سلالة جنكيز خان وهو يحاول غزو الصين.

لقد دفعت الشعوب الإسلامية ثمناً باهظاً لطموحات وغزوات تيمور لنك ذلك الثمن كان من حضارتها ودماء الألوف من ابنائها الذين يقدرون بالملايين إذا قورنوا بعدد الناس فى ذلك الوقت ولم يكن لهذا الرجل رغم كل شىء فكر أو هدف من هذه الفتوح

وان كان له هدف إنساني فقد فشل فيه كل الفشل إذا قورن بما بناه محمد بن عبد الله ﷺ بالسلم قبل الحرب.

القادة وأخلاق الحرب فى أول العصور الوسطى وأوسطها

يقول الفيلد مارشال مونتجمري فى كتابه "مذكراتي" - والذى ترجمته وزارة الدفاع المصرية إلى العربية عام ١٩٧١ تحت عنوان تاريخ الحرب - عن المصطفى ﷺ :

"وفى عام ٦٢٢ تحرك محمد ﷺ مع أتباعه من مكة إلى المدينة وبدأ إمتداد الإسلام والحضارة العربية منذ ذلك الوقت وقد قاد النبي ﷺ بنفسه ٣٠٠ من أتباعه فى هجوم على قافلة مكية. وفى هذا الهجوم كسب أول نصر عسكري .. وفى عام ٦٢٨ تمكن النبي ﷺ ومعه ١٤٠٠ من المقاتلين من فرض شروطه على مكة كما أضاف إلى قواته جنديين يقاتلان فى سبيل دعواه رجلين سيكونان فيما بعد أعظم قادة للإسلام أثناء سيره ألا وهما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وفى خلال ١٢ سنة من موت محمد ﷺ فى عام ٦٣٢ تمكن خلفاؤه من إنتزاع مصر وسوريا من الإمبراطورية البيزنطية كما أنهوا بسرعة حياة الإمبراطورية الفارسية والتي وصلت لمرحلة الإنهيار وفى خلال ١٠٠ سنة امتدت الإمبراطورية الإسلامية من بحر الاورال إلى أعالي النيل ومن تخوم الصين إلى خليج البسكاى وبالطبع فإن الذين فتحوا هذه البلاد هم أحفاد الأسرى الذين أطلق النبي ﷺ سراحهم وأحفاد المشركين الذين قاتلهم النبى ﷺ ".

من الواضح أن مونتجمري لم يتعمق كثيراً فى دراسة معارك الرسول القائد ﷺ ولا فى دراسة الإسلام ربما لأن معارك الرسول ﷺ كانت قليلة وبسيطة ولم تخلف وراءها خسائر بشعة كسائر الحروب التى أهتم بها ولكن الرسول ﷺ فى رأيه خلف قادة مسلمين فتحوا العالم شرقاً وغرباً بالرحمة والعدل.

ومن الملاحظ أن مونتجمري كان فى حديثه عن الحروب الإسلامية والعربية يكثر من إستخدام كلمة ذبح ونهب العرب ومشاة الجيش العربي النهابون وكمثال يقول عن معركة اليرموك: "وفى عام ٦٣٦ أرسل الإمبراطور هرقل جيشاً من ٥٠ ألف مقاتل وعند وادي اليرموك تقابل معهم خالد بن الوليد والذى كان معه نصف القوة البيزنطية وفى واحدة من أكثر مناطق العالم حرارة وغباراً هزم العرب البيزنطيين وذبح أهل الصحراء الجنود البيزنطيين".

ويقول: "ويعود نجاح العرب فى غزواتهم إلى إستخدامهم بذكاء فنون القتال للخيالة والجمال فى مناطق كانت مناسبة تماماً لهذه الفنون أي أراضي شمال أفريقيا وغرب آسيا المفتوحة وفى الحقيقة كانت مشاة العرب عبارة عن مجموعة من النهابين".

ولقد تنبه المصطفى ﷺ خاتم النبيين رحمة الله للعالمين إلى مغريات الغنائم فنبه الرماة يوم أحد ألا يتركوا أماكنهم لنصرة إخوانهم حتى لو كانوا ينهزمون وخالفه الرماة وكانت الهزيمة فى البداية وفى كل معارك المسلمين بعد ذلك كان الفشل حليفهم إذا انشغلوا بالغنائم وتركوا قتال العدو وتحقيق الهدف من المعركة واتهمهم العسكريون الغربيون بأن العرب نهابون وهو ما يخالف الحقيقة تماماً.

ويقتبس مونتجمري من كتاب الإمبراطور ليو الحكيم (٨٨٦ ــ ٩١٢) قوله عن العرب أن جيشهم لم يكن جيشاً منظماً ولكنه كان خليطاً من المتطوعين فالرجل الغني ينضم للجيش نتيجة إفتخاره بنسبه أما الفقير فعلى أمل النهب كما أن مقاتلي العرب كانوا على الأخص معرضين جداً إذا هوجموا وهم قائمون بالنهب أو بعد إنسحابهم مباشرة من الأراضى البيزنطية وهم مثقلون بالغنائم.

كما يقول: "وفى العصور الوسطى فى النصف الثانى من القرن العاشر قام البيزنطيون بالهجوم على العرب والبلغار واستولى نفقور فوقاس على كريت عام ٩٦١ وعلى قبرص وطرسوس عام ٩٦٥ وعلى أنطاكيه عام ٩٦٩ وربما كان بازيل الثانى (٩٧٦ ــ ١٠٥٢) هو أعظم جندي فى أواخر الإمبراطورية البيزنطية فقد شتت عام ٩٩٥ بارونات آسيا الصغرى الثائرين كما حصن حدوداً دفاعية قوية فى أرمينيا ثم تحول ليسدد ضربة قاصمة للبلغار وفي عام ١٠١٤ عند بيلاستزا دمر بازيل الثانى الجيش البلغاري وكسب لقب قاتل البلغار - البحث عن ألقاب فى الحروب - وبعد المعركة فقأ عيون ١٥ ألف أسير تاركاً لكل ١٠٠ أسير أسيراً واحداً بعين واحدة ليقود باقي الأسرى إلى قيصرهم"

وليس هناك قائد عربي أو مسلم واحد فعل ذلك على مدى التاريخ إقتداء بحسن معاملة الرسول العظيم ﷺ للأسرى.

ويقول: "وفى عام ٧١٨ تدفق العرب من خلال جبال البرانس ولم يأسف الفرنجة لرؤية ما يحدث من نهب وتدمير لمملكة القوط الغربيين فى اكويتانيا ولكن فى عام ٧٣٢ عندما قاد عبد الرحمن جيشاً عربياً واندفع به شمالاً حتى تور أصبح الموقف أكثر خطورة وجمع شارل مارتل - شارل المطرقة - قوات الفرنجة وتقدم ضد العرب والذين كانوا ينسحبون بما نهبوه فى إتجاه بواتييه ولستة أيام واجه الجيش العربي بخيالته الخفيفة جيش الفرنجة وطبقاً للمؤرخ أسيدورس باكينسيس فعندما هاجم عبد الرحمن فى النهاية وقف رجال الشمال بدون حركة مثل الحائط الثابت وكانوا مثل الحزام من الجليد المتجمد المتماسك وحتى عندما ذبحهم الأعراب بسيوفهم لم يتحللوا أو يتفككوا".

"وفى عيد الميلاد المجيد لعام ٨٠٠ م توج البابا شارلمان فى روما إمبراطوراً وشارلمان هذا كانت له طرق وحشية فى معاملة الأسرى مثل ذبحه ٤٥٠٠ أسير ساكسوني وثني عام ٧٨٢ م عند موقعة فردان وذلك فى يوم واحد ومثال آخر على تصرفاته وضع قانوناً لمعاقبة التهرب من التعميد أو أكل اللحوم فى الصوم الكبير وقد اعتبره الكثيرون نموذجاً للإمبراطور المسيحي خلال العصور الوسطى وبالتأكيد كان يمكن لحكومته أن تدعي بصدق أن حروبها هى حروب صليبية حقيقية وذلك أكثر من حروب حكام العصور الوسطى المنافقين الساخرين الذين تلوا عصره".
ذبح شارلمان أسراه عام ٧٨٢ م بعد وفاة أرحم القادة محمد ﷺ بحوالي ١٥٠ عاماً حيث توفى الرسول ﷺ عام ٦٣٢ م.

كانت الحروب فى أوروبا فى العصور الوسطى تدار لأغراض السلب والنهب والسيطرة وليست بسبب الصليب فالمسيحية بريئة من كل أعمال القتال التى دارت فى أوروبا على مدى تاريخها الطويل فيقال مثلاً عن الفايكنج أنهم لديهم ميزة على أعدائهم ألا وهى الضخامة غير العادية لأجسامهم ولياقتهم البدنية العالية وتواجد نوعان خاصان من المقاتلين الفايكنج وكان أفراد النوع الأول هم البرسركيون وهم فى الأرجح عبارة عن قوات منظمة خصيصاً من المجانين - مما يدل على أنها حروب عبثية ولا معقولة - والذين كانوا يختارون لقوتهم وضراوتهم الخارقة وتكون النوع الثانى من النساء حاملات التروس اللاتى كن يصاحبن الفايكنج الأبطال واللاتي وصفن بالمقاتلات المرعبات.

يقول المارشال مونتجمري معلقاً على بدايات الحروب الصليبية أن البابا أربان الثانى وجه فى كلير مونت عظة لكل أوروبا هي من أقوى العظات وأعظمها أثراً فى تاريخ العصور الوسطى قائلاً: "لقد كللت إنتصارات المسلمين وسيادتهم للشرق كل المسيحيين بالخزى والعار وتدنست الأرض المقدسة العزيزة على كل قلوب المسيحيين والتى هى بحق ملك للمسيحية ومن الواجب إنقاذ الأرض المقدسة والمدينة المقدسة بإزالة العار الذى لحق بالمسيحية ولن يكون ذلك إلا بتدمير قوى العدوان الإسلامي للأبد والحرب التي أدعوكم إليها هى حرب مقدسة ولتكن صرخة المعركة "تلك إرادة الله" وسيكسب من يفقد حياته الجنة وستُمحى كل خطاياه".

ويقول مونتجمري الرجل العسكري ساخراً: "ولكن لم تكن هناك خطط حربية تفصيلية فالرب سوف يوفرها لهم".

أين كل هذا من كل ما دعا إليه الرسول القائد ﷺ من محاربة الشرك فقط ولم يحارب أهل الكتاب إلا لنقضهم العهود ورغم أن محمد ﷺ كان منصوراً من ربه إلا أنه كل يعدّ الخطط ويحتاط لكل شيء.

يقول مونتجمري: "وفي أوائل يناير عام ١٠٩٩ تقدم الفرنجة إلى بيت المقدس وفي يولية وبعد خمسة أسابيع من الحصار أستولوا على المدينة حيث ذبحوا كل سكانها وعملياً لم يقابل الصليبيون أية مقاومة إسلامية فقد كان المسلمون منقسمين على أنفسهم حيث كانت الخلافة الفاطمية تخشى الأتراك السلاجقة بمهاجمتها".

"إرتكزت القوة الرئيسية فى جيوش المسلمين فى الحروب الصليبية على رماة السهام الراكبة وقد جهز هؤلاء الرماة تجهيزاً أخف من فرسان الصليبيين كما كانت خيل المسلمين أسرع وأسهل فى الإستخدام وكانت مشكلة المسلمين الكبرى هى عدم وحدة القيادة وكمثال فشل الأمراء القادة المسلمون فى عام ١١٠٤ فى استغلال نصرهم عند أران Arran نتيجة تشاجرهم على الأسلوب وقد كان صلاح الدين الأيوبي هو القائد الأفضل بدون جدال لقوات الإسلام فى الحروب الصليبية بصفة عامة والذى عامل أعداءه دائماً بكل الرحمة".

ونقول تعليقاً على ذلك أن الرسول القائد ﷺ قد أكد فى كل غزواته على وحدة القيادة التى تتمثل في شخصه العظيم فالكل يأتمر بأمره فى كل الغزوات والسرايا وكمثال فإن المشركين فى غزوة بدر كان لهم أكثر من قائد فاختلفوا وإنهزموا.

أخلاق الحرب
عند الرسول القائد ‥ والقادة الآخرين

منذ قتل قابيل أخاه هابيل والحرب بين الأفراد وبين الأمم والدول لا تتوقف ولن تتوقف حتى تقوم الساعة وفى كل جانب من الخصمين المتصارعين يقف القائد على رأس رجاله يخطط لهم ويقودهم بشجاعته وفكره وقليل من القادة من يهتم بحياة رجاله ويحافظ على أرواحهم ويحقق أهدافه بأقل خسائر ممكنة وعلى رأس هؤلاء القادة خاتم المرسلين الرسول القائد ﷺ .

وقد رأيت أن أقارن بين ما فعله سيد البشر وخاتم المرسلين وما فعله مشاهير القادة على مر التاريخ حتى الآن فلجأت إلى كتاب تاريخ الحرب لمؤلفه الشهير الفيلد مارشال مونتجمرى ترجمة الجيش المصرى الذى استعرض قصة الحرب منذ فجر التاريخ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية فأخذت منه مقتطفات قارنت فيها بين أفعالهم وافعال رسولنا الكريم فوجدت فى سيرته دروساً لا تنقطع فى أخلاقيات الحرب التى تراعى مبادىء الإنسانية وتحفظ لها كرامتها .

<u>شهادة مونتجمرى للقادة عبر العصور :</u>

ولقد اخترنا شهادة أحد القادة العسكريين الغربيين المشهورين فى الحرب العالمية الثانية والذى أشتهر بهزيمة المحور فى معركة العلمين فى مصر عام ١٩٤٢ وبهذه المعركة وغيرها كانت نهاية هتلر الذى أشعل حريقا" فى العالم لغير سبب مفهوم إلا تفوق الجيش الألمانى والإستئثار بالثروة والقوة فى العالم .

هذا القائد هو الفيلد مارشال برنارد لو مونتجمرى فيكونت أوف علمين الذى تولى القيادة فى الجيوش البريطانية فى الحرب العالمية الثانية حتى قيادة الجيش الثامن فى شمال أفريقيا والذى إنتصر على القائد الالمانى العبقرى روميل الذى أثر عنه أنه قال أنه تعلم فكرة حروب الصحراء وخفة الحركة من القائد المسلم خالد بن الوليد وقد انهزم هذا القائد الفذ لنقص الإمداد وليس لنقص فكرة هزيمة عدوه وتولى مونتجرى وظيفة نائب القائد الأعلى لقوات الحلفاء (٥١ – ١٩٥٨) وألف كتاب مذكرات مونتجمرى والذى ترجمته وزارة الدفاع المصرية وطبعته عام ١٩٧١ باسم " تاريخ الحرب " .

يقول مونتجمري في مذكراته :

" مارلبورو القائد البريطاني الشهير الذى حقق إنتصارات لبلاده أتهم فى نهاية حياته بالإختلاس وطردته الملكة آن من جميع مناصبه ولكن التهم كانت باطلة فأعادت له اعتباره .

مارلبورو وفريدريك الأكبر :

" أن مارلبورو استولى على التل الحصين سسلنبرج بعد ساعة ونصف من القتال الوحشى للغاية وكانت الرجال تذبح أو تتمزق عند فوهات المدافع والسونكيات والتى أخترقت أحشاءهم وكان نصرا" باهظ التكاليف . ولقد بدا لى أن بعض الذين كان يطلق عليهم الجنرالات البارعون فى القتال فى الحرب العالمية الأولى (١٤-١٩١٨) كان عندهم إستخفاف كامل بالأرواح البشرية .

فأين هذا من حروب الرسول القائد ﷺ الذى كان يحافظ على رجاله بل وحتى أعدائه.

" إعتبر فريدريك الأكبر أحد قادة القرن الثامن عشر فى أوروبا أن الجوع ينهك الرجال أكثر من الشجاعة وأكد أهمية تجويع العدو (قواته وليس المدنيين) وذلك بالمناورة التى تبعدهم عن مصادر إمدادهم "

وفى بدر حرم الرسول القائد ﷺ المشركين من المياه لينصرفوا إلى مكة ولكنهم أصروا على البقاء ومهاجمة المسلمين فكتب الله عليهم الهزيمة .

واصلت كتيبة التجنيد الإجبارى والسجون عام ١٧٩٧ إمداد البحرية البريطانية بأغلب المجندين مما يعنى أنها كانت حروب إستعمارية يديرها المرتزقة كما يحدث فى العراق فى بداية القرن الحادى والعشرين بوجود جيش مرتزقة معظمه من البريطانيين بقوة ٤٤ ألف جندى يعيثون فى العراق فسادا" من قتل وتدمير وإلصاق أعمالهم بكل فئات الشعب العراقى المصاب فى وطنه وفى وحدته .

نابليون العظيم :

" قاد نابليون جيش إيطاليا وعمره ٢٧ عاما" وبعد ستة أسابيع من القتال بهذا الجيش كان بإمكان هذا القائد أن يقول لجنوده بدون مغالاه : لقد كسبتم معارك بدون مدافع وعبرتم انهارا" بدون كبارى وقمتم بمسيرات قهرية بدون أحذية وعسكرتم كثيرا" بدون طعام "

ونقول لنابليون ما هو الهدف النهائى ونقول لم يقاتل جنود المصطفى ﷺ أبدا حفاة أو جائعين بل كان يبيح لهم الإفطار فى رمضان أثناء الحرب .

وفى ليلة أول ديسمبر كان كوتوسوف قائد القيصر الكسندر الأول الروسى فى حربه ضد نابليون وعدد آخر من الضباط الكبار الروس سكارى ومن الصعب أن يكون ذلك بداية طيبة لمعركة ضد نابليون .
" وفى عصر نابليون كان الجنود البريطانيون يجندون من طبقات المجرمين ومن عناصر ليست من أحسن عناصر الأمة " .

" فى عام ١٨١٥ لقى نابليون هزيمته النهائية على أيدى الجيوش المتحالفة بقيادة البريطانى ويلينجتون وبلوخر عند ووترلو بالقرب من بروكسل وحل السلام فى أوروبا بعد ٢٣ عاما" من الحروب ونفى نابليون إلى سانت هيلانه حيث توفى هناك عام ١٨٢١ بعد كل ما صنعه فى الشعوب الأوروبية " .

ولقد صدر كثير من الأحكام على نابليون وأفعاله ولقد بدا لى دائما" أنه كان طموحا" جدا" فلقد كان مصمما" أن يكون معروفا" كأعظم قائد على الإطلاق ودفعه هذا الطموح إلى الهزيمة النهائية "

ونحن ننزه رسولنا العظيم ﷺ عن مثل هذا الطموح أو الهزيمة النهائية وربما كان لنابليون إصلاحات سياسية وإجتماعية وحضارية كثيرة فهل كان لابد من الحرب لتتم هذه الإصلاحات .
هذا القائد العظيم ذهب بجيش قوامه ٥٠٠ ألف جندى لغزو روسيا ولكنه فشل وعاد بخمسين ألف جندى فقط وفقد ٤٥٠ ألف جندى فى سبيل طلب مجد لم يتحقق لقد أعماه الطموح عن حقائق الجغرافيا والتاريخ وضاع منه الهدف .

<u>جنكيز خان :</u>
وعن جنكيز خان يقول مونتجمرى فى مذكراته : " توقف جانكيز خان وقواته عند ين – كنج العاصمة (سميت بعد ذلك بكين) لسنوات لقد كان هذا الموقف الذى إستمر ست سنوات من ١٢١١ إلى ١٢١٦ م وإنسحب المغول فى كل خريف ليعودوا فى الربيع التالى مجتاحين فى أرتال منفصلة عبر الأرض المفتوحة وفى كل عام كان تدميرهم أكثر هولا" وبعدها عاد جانكيز خان إلى عاصمته كاراكوروم فى شمال صحراء الجوبى ومعه الغنيمة الثمينة التى وعد بها مقاتليه وكذلك حرفيين ومدرسين صينيين قاتلا" أسراه الذين لا قيمة لهم " ..
فهل كرم أحد الأسرى مثل محمد ﷺ .

" أستغرق جانكيز خان وقتا" طويلا" فى قهر الإمبراطورية الخوارزمية الإسلامية بقيادة الشاه وكانت سياسة جانكيز خان وقواده هى بث الرعب وإعلان نفسه فى المساجد أنه (سوط الله) واستبقى فقط فى إمبراطورية الخوارزميين الأفراد الفنيين والخبراء والذين قد يفيدون المغول أمّاما" عدا ذلك من السكان فقد أبيدوا وعندما لم يتبق أحد من البشر ذبح المغول الحيوانات وبذلك يكون جنكيز خان قد قهر أكبر إمبراطورية فى العالم فى عصره والتى أمتدت من الخليج العربى إلى المحيط الهادى ومن غابات سيبيريا إلى جبال الهملايا " .

" كان جانكيز خان عظيما" ولكنه كان همجيا" عديم الرحمة بل كان أكثر شخصية وحشية لعدة عصور من التاريخ " .

الساموراى فى اليابان :

" فى اليابان كان على الساموراى (المقاتل) أن يموت فى سبيل سيده . وكان عليه أيضا" أن يقاتل حتى الموت بدلا" من التسليم للعدو . وإذا ما حدث واستسلم فسوف يكون هدف للاحتقار الكلى ولا يستحق المعاملة كانسان . ولهذا السبب كانت معاملة اليابنيين لأسراهم فى حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ سيئة للغاية .. وإذا ما حل بالساموراى هذا الخزى والعار فإنه يجب عليه الإنتحار على طريقة هاراكيرى أى طعن نفسه بسيفه .. وإعتبارا" من القرن الثانى عشر أصبحت الهاراكيرى ظاهرة متزايدة بإستمرار وتوجد مواقف كثيرة إنتحر فيها مئات الساموراى معا" بدلا" من الإستسلام للعدو " .

وفى الهند فى العصور الوسطى استخدم الجيش الهندى الفيلة والجمال للنقل وكذلك الجمال والخيل الصغير والثيران والعربات التى تجرها الثيران وتواجد حشد كبير ومتعدد من توابع المعكرات مثل الرهبان والعاهرات والتجار والمنشدين وفى بعض المواقف مثلما حدث للملك داهير ملك السند عام ٧١٢ م أى بعد وفاة الرسول القائد ﷺ بحوالى ٨٠ عاما" عندما أصطحب الجراحين فى جيشه وعامل الأسرى معاملة لائقة " .... وربما كانوا قد سمعوا عن حروب المسلمين بعد الرسول العظيم وحاولوا تقليدهم " .

يقول المارشال مونتجمرى فى كتابه تاريخ الحرب :

" كان الاتراك قادرين على هزيمة الهندوس نتيجة إمتلاكهم درجة عالية من الصفات الحربية الضرورية والتى يفتقدها الهندوس وقد وجدوا رضا" وتسامحا" . وقابلوا ذلك بنشاط الشعوب البربرية الذى إستثاره الاخلاص المتعصب للدين الإسلامى . وإلى جانب حماسهم لدينهم النابع من دخولهم حديثا" فانهم إمتلكوا أيضا" صفات المجتمع

المتماسك المؤمن بالقضاء والقدر والمختصر للموت كما تميزوا بالجدية والإعتدال في حياتهم الشيء الذى ينقص كل الهندوس " .

فى معركة سولفرينو التى كان نابليون الثالث طرفا" فيها عام ١٨٥٩ ووقعت فيها مذبحة مروعة كان من نتيجتها أن قام السويسرى " هنرى دونانت " بعمل لجنة الصليب الأحمر الدولية ووافقت فيها ١٢ دولة على إتفاقية جنيف الاولى عام ١٨٦٤ وتولى الصليب الأحمر كمثال العناية بحوالى نصف مليون جريح ومريض فى الحرب الفرنسية الروسية عام ١٨٧٠ .

وبإدخال نظام التجنيد الإجبارى على الطريقة الالمانية وصلت أعداد جيوش أوروبا ما بين عام ١٨٧٠ – ١٨٩٨ كالآتى :

الجيش الألمانى ٣ مليون رجل
الجيش الفرنسى ٣ مليون رجل
الجيش الروسى ٤ مليون رجل
الجيش النمساوى ٢ مليون رجل

وزادت نفقات الدفاع الأوروبية حوالى ٥٠% فى الفترة من ١٨٧٤ إلى ١٨٩٦ مما أدى إلى عقد مؤتمر لنزع السلاح فى الهوج عام ١٨٩٩ وفى هذا المؤتمر قال مندوب أمريكا أن حكومته لا تعتبر تقييد إستخدام الإختراعات العسكرية أمرا" موصلا" لسلم العالم .

<u>وعن الحروب الإستعمارية ضد الشعوب الفقيرة يقول :</u>

كانت القوات النظامية الأوروبية مضطرة إلى تناسى تدريبها التكتيكى الأساسى على الحروب الأوروبية لتبنى طرق حرب العصابات والهمجيين ضد الأهالى وتدمير قراهم وقطعان ماشيتهم " .

<u>خسائر الحرب العالمية الأولى :</u>

" وتعتبر الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ أدمى حرب فى التاريخ حتى وقتها وكانت الخسائر هى النتائج المؤثرة والمثيرة فقط فى هذه الحرب ولم يتوفر لعدد كبير من القتلى قبر معروف حيث أنهم قد نسفتهم نيران المدفعية وحولتهم إلى أجزاء مبعثرة وفى بعض الحالات كونت الجثث جزءا" من الخنادق حيث التهمت الفئران هذه الجثث فى النهاية وقد اشتعلت هذه الحرب المدمرة بسبب إغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند المفتش العام للجيش النمساوى الهنفارى فى سيرايفو فى ٢٨ يونيه ١٩١٤ .

" كانت المعارك الكبرى فى عام ١٩١٦ هى معارك الفردان والسوم واستمرت معركة الفردان حوالى عشرة أشهر تقريبا" ويضع تقدير فرنسى الخسائر الإجمالية للجانبين كالآتى :

٤٢٠ ألف قتيل

٨٠٠ ألف جريح أو مصاب بالغاز

حوالى ١,٢٢٠ مليون قتيل ومصاب

وعند نهاية المعركة كانت الجبهة تقريبا" بالضبط كما كانت عندما بدأت المعركة وكتب اليستار هورن فى كتابه " ثمن المجد " عن هذه المعركة :
لم يكسب أى جانب شيئا" فى معركة الفردان فقد كانت معركة غير حاسمة فى حرب غير حاسمة . معركة غير ضرورية فى حرب غير ضرورية . معركة ليس فيها منتصرون .

" وكلفت معركة السوم من (٧/١ إلى ١٩١٦/١١/١٨) كل جانب حوالى ٥٠٠ ألف رجل بين قتيل وجريح وأسير وهناك كسب الحلفاء نتوءا" من الأرض الموحلة ليس أعمق فى أى نقطة من حوالى تسعة أميال وذلك فى مواجهة ٢٠ ميل أو ما شابه ذلك والذى ليس له فى نفس الوقت أى قيمة إستراتيجية "

فأين هذا من حروب المصطفى ﷺ التى لم يزد فيها القتلى من المسلمين وخصومهم عن حوالى ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ رجل ولم يستولى أحد على أرض إلا ما أمر به الله سبحانه وتعالى .

وفى معركة أيبر الثالثة بين الحلفاء والمحور (الوسط) من ٧/١١ إلى ١٩١٧/١١/١٠ فقد البريطانيون حوالى ٢٤٠ ألف رجل وفقد الألمان نفس العدد تقريبا" " .

" وفى الجبهة الشرقية بين روسيا والنمسا خسرت روسيا ٢ مليون رجل عام ١٩١٥ وعدد واحد مليون رجل عام ١٩١٦ "

<u>خسائر ومآسى الحرب العالمية الثانية :</u>

" وفى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ والتى بدأها هتلر بكتابة كفاحى الذى يقول فيه : " إن السلام ليس إلا فترة إستعداد لحرب شاملة " وأصبح النظام النازى جهازا" للحرب ينادى بالحرب وبلغت خسائر هذه الحرب ٤٠ مليون إنسان منهم ١٧ ـ ١٨ مليون مدنى " .

" وفى ٣٠ إبريل ١٩٤٥ إنتحر هتلر فى عاصمته برلين وترك المانيا محطمة تماما" وترك قائدا" جديدا" للجيش الالمانى ذهب فى ٤ مايو ١٩٤٥ ليوقع بيانا" بالتسليم للحلفاء بدون قيد ولا شرط لجيش المانى يبلغ مليونين من الرجال المقاتلين " .

وفى الحرب العالمية الثانية إستخدم اليابانيون أسلوب الألغام البشرية حيث يربض جندى فى حفرة ومعه قنبلة طائرة زنة ١٠٠ كجم بين ركبتيه ويوجد حجر كبير فوق الطابة وعندما تمر دبابة معادية فوق حفرته يقوم بإسقاط الحجر فتنفجر القنبلة والرجل معا" كما إستخدم الطيارون اليابانيون التكتيكات الإنتحارية حيث كانوا ينقضون بطائراتهم المحملة بالقنابل مباشرة على أسطح الحاملات الأمريكية وعلى السفن غير المسلحة الأخرى .

وللاستيلاء على أوكيناوا الجزيرة اليابانية أستمر القتال عليها من أول أبريل حتى ١١ يونيه ١٩٤٥ وقتل فيها ١٠٠ ألف يابانى و ٣٩ ألف أمريكى .

القنابل الذرية حرب إبادة :

ويقول المارشال مونتجمرى فى مذكراته : " وبلغ القصف الهجومى ذروته فى أغسطس وفى ٦ أغسطس أسقط الأمريكيون أول قنبلة ذرية على هيروشيما حيث قتل ٨٠ ألف من السكان وفى ٩ أغسطس أسقطت الثانية على نجازاكى والتى قتلت ٤٠ ألف من السكان أكثر من مجموع قتلى الغارات الجوية على لندن وشعر الامريكيون بأن لديهم المبرر لإستخدام هذا السلاح الجديد حيث كان لازال لدى اليابان ٢٥٠ ألف رجل وأن اليابان التى عاملت أسراها بوحشية والتى إنتهكت كل الاتفاقيات الدولية للحرب مثل الصليب الأحمر والتى استخدمت الألغام البشرية والطيارين الانتحاريين لم تتلق فى النهاية أية رحمة من الحلفاء "

" وعلى كل فقد كان إسقاط القنابل الذرية تخبطا" سياسيا" رئيسيا" وأيضا" أول مثل على مستوى هبوط الأخلاقيات فى إدارة الحرب الحديثة ولم تمنح سنوات الحرب الستة من ٣٩ – ١٩٤٥ الدول الغربية السلام العادل والدائم الذى حاربوا من أجله "

الحرب بين العالميتين جرائم ضد البشرية :

ويقول " ومن إستعراض تاريخ الحرب فى العصور الحديثة يبدو أنه كلما أصبح الرجال أكثر تحضرا" كلما أصبحت حروبهم أكثر فظاعة ويمكن القول أنه فى العصور الحديثة قد انتهكت بوقاحة وبلا حياء قواعد السلوك المتفق عليها وأرتكبت جرائم ضد البشرية خاصة أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية " .

وتشمل أخلاقيات الحرب موضوعات مثل الشرف وطرق القتل والتسليم ومعاملة الأسرى والجرحى والسلوك فى الميدان وفكرة الحرب الشاملة والقوانين الدولية للحرب والتى وضع أسسها ومارسها الرسول القائد ﷺ منذ ١٣٧٥ سنة ميلادية ولكن الغربيين لم يسمعوا عنها أو ينقلها لهم أحد من المسلمين الذين أخذوا موقف الدفاع فقط ضد مقولة أن الرسول ﷺ وأتباعه قد نشروا الاسلام بحد السيف

قبل الرسول الخاتم ﷺ وفى اليونان قبل الميلاد بـ ٥٠٠ عام استخدمت فى الحرب الخيانة والآبار المسممة والأسلحة المسممة وفى أعمال الحصار فى العصور الوسطى قذفت جثث الحيوانات الميتة عبر التحصينات الدفاعية لكى تنشر العفونة والأمراض وإننا لننزه المصطفى ﷺ عن إستخدام أى وسيلة قذرة لمحاربة خصومه .

ورغم وجود معاهدة جنيف الأولى عام ١٨٦٤ بشأن معاملة الأسرى ومسئولية الصليب الأحمر الدولى إلا أن الدول المتحاربة لم تلتزم بهذه المعاهدة وأعدت معاهدة جديدة بعد الحرب الثانية كما أقر مؤتمر الهوج الثانى عام ١٩١٧ قرارات تختص بالسلوك الإنسانى للحرب وفى مؤتمر واشنطون عام ١٩٢٢ للحد من التسلح تمت الموافقة على بعض قواعد الحرب .. هذه الاتفاقات كلها أنتهكت ولا تزال تنتهك حتى الآن " .

<u>الطريق إلى السلام الدائم :</u>

والخلاصة أنه لن يكون هناك سلام مستقر على الأرض إلا بعد عودة القوات المسلحة لجميع الدول لبلادها وترك الشعوب حرة والإتفاق على إحترام المبادىء المشتركة للديانات السماوية الثلاثة وكل فلسفات ومذاهب السلم والتعايش الدولى .

والآن ونحن فى بدايات القرن الحادى والعشرين وهناك تسع دول لديها سلاح نووى هى أمريكا وروسيا والصين وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل والهند وباكستان وكوريا الشمالية والسلاح النووى يتدرج من القنابل الذرية التكتيكية الصغيرة إلى القنبلة الهيدروجينيه وكلها تكفى لتدمير كوكب الأرض كله عدة مرات أو تدمير كواكب المجموعة الشمسية إذا إستطاع الإنسان ذلك .

وفى الحرب الثانية ١٩٣٩ – ١٩٤٥ بلغ الوزن الكلى للقنابل التى أسقطها الحلفاء فى كل من مسرحى أوروبا والمحيط الهادى حوالى ٣,٥ مليون طن وإذا عبرنا عن هذا الرقم باللغة النووية فإنه يكون ٣,٥ ميجا طن وهو أقل من قوة قنبلة هيدروجينية واحدة من الحجم المتوسط من آلاف القنابل التى تمتلكها تلك الدول التسع ..

لذلك فإن كل دولة أو شعب يشعر بثرائه وقوته يحاول أن يسيطر على باقى الدول والشعوب تساعده فى ذلك أوهام القوة الخادعة التى تقوده للهلاك ولو عرف البشر ما فى شريعة المصطفى ﷺ من تقنين للحرب أسبابها وأساليبها لما إنحرفوا بها إلى طريق الخراب الشامل والدمار الكامل ..

الرسول الخاتم أعظم القادة :

ومن شهادة قائد عسكرى غربى عن قادة الحرب عبر التاريخ وإختلاق الحرب فى الحروب المختلفة يمكننا القول أن الرسول القائد ﷺ لم يكن يسعى من حروبه ليقال القائد البطل أو العبقرية العسكرية الفذة ولم يكن يسعى لمجد شخصى أو دنيوى وإنما كان يحارب اذا أضطر لذلك ليقال لا إله إلا الله محمد رسول الله خاتم النبيين رحمة الله للعالمين ﷺ وهو كما وصفه أحمد شوقى

والحرب فى حق لديك شريعة * ومن السموم الناقعات دواء

الرسول القائد ﷺ وميزان العلم العسكرى الحديث

الرسول القائد ﷺ أرسله الله رحمة للعالمين وخاتماً للنبيين ولم يرسله قائداً عسكرياً محارباً وإنما كانت الحرب عندما أمره الله بها دفاعاً عن الإسلام والمسلمين فالحرب عند الرسول القائد ﷺ وسيلة من وسائل حماية الدعوة والدفاع عنها وليست غاية فى حد ذاتها يراد بها إخضاع العرب والروم والفرس بالقوة لعقيدة التوحيد وكانت الحرب هى آخر الحلول التى يواجه بها الرسول ﷺ خصوم الإسلام.

وفى مفهوم القيادة الحربية هناك منها نوعان أحدهما تهيئة وسائل القتال وإعداد الجنود وما يحتاجون وهى القيادة العليا التى غالباً ما يضطلع بها رؤساء الدول أو الحكومات أو القيادات السياسية العسكرية وثانيهما إدارة القتال أى تنفيذ الخطط فى ميدان المعركة ومن سيرة المصطفى ﷺ نجد أنه مارس النوعان القيادة السياسية العسكرية العليا عندما أرسل السرايا ودوريات الإستطلاع كما مارس القيادة الميدانية لكل الغزوات التى قادها ﷺ بنفسه وتعلم منه الصحابة الذين فتحوا العالم بعد ذلك كل مبادىء وأخلاق الحرب وإنسانيتها وتشريعاتها.

وقد غرس المصطفى ﷺ فى أتباعه وبعلم اعطاه الله له كل خصائص الجندية الرحيمة والإنسانية ومنها الصفات والاخلاق الآتية:

الطاعة

فى الحرب لا يكون عمل عسكري بغير قيادة ومن غير طاعة لا تكون قيادة. فالطاعة أوجب الواجبات وبدونها لا تنعقد سلسلة القيادة ولا يكون نظام أو إنضباط.
والقرآن الكريم حض على طاعة الرسول القائد ﷺ وفى أحاديثه الشريفة كذلك وقد جّرب المسلمون عندما خالفوا الرسول ﷺ فى غزوة أحد فكانت الهزيمة بعد نصر ثم ثبات ونصر نهائي فى الغزوة.

الشرف العسكرى

أو ما يمكن أن نسميه فى ثقافتنا العربية أخلاق الحرب الرفيعة لأن الحرب بلا أخلاق رفيعة نوع من القتل المنظم وإغتصاب للأموال والأرض والمرعى والممتلكات والشرف العسكري واخلاق الحرب مارسهما الرسول ﷺ كأحسن ما تمارس هذه الأخلاق وعلمها للقادة المسلمين الذين تربوا على يديه خلال الغزوات وأثناء قيادة السرايا التى كان يرسلها هنا وهناك.

وهناك فى العرب - أمة المصطفى ﷺ - أخلاق الشجاعة والنخوة والغيرة على العرض والوطن وعدم الكذب والرياء والنفاق وعدم الفرار من لقاء العدو وقد حذر الحق سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز المسلمين من الفرار من الميدان أو إعطاء ظهورهم للعدو إلا للمناورة والإلتفاف لتحقيق النصر وليس للنكوص والخروج من القتال.

لقد رمى أهل المدينة خالد بن الوليد وجنوده المنسحبين من مؤتة بالحجارة والطوب وسموهم بالفرار ولكن الرسول القائد العظيم ﷺ كان يعلم صدق إيمانهم فسماهم الكرّار إن شاء الله وليسوا الفرار. لقد كان الإنسحاب من مؤتة عملاً عسكرياً باهراً أنقذ الجيش المسلم قليل العدد من إبادة كانت أكيدة على يد جيش الروم الهائل العدد. إن قتال المسلمين ليس هدفه الإنتحار بحثاً عن بطولات مزعومة وإنما لاعلاء ونشر كلمة التوحيد.

الثقافة العامة

هى المدرسة الحقيقية للقيادة وبدونها تذهب المعلومات العسكرية هباء والرسول القائد ﷺ كان ملماً بتاريخ العرب وحضارتهم وعاداتهم وآدابهم وأوتي جوامع الكلم والفصاحة وتدرب وتعلم على القتال وربما لم يعجبه فوضى القتال فى الجاهلية وأسلوب الكر والفر والنهب والإغارة وغير كل ذلك ووضع للحرب شريعة إنسانية راقية أشاد بها الأعداء المنصفون. كما أضاف ﷺ إلى علم وفن الحرب الكثير الذى امتلأت به كتب السيرة الشريفة.

التدريب العملى

تدرب المصطفى ﷺ على الحرب فى حروب الفجار وربما مارس الفروسية والرماية قبل البعثة وكان بإمكانياته الذاتية ﷺ يستطيع أن يقود الجيوش وهو فى شبابه مثل نابليون والإسكندر ولكنه لم يمارس القتال إلا فى الخامسة والخمسين من عمره فى غزوة بدر عندما أذن له الله بالقتال والدفاع عن عقيدة التوحيد.

الصفات الشخصية

يقول المارشال ويفل: "إن القائد الناجح يجب أن يكون على خلق. إنه يعرف هدفه جيداً ثم تكون له من الشجاعة وقوة العزيمة ما يمكن له من تحقيق هذا الهدف تماماً وقد كان الرسول القائد ﷺ على خلق عظيم كما وصفه ربه بذلك فنصره الله وكان للمصطفى ﷺ من صفات القادة الكثير ومنها:

- الإرادة حيث يستطيع أن يتخذ القرار ويتحمل مسئولية تنفيذه.

- الثبات على الجهد وهى صفة مكملة للإرادة وهى نوع من الصبر المطلوب من القائد وقد صبر الرسول القائد ﷺ فى كثير من المواقف الحرجة مثل مواقف بدر وأحد وحنين والخندق.
- الشجاعة الفطرية ـ ألم يقل علي بن أبى طالب كنا إذا أشتد القتال نحتمي برسول الله ﷺ وكان دائماً أقربنا إلى العدو وهو الذي قال فى إحدى الغزوات أنا النبى لا كذب .. أنا بن عبدالمطلب.إن الإستعداد للقتال والشجاعة فيه تنهي المعركة مبكراً لصالح المسلمين بما يحقن دماءهم بل ودماء اعدائهم.
- الكتمان وهو صفة إمتاز بها الرسول القائد ﷺ كما إمتاز فى كل شيء وساعدته على تحقيق النصر بغير قتال كما حدث فى فتح مكة.
- الصلابة حيث كان المصطفى ﷺ صلباً لا تهزه كارثة أو هزيمة مؤقتة ولا توهن عزمه مفاجأة أو تضعفه الجروح التى أصيب بها فى بعض الغزوات بل إستمر فى القتال بل وفى مطاردة المشركين كل ذلك ليرفع معنويات المسلمين ويحقق لهم النصر بأقل الخسائر.
- القدوة الحسنة فالرسول القائد ﷺ قدوة حسنة للمسلمين ولغير المسلمين فى السلم والحرب وما فعله فى فتح مكة من العفو العام عن أهل مكة وما فعله من إطلاق سراح الأسرى لأسباب كثيرة متنوعة وهل يمكننا أن نقول أن من كثرة ما أطلق الرسول ﷺ من سراح الأسرى أنه كان ينتظر من يتشفع للأسرى من صحابته أو من فضائل الأسرى عنده.

الرسول القائد ﷺ هو أعظم القادة العسكريين على مر التاريخ وهى صفة من صفاته العديدة التى لا تحصى لأنه أرسل رحمة للعالمين وخاتماً للنبيين على عقيدة التوحيد وإعلاء كلمته بين الناس كافة وأهم ما يميز صفاته العسكرية هى الرحمة والتسامح وحقن دماء الناس كلما وجد لذلك سبيلاً دون أن يؤثر ذلك على عزة الإسلام وقوته.

والقادة العسكريون الآخرون درسوا وبحثوا ونقبوا وصنفوا كبار القادة فى التاريخ ولكن المصطفى ﷺ بالنسبة للمسلمين منهم إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق رحمة الله للعالمين والجانب العسكري لديه جانب واحد مضيء من جوانب عديدة كان جانباً مكملاً ووسيلة لاستكمال تبليغ الرسالة عندما عجزت الوسائل الأخرى وهو بالنسبة لغير المسلمين المنصفين منهم مصلح إجتماعي وحد العرب وانشأ لهم دولة خاض حروباً ليس عليه غبار فيها فليست هناك إبادة أو إغتصاب أو نهب.

أما غير المسلمين غير المنصفين فلهم رأي فى رسولنا العظيم ﷺ ندعو الله لهم بالهداية وأن يراجعوا أنفسهم ويقيسوا عظمة الرسول ﷺ وأفعاله بميزان العدالة والإنصاف.

الصحابة القادة العظام

كان أبو بكر الصديق أول من أسلم من الرجال على يد المصطفى ﷺ وكان وزيره الأول وخليفته الأول حيث مارس دوره التاريخي وهو القيادة السياسية والعسكرية العليا لدولة الإسلام فأداه كأحسن ما يكون الأداء وكان عمر بن الخطاب الخليفة الثانى لرسول الله ﷺ مارس القيادة السياسية والعسكرية كذلك لدولة الإسلام وكان كلاهما قريباً جداً من رسول الله ﷺ أثناء قيادته للغزوات والسرايا وتعلموا منه شريعة وأخلاق الحرب واختاروا للمسلمين قادة من أصحاب رسول الله ﷺ الذين صدق وثبت إيمانهم ورحمتهم وعدلهم.

لقد حدث على يدي هذين الخليفتين درس فى القيادة وأخلاقها لا يتكرر كثيراً فى التاريخ وهو موت أبو بكر وتولي عمر الخلافة وقد قرر عمر بن الخطاب عزل خالد وتولية أبي عبيدة قيادة الجيوش فى معركة اليرموك الدائرة الرحى ووصل القرار إلى أبي عبيدة فكتمه حتى أنجلى الموقف وظهرت علامات النصر فأبلغه إلى خالد الذى تلقاه بثبات ورضا ونزل عن القيادة لأبي عبيدة.

انها درس القيادة فى التاريخ كله وأبلغها درساً وأجلها مقاماً مارسها صحابة الرسول القائد ﷺ كما علمهم واقتدوا به.

فالقائد المنتصر قد صدر قرار عزله وهو ينظر إلى مصارع خصومه ويرفع ألوية النصر فلم يبد عليه أي إنحراف أو تمرد وإنما أطاع الأمر فى الحال ونزل عن القيادة راضياً ولم يطلب التقاعد أو العودة لأسرته وإنما أستمر تحت قيادة القائد الجديد يطيع أوامره وينفذ تعليماته.

والقائد الجديد لم تسكره الفرحة ولم يعجل بإستلام القيادة وإنما كتم السر فى نفسه حتى تحقق النصر ثم أعلن الأمر لصاحبه على إستحياء.

فى العام الثانى عشر من الهجرة أعد الخليفة الأول للرسول القائد ﷺ أربعة جيوش لقتال الروم.

- الجيش الأول بقيادة يزيد بن أبي سفيان لفتح دمشق.
- الجيش الثانى بقيادة شرحبيل لفتح بصرى.
- الجيش الثالث بقيادة عمرو بن العاص لفتح فلسطين.
- الجيش الرابع بقيادة أبوعبيدة لفتح حمص.

وقال أبو بكر لقواده: إذا إجتمعتم فقائدكم أبو عبيدة وأوصاهم بوصية هى وثيقة عسكرية تاريخية تبين مدى سماحة الإسلام ورحمته بالاعداء والتى علمنا أياها الرسول القائد ﷺ:
"إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك فى سيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم فى الأمر وأستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فإنه لا يفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم".

"وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواهم جهنم وبئس المصير".

"وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخاً ولا إمرأة ولا طفلاً ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم".
وفى رسالة أبى بكر إلى قائد جنده يزيد بن أبى سفيان قال:

"إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وأبداهم بالخير وعدهم أياه وإذا وعظتهم فاوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لأوقاتها وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به وأنزلهم فى ندوة عسكرك وأمنع من قبلك عن محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم وإذا أستشرت فأصدق الحديث تصدق المشورة وأسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتتكشف عنك الأستار وأكثر حرسك وبددهم فى عسكرك وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير إفراط وأعقب بينهم بالليل وأجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فانها أيسرها لقربها من النهار وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس".

وعلي بن أبى طالب أمام المتقين رابع الخلفاء الراشدين والذى رافق الرسول الخاتم ﷺ فى معظم غزواته وبارز وإنتصر للإسلام كعادة العرب وفتح حصون اليهود وبالطبع فإنه حضر بدر وشاهد إستيلاء المسلمين على آبار المياه وحرمان مشركي قريش منها.

وفى معركته مع معاوية قارب أن يكون النصر حليف علي ورجاله وكادوا يستولون على مصادر المياه بميدان المعركة وأشار عليه أصحابه بحرمان معاوية وجنوده منها لكنه رضي الله عنه رفض ذلك قائلاً ما معناه أن المصطفى ﷺ حرم المشركين من المياه وهو لا يستطيع أن يحرم المسلمين من المياه ولو كانوا خصومه ويحاربون

وهذا هو فهم الإسلام الصحيح للحرب انها لإحقاق الحق وليست للتنكيل بالأعداء وإذلالهم.

ومع هؤلاء الثلاثة العظام كان هناك العشرات من كبار الصحابة الذين تتلمذوا على يد رسول الله ﷺ وتخرجوا من مدرسته العسكرية ونهلوا من أخلاقها وعلومها وفنونها ما يعد مفخرة لصاحب الدعوة وللإسلام إلى يوم الدين منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص الذين قال فيه الأستاذ السيد فرج فى كتابه "إنتصارات عربية خالدة":

"لقد كان سعد من شباب محمد ﷺ الذين أستجابوا لدعوته وتأثروا برسالته واغترفوا من حسناته وبركاته فصفت نفوسهم وصح إسلامهم وأشتدت فى الجهاد عزيمتهم وانصقلت فى غمار الأحداث شخصياتهم فكانوا أبطالاً فى ساحات الوغي وساحات الشدة يقبلون على الموت فيفر منهم الموت وتنتصر قلتهم على أضعاف أضعاف عددهم وبهذا هزموا المشركين وقضوا على المرتدين وأدالوا دولة الروم وختموا على سلطان الفرس وصاروا من أصحاب الفواصل فى التاريخ".

وقد أسر إليه عمر بوصيته التالية:
"إنى قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه الا الحق فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به وأعلم أن لكل عادة عتادا فعتاد الخير الصبر".
"يا سعد عليك بالثبات عند الشدائد والتجلد فى المكاره فاصبر وصابر والله مع الصابرين".

وبدأ سعد يضع خطته فقرر أن يبدأ بالسياسة قبل القتال وكان هذا من رأي عمر تجنباً لإراقة الدماء إذا ما استمع الفرس للإنذار وإستجابوا للحق فالهدف الحقيقي لحملة العرب في فارس لم تكن الغزو والغلبة وإنما كانت الدعوة إلى الإسلام وإلا فالجزية .. وأخيراً .. الحرب!

مراجع الكتاب

- القرآن الكريم
- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ـ محمد ناصر الألباني ـ المكتب الإسلامي ببيروت ودمشق
- حياة محمد ﷺ ـ د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف بمصر
- الرسول القائد ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان
- أطالس القرآن الكريم والحديث النبوي والسيرة النبوية ـ د. شوقي أبو خليل ـ دار الفكر دمشق
- بين العقيدة والقيادة ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان
- قادة النبي ـ ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ دار العلم دمشق والدار الشامية بيروت
- غزوات الرسول ﷺ ـ الشيخ محمد متولي الشعرواي ـ مكتب التراث الإسلامي القاهرة
- تاريخ الحرب ـ مونتجمري ـ ترجمة وزارة الدفاع جمهورية مصر العربية
- من مراجع أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية ـ عباقرة الفكر الاستراتيجي بين الماضي والحاضر
- الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ ـ مايكل هارت ـ ترجمة أنيس منصور ـ دار المعارف مصر

- قصص الأنبياء ـ محمد أحمد برانق ـ دار المعارف
- ساسلة الناجحون ـ دار العلم للملايين بيروت
- أصول القيادة ومشاهير القادة ـ السيد فرج ـ دار الجمهورية ـ مصر
- انتصارات عربية خالدة ـ السيد فرج ـ دار الشعب ـ مصر
- محمد رسول الحرية ـ عبد الرحمن الشرقاوي
- عبقرية محمد ـ عباس محمود العقاد
- معركة العلمين ـ السيد فرج ـ دار المعارف ـ مصر

محتويات البحث

	صفحة
مقدمة	٣

الفصل الأول

الرسول القائد ﷺ ومسرح الحرب

تاريخ مولد الرسول القائد ﷺ	٧
مولد المصطفى ﷺ مولد لأعظم الحضارات	٨
محمد ﷺ الإنسان الكامل قبل البعثة وبعدها	١١
الرسول القائد ﷺ رجولة مبكرة وتحمل الأمانة	١٣
الرسول القائد ﷺ رب الأسرة	١٤
المسرح السياسي والديني أثناء البعثة المحمدية	١٥
اليمن والحبشة قبل البعثة المحمدية	١٦
المسرح الجغرافي لغزوات وسرايا الرسول القائد ﷺ	١٨
بعض التقاليد الإجتماعية والعسكرية قبل البعثة	٢٠
الرمي عند العرب	٢٢
الخريطة الدينية قبل البعثة ومكة	٢٣
ثلاثة عشر عاماً بمكة من الحرب الباردة	٢٦
الفتح العظيم.. الفتح السلمي للمدينة	٢٧
الهجرة من مكة إلى المدينة ـ من القيود على العقيدة إلى حرية العقيدة والمواطنة	٢٨
بدء بناء القوة العسكرية في المدينة	٣٢
أول ميثاق مواطنة ومعايشة وسلام	٣٣
متى عرف الرسول القائد ﷺ الحرب	٣٥
هجرة الرسول ﷺ.. تفجير الطاقات	٣٧
أخلاقيات الحرب في الهجرة النبوية	٣٩
منابع العسكرية العربية الإسلامية	٤٠

الفصل الثاني
من السيرة النبوية
غزوات وسرايا الرسول القائد

صفحة

الأمر بالقتال.. لا يعني الإجبار على اعتناق الدين ٤٧
السرايا الأولية ٤٩
سرية عبد الله بن جحش ورفضه القتال في الأيام الحرم ٥١
مقدمات غزوة بدر الكبرى ٥٣
أختيار أرض المعركة في بدر وبناء مركز القيادة والتسليم بالقيادة للرسول ﷺ ٥٦
المبارزة ـ آل الرسول القائد ﷺ رأس الحربة ٥٧
الرسول القائد ﷺ يحرض جنوده على القتال ويقاتل معهم ٥٨
المسلمون لا يقتلون من ساعدهم على التمسك بالإسلام ٦١
دفن أعداء المسلمين ٦٤
قسمة الفيء ٦٥
أسرى بدر ٦٦
آثار بدر في المدينة ٦٨
غزوة بدر.. قيادة وأخلاق رفيعة ٦٩
حصار يهود بني قينقاع ٧١
الرسول القائد ﷺ وأركان حربه ٧٢
ما قبل أحد ٧٤
الرسول القائد ﷺ يقاتل للدفاع والرد والردع فقط ٧٥
طبيعة القتال في الغزوات والسرايا ٧٧
غزوة أحد ٧٨
النبي الخاتم ﷺ يتشاور ولا يفرط ولا يتراجع ٨١
المعنويات في غزوة أحد وعدم قتل النساء ٨٣
أحد.. نصر توسطه هزيمة المخالفة ٨٥
فتنة النصر والغنيمة وخطيئة المخالفة ٨٦
ثبات الرسول القائد ﷺ وتأمينه ٨٧
المسلمون لا يشوهون جثث أعدائهم ٨٩
المرحلة الثالثة واسترداد الهيبة ٩٠
سرية أبي سلمة ابن عبد الأسد ٩٢
الغدر يوم الرجيع ٩٣

صفحة

يوم بئر معونة	٩٤
جلاء بني النضير جزاء غدرهم	٩٥
بدر الآخرة.. ردع أو نصر بلا قتال	٩٧
غزوتا ذات الرقاع ودومة الجندل ردع وتأمين	٩٩
الارتباط بين غزوتي الخندق وبني قريظة وإجلاء بني النضير	١٠٠
الخندق	١٠٢
يهودي من المطرودين يؤلب بني قريظة	١٠٥
ثبات القائد والاستماتة في الدفاع	١٠٧
دسيسة نعيم بن مسعود وهزيمة الأحزاب	١٠٩
بنو قريظة تحت الحصار الجولة الثالثة مع اليهود	١١٢
حكم سعد بن معاذ وقتل يهود بني قريظة	١١٣
حيي بن أخطب النضيري	١١٤
لا هولوكوست في الإسلام	١١٥
غزوة بني لحيان	١١٧
غزوة بني قرد لا تهور ولا حرب بدون هدف أو تخطيط	١١٨
غزوة بني المصطلق (شعبان ٥ هـ) بعد غزوة دومة الجندل	١١٩
عفو القائد الرحيم ﷺ عن عبد الله بن أبيّ في غزوة بني المصطلق	١٢٠
إطلاق سراح أسرى غزوة بني المصطلق من ملامح أخلاق الحرب لدى المصطفى ﷺ	١٢١
التحرك إلى الحديبية	١٢٢
حرص الرسول ﷺ على السلام	١٢٣
المفاوضات غير المباشرة مع قريش	١٢٤
بيعة الرضوان وفتح الحديبية	١٢٥
اعتراف بالدولة الإسلامية الوليدة وبدين الاسلام	
مبعوثو الرسول الأعظم ﷺ إلى الملوك	١٢٨
غزوة خيبر ثم صلح خيبر	١٣٠
حسن معاملة الرسول القائد ﷺ ليهود خيبر	١٣٤
عمرة القضاء عبادة واستعراض للقوة والاسلام	١٣٦
غزوة مؤتة	١٣٧
الشهادة وألم الفراق عقب مؤتة	١٤٠
فتح مكة سلماً	١٤٢
وأعدول لهم ما استطعتم من قوة	١٤٣
يوم الفتح والمحافظة على الهدف	١٤٤

صفحة

الرسول القائد ﷺ الفاتح المنتصر يعفو عند المقدرة لأهل مكة ١٤٧
العفو عمن ظلم وأجرم واستحق العقاب ١٤٨
تحرير مكة من الأصنام في العشر الأواخر من رمضان ١٤٩
حُنين وهزيمة الغرور ١٥١
ثبات القائد وحسم المعركة ١٥٣
بعض أسباب الهزيمة في البداية ١٥٤
حصار الطائف والقتال بالحديد والنار ثم رفع الحصار ١٥٥
العفو عن الأعداء عرفاناً بالجميل ١٥٦
فتنة الفيء وإرضاء حديثي الإسلام ١٥٧
الغنائم والأنصار ١٥٨
تثبيت الهيبة والسيادة في الجزيرة العربية ١٥٩
استمرار بناء القوة والدولة معاً ١٦٠
غزوة تبوك (العُسْرَة) وتأمين شمال الجزيرة ١٦١
خلوا بيني وبين الناس ١٦٤
جيش أسامة بن زيد ١٦٥
غزوات الرسول ﷺ .. ليست كالغزو في العصر الحديث ١٦٧

الفصل الثالث
أخلاقيات الحرب ومبادئ الحرب
في السيرة النبوية

أخلاقيات ومبادئ الحرب النصر من عند الله العزيز الحكيم ١٧١
أخلاقيات الحرب عند الرسول القائد ﷺ في خطط المعارك ١٧٣
مبادئ الحرب عند الرسول القائد ﷺ ١٧٤
أختيار الهدف والمحافظة عليه ١٧٥
الروح المعنوية والعقيدة القتالية ١٧٦
المبادأة والمفاجأة ١٧٧
العمل الهجومي للدفاع والمناورة لاستغلال النجاح ١٧٩
الحشد والاقتصاد في المجهود ١٨١
أمن وتأمين القتال ١٨٢
الرحمة في الحرب بالجميع ١٨٤
الحسم ١٨٧
الشورى ١٨٨

صفحة

المساواة بين القائد والجنود في الأعباء ١٨٩

اللياقة النفسية والبدنية للرسول القائد ﷺ ١٩٠

الرسول القائد ﷺ والحرب العادلة ١٩٣

حروب الرسول ﷺ حروب دفاعية ١٩٤

حروب الرسول ﷺ لدعم السلام ١٩٦

معارك الرسول ﷺ حرب إنسانية ١٩٧

معارك الرسول ﷺ حرب عقيدة ١٩٩

معارك الرسول ﷺ حرب مثالية ٢٠٢

حماية الأسرى والحفاظ على البيئة ٢٠٣

الحقوق الأساسية التي أقرها القانون الدولي الإنساني لأسرى الحرب ٢٠٦

من تعليمات الرسول القائد ﷺ وأصحابه بشأن الأسرى ٢٠٨

الجهاد في الإسلام كما شرعه الرسول العظيم ﷺ وطبقه في حياته ٢١٠

الفصل الرابع
الرسول القائد الأرحم ﷺ
والقادة الآخرون

الرسول القائد ﷺ القدوة والمعلم ٢٢٣

الرسول القائد ﷺ والقادة الآخرون لا وجه للمقارنة ٢٢٥

الرسول القائد ﷺ وموسى وعيسى عليهما السلام ٢٢٧

الاسكندر فاتح العالم القديم والفاتح الذي لا يقهر ٢٣٠

هنيبعل (هانيبال) بطل قرطاجة (التونسي) ٢٣٢

تيمور الأعرج (لنك) المغولي القائد السفاح المخرب ٢٣٤

القادة وأخلاق الحرب في أول العصور الوسطى وأوسطها ٢٣٦

القادة وأخلاق الحرب في العصور الحديثة ٢٤٠

الرسول القائد ﷺ وميزان العلم العسكري الحديث ٢٤٩

الصحابة القادة العظام ٢٥٢

مراجع البحث ٢٥٥

فهرست الخرائط

	صفحة
أصحاب الفيل	١٠
رحلة الشتاء والصيف	١٧
أم القرى	٢٤
مكة المكرمة	٢٥
الهجرة	٣١
بدر الكبرى	٥٥
غزوة بدر الكبرى	٦٠
غزوة أحد	٨٠
أبعاد الخندق	١٠٤
الحديبية	١٢٧
فتح خيبر	١٣٢
يهود خيبر	١٣٣
غزوة مؤتة	١٣٩
فتح مكة	١٤٦
تبوك ـ غزوة العُسْرَة	١٦٣

السيرة الذاتية

لواء أركان حرب مهندس/ ***محمد مختار عيد قنديل***
من مواليد محافظة المنوفية ـ جمهورية مصر العربية في ١٩٤٢/١٠/٥.

الخبرات العملية:

- تخرج من كلية الهندسة ـ جامعة عين شمس قسم الهندسة المدنية عام ١٩٦٤ بتقدير عام جيد جداً.
- عمل بسلاح المهندسين منذ التخرج حتى نهاية عام ١٩٩٣ وعمل بقيادة الجيش الثاني الفرع الهندسي أثناء حرب أكتوبر برتبة رائد.
- حصل على ماجستير علوم عسكرية (أركان حرب).
- عمل ملحقاً عسكرياً في كل من براغ وفيينا ووارسو وبرلين لمدة عامين.
- عمل كنائب لمدير أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية للدراسات العليا وحصل خلال هذه الفترة على زمالة كلية الحرب العليا (أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية).
- عمل كنائب رئيس جهاز البحوث والدراسات بوزارة الإسكان والتعمير.
- عمل كرئيس لكل من جهاز تعمير الساحل الشمالي الغربي وجهاز تعمير البحر الأحمر وجهاز تعمير سيناء وجهاز تعمير جنوب الصعيد.
- عمل كمدير لكل من برنامج الغذاء العالمي والمشروع المصري الألمانى لمقاومة التصحر بمطروح لمدة ٥ سنوات وعمل مديراً لبرنامج الغذاء العالمي بسيناء لمدة عام.
- يعمل حالياً كرئيس قطاع شرق القاهرة بشركة التعمير والإسكان للمرافق.
- يجيد اللغة العربية (اللغة الأم) واللغة الإنجليزية إجادة تامة حديثاً وكتابة.
- عضو إتحاد الكتاب المصري وله مؤلفات علمية وأدبية منها كتاب "ألوان من المشاق التي تحملها الرسول ﷺ".
- مصرح له بممارسة إلقاء الخطب أو أداء الدروس الدينية بالمساجد (رقم١٥٢- م م) من وزارة الأوقاف المصرية.

العنوان : ١٨ ش إسماعيل القباني م. نصر المنطقة الأولى – القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
تليفون المنزل : ٢٤٠٤٠٦٢٦(+٢٠٢) ـ ٢٤٠٤٠٦٢٧(+٢٠٢)
تليفون محمول: ٧٧١٨٦٤٦(+٢٠١٢) تليفون العمل :٧٥٧٥٦٤٤(+٢٠٢)

Bibliotheca Alexandrina
0941462